بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق

مكية كلها، وهي خمس وأربعون آية

مكية كلها في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. قال ابن عباس وقتادة: إلا آية، وهي قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ». وفي صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدًا سنتين — أو سنة وبعض سنة — وما أخذت «قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يقرؤها كل يومِ جمعة على المنبر إذا خطب الناس. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد الليثيّ ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ«قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» و«اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ». وعن جابر بن سمرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الفجر بـ«قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» وكانت صلاته بعدُ تخفيفا.

قوله تعالى: قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قرأ العامة «قاف» بالجزم. وقرأ الحسن وابن أبي إسحق ونصر بن عاصم «قافِ» بكسر الفاء؛ لأن الكسر أخو الجزم، فلما سكن

آخره حرّكوه بحركة الخفض . وقرأ عيسى الثقفيّ بفتح الفاء حرّكه إلى أخف الحركات . وقرأ هرون ومحمد بن السَّمَيْقَع « قافُ » بالضم ؛ لأنه فى غالب الأمر حركة البناء نحو منذُ وقطُّ وقبلُ وبعدُ . وٱختلف فى معنى « قۤ » ما هو ؟ فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك : هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء ٱخضرت السماء منه ، وعليه طَرَفَا السماءِ والسماء عليه مَقْبِيَّةٌ ، وما أصاب الناسُ من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل . ورواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس . قال الفرّاء : كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب فى « قۤ » ؛ لأنه ٱسم وليس بهجاء . قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من ٱسمه ؛ كقول القائل :

* قلتُ لها قِفِى فقالتْ قافْ *

أى أنا واقفة . وهذا وجه حسن وقد تقدّم أول « البقرة »[1] . وقال وهب : أشرف ذو القرنين على جبل قاف فرأى تحته جبالا صغارا ، فقال له : ما أنت ؟ قال : أنا قاف ؛ قال : فما هذه الجبال حولك ؟ قال : هى عروقى وما من مدينة إلا وفيها عرق من عروقى ، فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرنى فحركت عرقى ذلك فتزلزلت تلك الأرض ؛ فقال له : يا قاف أخبرنى بشىء من عظمة الله ؛ قال : إن شأن ربّنا لعظيمٌ ، وإن ورائى أرضا مسيرة خمسمائة عام فى خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضا ، لولا هى لاحترقت من حرّ جهنم . [فهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها ؛ وأين هى من الأرض][2] . قال : زدنى ، قال : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدى الله تُرْعَد فرائصُه ، يخلق الله من كل رِعدة مائة ألف ملك ، فأولئك الملائكة وقوف بين يدى الله تعالى منكسو رءوسهم ، فإذا أذن الله لهم فى الكلام قالوا : لا إله إلا الله ؛ وهو قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَٱلْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا »[3] يعنى قول : لا إله إلا الله . وقال الزجاج : قوله « قۤ » أى قُضِىَ الأمر ، كما قيل فى « حمۤ » أى حُمَّ الأمرُ . وقال ٱبن عباس : « قۤ » ٱسم من أسماء الله تعالى أقسم به . وعنه أيضا : أنه ٱسم من أسماء

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٥

(٢) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبى .

(٣) راجع جـ ١٩ ص ١٨٤

القرآن . وهو قول قتادة . وقال القُرظي : آفتتاح أسماء الله تعالى قدير وقاهر وقريب وقاض وقابض . وقال الشَّعبي : فاتحة السورة . وقال أبو بكر الورّاق : معناه قِف عند أمرنا ونهينا ولا تَعْدُهما . وقال محمد بن عاصم الأنطاكي : هو قرب الله من عباده، بيانه « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » . وقال آبن عطاء : أقسم الله بقوّة قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، حيث حمل الخطاب ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله . ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ أى الرفيع القدر . وقيل : الكريم ؛ قاله الحسن . وقيل : الكثير ؛ مأخوذ من كثرة القدر والمنزلة لا من كثرة العدد ، من قولهم : كثير فلان فى النفوس ؛ ومنه قول العرب فى المثل السائر : (فى كل شجر نار ، وآستمجد المَرْخُ والعَفَار[1]) . أى آستكثر هذان النوعان من النار فزادا على سائر الشجر ؛ قاله ابن بحر . وجواب القسم قيل هو : « قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ » على إرادة اللام؛ أى لقد علمنا . وقيل : هو « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى » وهو آختيار الترمذى محمد بن علىّ قال : « قٓ » قسم باسم هو أعظم الأسماء التى خرجت إلى العباد وهو القدرة ، وأقسم أيضا بالقرآن المجيد ، ثم آقتص ما خرج من القدرة من خلق السموات والأرضين وأرزاق العباد، وخلق الآدميين، وصفة يوم القيامة والجنة والنار، ثم قال : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » فوقع القسم على هذه الكلمة كأنه قال : « قٓ » أى بالقدرة والقرآن المجيد أقسمت أن فيما آقتصصت فى هذه السورة « لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » . وقال ابن كيسان : جوابه « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ » . وقال أهل الكوفة : جواب هذا القسم « بَلْ عَجِبُوا » . وقال الأخفش : جوابه محذوف كأنه قال : « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » لتبعثن ؛ يدل عليه « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ « أَنْ » فى موضع نصب على تقدير لأن جاءهم منذر منهم ، يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، والضمير للكفّار . وقيل : للمؤمنين والكفار جميعا . ثم ميّز بينهم بقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ ولم يقل فقالوا ، بل قبح حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر، كما تقول : جاءنى فلان فأسمعنى المكروه، وقال لى الفاسق

(١) المرخ والعفار : شجرتان فيهما نار ليس فى غيرهما من الشجر ، و يسوّى من أغصانهما الزناد فيقتدح بها .

أنت كذا وكذا . ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ العجيب الأمر الذى يتعجب منه ، وكذلك العُجَاب بالضم ، والعُجّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة . وقال قتادة : عجبهم أن دُعوا إلى إله واحد . وقيل : من إنذارهم بالبعث والنشور . والذى نص عليه القرآن أولى .

قوله تعالى : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ نبعث ؛ ففيه إضمار . ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ الرجع الردّ أى هو ردّ بعيد أى محال . يقال : رَجَعته أَرجِعه رَجْعًا ، ورَجَع هو يَرجِع رُجوعا ، وفيه إضمار آخر ؛ أى وقالوا أنبعث إذا متنا . وذكر البعث وإن لم يجر هاهنا فقد جرى فى مواضع ، والقرآن كالسورة الواحدة . وأيضا ذكر البعث منطوٍ تحت قوله : « بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » لأنه إنما ينذر بالعقاب والحساب فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أى ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء حتى تتعذر علينا الإعادة . وفى التنزيل : « قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى »(١) . وفى الصحيح : " كل ابنِ آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذَّنَبِ منه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ " وقدم تقدّم . وثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرضُ أجسادهم ؛ حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم . وقد بينا هذا فى كتاب « التذكرة » وتقدّم أيضا فى هذا الكتاب . وقال السدى : النقص هنا الموت يقول قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى ؛ لأن من مات دُفِن فكأن الأرض تَنقُص من الناس . وعن ابن عباس : هو من يدخل فى الإسلام من المشركين . ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ أى بعدّتهم وأسمائهم فهو فعيل بمعنى فاعل . وقيل : اللوح المحفوظ أى محفوظ من الشياطين أو محفوظ فيه كل شيء . وقيل : الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء ؛ كما تقول : كتبت عليك هذا أى حفظته ؛ وهذا ترك الظاهر من غير ضرورة . وقيل : أى وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بنى آدم لنحاسبهم عليها .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ أى القرآن فى قول الجميع ؛ حكاه الماوردى . وقال الثعلبى : بالحق القرآن . وقيل : الإسلام . وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٠٥

أى مختلط . يقولون مرة ساحر ومرة شاعر ومرة كاهن ؛ قاله الضحاك وابن زيد . وقال قتادة : مختلف . الحسن : ملتبس ؛ والمعنى متقارب . وقال أبو هريرة : فاسد ، ومنه مَرِجت أمانات الناس أى فسدت ، ومَرِجَ الدينُ والأمرُ اختلط ؛ قال أبو دؤاد :

مَرِجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ * مُشْرِفَ الحَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ (١)

وقال ابن عباس : المريج الأمر المنكر . وقال عنه عمران بن أبى عطاء : « مريج » مختلط. وأنشد (٢) :

فجَالَتْ فَالتمستُ به حَشَاهَا * فخَرَّ كأنه خُوطٌ مَرِيجُ

الخُوطُ الغصن . وقال عنه العوفيّ : فى أمر ضلالة وهو قولهم ساحر شاعر مجنون كاهن . وقيل : متغير . وأصل المَرَج الاضطراب والقلق ؛ يقال : مَرِج أمرُ الناس ومَرِج أمرُ الدِّين ومرِج الخاتم فى إصبعى إذا قَلِق من الهزال . وفى الحديث : "كيف بك ياعبد الله (٣) إذا كنت فى قوم قد مَرِجت عهودهم وأماناتُهم واختلفوا فكانوا هكذا وهكذا" وشبك بين أصابعه . أخرجه أبو داود وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

(١) الحارك الكاهل . والكتد مجمع الكتفين من الإنسان والفرس .

(٢) البيت للداخل الهذلى ؛ ويروى فراغت بدل بجالت والضمير للبقرة . و به أى بالسهم .

(٣) هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما فى مسند أبى داود .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ نظر آعتبار وتفكر ، وأن القادر على إيجادها قادر على الإعادة . ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ فرفعناها بلا عمد ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ بالنجوم ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ جمع فرج وهو الشق ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

* تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرْ [(١)] *

وقال الكسائى : ليس فيها تفاوت ولا آختلاف ولا فتوق . ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ تقدّم فى « الرعد » بيانه [(٢)] . ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أى من كل نوع من النبات ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أى حسن يسر الناظرين؛ وقد تقدّم فى « الحج » بيانه [(٣)] . ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ أى جعلنا ذلك تبصرة لندلّ به على كمال قدرتنا . وقال أبو حاتم : نصب على المصدر؛ يعنى جعلنا ذلك تبصيرا وتنبيها على قدرتنا ﴿ وَذِكْرَى ﴾ معطوف عليه . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ راجع إلى الله تعالى مفكر فى قدرته .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب ﴿ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ أى كثير البركة . ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ التقدير : وحبّ النبت الحصيد وهو كل ما يحصد . هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشىء إلى نفسه ، كما يقال : مسجد الجامع وربيعُ الأوّلِ وحقُّ اليقينِ وحبل الوريدِ ونحوها ؛ قاله الفرّاء . والأصل الحبّ الحصيد فحذفت الألف واللام وأضيف المنعوت إلى النعت . وقال الضحاك : حبّ الحصيد البُرُّ والشَّعيرُ . وقيل : كلّ حبٍّ يُحصد ويُدّخر ويُقتات . ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ نصب على الحال ردًّا على قوله : « وَحَبَّ الْحَصِيدِ » و « بَاسِقَاتٍ » حال [(٤)] . والباسقات الطوال؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقال قتادة وعبد الله بن شدّاد : بُسُوقها آستقامتها فى الطول . وقال سعيد بن جبير :

---

(١) البيت فى وصف فرسه ، وصدره :

* لها ذنب مثل ذيل العروس *

(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٠ . (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٤ .

(٤) هكذا فى الأصول ، ولعل صواب العبارة أن تكون كما قال السمين : « والنخل » منصوب على العطف أى وأنبتنا النخل ، و « باسقات » حال .

مستويات . وقال الحسن وعكرمة أيضا والفرّاء : مواقير حوامل ؛ يقال للشاة بَسَقت إذا ولدت ، قال الشاعر :

فَلَما تَرَكْنا الدارَ ظَلّتْ مُنِيفَةً * بِقُرّانَ فيه الباسقات المواقرُ

والأوّل فى اللغة أكثر وأشهر ؛ [يقال] بسَق النخلُ بُسُوقًا إذا طال . قال :

لنا خمرٌ وليست خمرَ كَرْمٍ * ولكنْ مِن نِتاجِ الباسِقاتِ

كِرامٌ فى السماء ذَهَبْنَ طولًا * وفاتَ ثِمارُها أيدى الجُناةِ

ويقال : بسق فلان على أصحابه أى علاهم ، وأبسقت الناقةُ إذا وقع فى ضرعها اللبن[(1)] قبل النِّتاج فهى مُبْسِق ونُوقٌ مَباسِيق . وقال قطبة بن مالك : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ « بَاصِقَاتٍ » بالصاد ؛ ذكره الثعلبي .

قلت : الذى فى صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال : صلّيت وصلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » حتى قرأ « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ » قال فجعلت أردّدها ولا أدرى ما قال ؛ إلا أنه لا يجوز إبدال الصاد من السين لأجل القاف . ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ الطلع هو أوّل ما يخرج من ثمر النخل ؛ يقال : طَلَعَ الطلعُ طُلوعًا وأطلعت النخلةُ ، وطَلْعها كُفُرّاها قبل أن ينشق . « نضيدٌ » أى متراكب قد نُضِّد بعضُه على بعض . وفى البخارى « النَّضِيدُ » الكُفُرّى ما دام فى أكمامه ومعناه منضود بعضه على بعض؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد . ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أى رزقناهم رزقا ، أو على معنى أنبتناها رزقا ؛ لأن الإنبات فى معنى الرزق ، أو على أنه مفعول له أى أنبتناها لرزقهم ، والرزق ما كان مهيأ للانتفاع به . وقد تقدم القول فيه[(2)] . ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أى من القبور أى كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم ؛ فالكاف فى محل رفع على الابتداء . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع[(2)] . وقال « مَيْتًا » لأن المقصود المكان ولو قال ميتة لجاز

(١) فى ح ، ز ، ى : اللبأ وهو وزان عنب ، أول اللبن عند الولادة .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧ وص ٢١١

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أى كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب ؛ ذكّرهم نبأ من كان قبلهم من المكذّبين وخوّفهم ما أخذهم . وقد ذكرنا قصصهم فى غير موضع عند ذكرهم . ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ من هذه الأمم المكذبة . ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أى فحق عليهم وعيدى وعقابى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ أى أفعيينا به فنعيا بالبعث وهذا توبيخ لمنكرى البعث وجواب قولهم : « ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » . يقال : عَيِيت بالأمر إذا لم تعرف وجهه . ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى فى حَيْرة من البعث منهم مصدّق ومنهم مكذّب ؛ يقال : لَبَس عليه الأمرُ يَلْبِسه لَبْسا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى الناس ، وقيل آدم . ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أى ما يختلج فى سرّه وقلبه وضميره ، وفى هذا زجر عن المعاصى التى يستخفى بها . ومن قال : إن المراد بالإنسان آدم ؛ فالذى وسوست به نفسه هو الأكل من الشجرة ، ثم هو عام لولده . والوسوسة حديث النفس بمنزلة الكلام الخفىّ . قال الأعشى :

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاسًا إذا انْصَرفتْ * كما اسْتعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ [1]

وقد مضى فى « الأعراف » [2] . ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان عن يمين وشمال . روى معناه عن ابن عباس وغيره وهو المعروف فى اللغة . والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين . وقال الحسن : الوريد الوتين وهو عِرق معلّق بالقلب . وهذا تمثيل للقرب ؛ أى نحن أقرب إليه من حبل وريده الذى هو منه، وليس على وجه قرب المسافة . وقيل : أى ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه . وقيل : أى ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذى هو من نفسه ، لأنه عِرق يخالط القلب ، فعلم الربّ أقربُ إليه من علم القلب، روى معناه عن مقاتل قال : الوريد عرق يخالط القلب، وهذا القرب قرب العلم والقدرة ، وأبعاض الإنسان يحجب البعضُ البعضَ ولا يحجب علم الله شيء .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أى نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان ، وهما الملكان الموكلان به ، أى نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملَك يخبر، ولكنهما وكّلا به إلزاماً للحجة، وتوكيداً للأمر عليه . وقال الحسن ومجاهد وقتادة : « الْمُتَلَقِّيَانِ » ملَكان يتلقيان عملك : أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك . قال الحسن : حتى إذا متّ طُوِيت صحيفة عملك وقيل لك يوم القيامة : « اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » [3] عدَلَ والله عليك من جعلك حسيبَ نفسك . وقال مجاهد : وكّل الله بالإنسان مع علمه بأحواله مَلَكين بالليل ومَلَكين بالنهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره إلزاما للحجة : أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات ، والآخر عن شماله يكتب السيئات ، فذلك قوله تعالى : « عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ » . وقال سفيان : بلغنى أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا أذنب [العبد] قال

---

(١) عشرق كزبرج : شجر ينفرش على الأرض عريض الورق وليس له شوك، وثمرته قشرة إذا هبت الريح فلقت تلك القشرة فتخشخشت فسمعت للوادى الذى تكون به زجلا و جلبة تفزع الإبل .

(٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٧ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٠

لا تعجل لعله يستغفر الله . وروى معناه من حديث أبى أمامة ؛ قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عَمِل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا وإذا عَمِل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر" . وروى من حديث على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن مقعدَ مَلكيك على ثَنِيّتَيْك[1] لسانُك قلمهما وريقُك مِدَادُهما وأنت تجرى فيما لا يعنيك فلا تستحى من الله ولا منهما" . وقال الضحاك : مجلسهما تحت الثغر على الحنك . ورواه عوف عن الحسن قال : وكان الحسن يعجبه أن ينظف عَنْفَقته . وإنما قال : « قَعِيدٌ » ولم يقل قعيدان وهما اثنان ؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأول لدلالة الثانى عليه . قاله سيبويه ؛ ومنه قول الشاعر[2] :

نَحْنُ بما عِندنا وأنتَ بما * عِنـدكَ راضٍ والرأىُ مُخْتَلِفُ

وقال الفرزدق :

إنى ضَمِنتُ لمن أتانى ما جَنَى * وأَبَى فكانَ وكنتُ غيرَ غَدُورِ

ولم يقل راضيان ولا غدورين . ومذهب المبرّد : أن الذى فى التلاوة أوّلٌ أُخِّرَ آتساعا ، وحذف الثانى لدلالة الأول عليه . ومذهب الأخفش والفراء : أن الذى فى التلاوة يؤدّى عن الأثنين والجمع ولا حذف فى الكلام . و « قَعِيدٌ » بمعنى قاعد كالسميع والعليم والقدير والشهيد . وقيل : « قَعِيدٌ » بمعنى مقاعد مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم .

وقال الجوهرى : فعيل وفعول مما يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ[3] » وقوله : « وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ[4] ظَهِيرٌ » . وقال الشاعر فى الجمع ، أنشده الثعلبى :

أَلِكْنِى إليها وخَيرُ الرَّسو * لِ أعلمُهم بنَواحِي الخَبَر[5]

(١) فى رواية أخرى عن على رضى الله عنه : « إن الملكين قاعدان على ناجذى العبد ... الخ » .
(٢) هو قيس بن الخطيم . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٩٣ . (٤) راجع جـ ١٨ ص ١٩١
(٥) ألكنى إليها : أرسلنى إليها ، والأصل فى ألكنى ألئكنى فحولت كسرة الهمزة إلى اللام وحذفت الهمزة .

والمراد بالقعيد هاهنا الملازم الثابت لا ضد القائم .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أى ما يتكلم بشىء إلا كتب عليه ؛ مأخوذ من لفظ الطعام وهو إخراجه من الفم . وفى الرقيب ثلاثة أوجه : أحدها أنه المتبع للأمور . الثانى أنه الحافظ ، قاله السدى . الثالث أنه الشاهد ، قاله الضحاك . وفى العتيد وجهان : أحدهما أنه الحاضر الذى لا يغيب . الثانى أنه الحافظ المُعَدّ إما للحفظ وإما للشهادة. قال الجوهرى : العتيد الشىء الحاضر المهيأ ؛ وقد عَتَّده تعتيدًا وأعتده إعتادًا أى أعدّه ليوم ، ومنه قوله تعالى : « وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً »(١) وفرس عَتَدٌ وعَتِدٌ بفتح التاء وكسرها المعَدّ للجرى .

قلت : وكله يرجع إلى معنى الحضور ، ومنه قول الشاعر :

لئن كُنتَ مِنِّى فى العِيَان مُغَيَّبًا　*　فذكرك عندى فى الفؤادِ عَتِيدُ

قال أبو الجوزاء ومجاهد : يكتب على الإنسان كل شىء حتى الأنين فى مرضه . وقال عكرمة : لا يكتب إلا ما يؤجر به أو يؤزر عليه . وقيل : يكتب عليه كل ما يتكلم به ، فإذا كان آخر النهار محى عنه ما كان مباحا ، نحو انطلق اقعد كُلْ مما لا يتعلق به أجر ولا وزر ، والله أعلم . وروى عن أبى هريرة وأنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله فى أول الصحيفة خيرا وفى آخرها خيرا إلا قال الله تعالى لملائكته اشهدوا أنى قد غفرت لعبدى ما بين طَرَفى الصحيفة " . وقال على رضى الله عنه : " إن لله ملائكة معهم صحف بيض فأملوا فى أولها وفى آخرها خيرا يغفر لكم ما بين ذلك " . وأخرج أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق بن خزيمة قال حدّثنا جَدّى محمد بن إسحق قال حدّثنا محمد بن موسى الحَرَشىّ قال حدّثنا سهيل ابن عبد الله قال : سمعت الأعمش يحدّث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الحافظين إذا نزلا على العبد أو الأَمَة معهما كتاب مختوم فيكتبان ما يلفظ به العبدُ أو الأمة فإذا أرادا أن ينهضا قال أحدهما للآخر فُكَّ الكتاب المختوم الذى معك فيفكه له فإذا فيه ما كتب سواء فذلك قوله تعالى «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ

(١) راجع ج ٩ ص ١٧٨

إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » " غريب من حديث الأعمش عن زيد ، لم يروه عنـه إلا سهيل . وروى من حديث أنس أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله وكّل بعبـده مَلَكين يكتبان عمله فإذا مات قالا ربنا قد مات فلان فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى إن سمواتى مملوءة من ملائكتى يسبحوننى فيقولان ربنا نقيم فى الأرض فيقـول الله تعالى إن أرضى مملوءة من خلق يسبحوننى فيقولان ياربّ فأين نكون فيقـول الله تعالى كونا على قبر عبدى فكبرانى وهللانى وسبحانى (١) وآكتبا ذلك لعبدى إلى يو القيامة " .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ أى غمرته وشـدّته ؛ فالإنسان ما دام حيًّا تكتب عليـه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها ، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعانية من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده . وقيل : الحقّ هو الموت سُمِّى حقًّا إما لآستحقاقه وإما لآنتقاله إلى دار الحق ؛ فعلى هـذا يكون فى الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره وجاءت سكرة الحق بالمـوت ، وكذلك فى قراءة أبى بكر وآبن مسـعود رضى الله عنهما ؛ لأن السكرة هى الحق فأضيفت إلى نفسها لآختلاف اللفظين . وقيل : يجوز أن يكون الحق على هـذه القراءة هو الله تعالى ؛ أى جاءت سكرة أمر الله تعالى بالموت . وقيل : الحق هو الموت والمعنى وجاءت سـكرة الموت بالموت ؛ ذكره المهـدوى . وقد زعم من طعن على القـرآن فقال : أخالف المصحف كما خالف أبو بكر الصـدّيق فقرأ : وجاءت سكرة الحق بالموت . فاحتج عليه بأن أبا بكر رويت عنه روايتان : إحداهما موافقـة للصحف فعليها العمل ، والأخرى مرفوضة تجرى مجرى النسيان منه إن كان قالها ، أو الغلط من بعض من نَقَل الحديث . قال أبو بكر الأنبـارى : حدّثنا إسمعيل بن إسحق القاضى حدّثنا على بن عبد الله حدّثنا جرير عن منصور عن أبى وائل عن مسروق قال : لـمـا آحتضر أبو بكر أرسـل إلى عائشة فلما دخلت عليه قالت : هذا كما قال الشاعر :

* إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاقَ بها الصَّدْرُ (٢) *

(١) فى ا ، ح ، ن ، ه : « واذكرانى » .

(٢) صدر البيت : * لعمرك ما يغنى الثراء ولا الغنى *

فقال أبو بكر : هلّا قلتِ كما قال الله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » وذكر الحديث . والسَّكْرة واحدة السَّكَرات . وفى الصحيح عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه رِكْوة — أو عُلْبة — فيها ماء فجعل يدخل يديه فى المـاء ، فيمسح بهما وجهه ويقول : " لا إله إلا الله إن للموت سكرات " ثم نصب يده فجعل يقول : " فى الرفيق الأعلى " حتى قبض ومالت يده . خرجه البخارى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن العبد الصالح ليعالج الموت وسكراته وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول السلام عليك تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة " . وقال عيسى بن مريم : « يامعشر الحواريين ادعوا الله أن يهوّن عليكم هذه السَّكْرة » يعنى سَكَرات الموت . وروى : " إن الموت أشدّ من ضربٍ بالسيوف ونشرٍ بالمناشير وقرضٍ بالمقاريض " . ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أى يقال لمن جاءته سكرة الموت ذلك ما كنت تفرّ منه وتميل عنه . يقال : حادَ عن الشيء يَحيد حُيودا وحَيْدَة وحَيْدُودة مال عنه وعدل . وأصله حَيَدودة بتحريك الياء فسكنت؛ لأنه ليس فى الكلام فَعْلُول غير صَعْفُوق . وتقول فى الأخبار عن نفسك : حِدْتُ عن الشيء أَحيد حَيْدًا ومَحِيدًا إذا ملت عنه ؛ قال طَرَفة :

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فَهِبْتَهُ * وحِدْتَ كما حاد البعيرُ عن الدَّحْضِ

قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هى النفخة الآخرة للبعث ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ الذى وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه . وقد مضى الكلام فى النفخ فى الصور مستوفى(١) والحمد لله .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ وجـ ١٥ ص ٢٧٩

قوله تعـالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ ٱختلف فى السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس : السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدى والأرجل؛ رواه العوفى عن ٱبن عبـاس . وقال أبو هريرة : السائق المَلَك والشهيد العمل . وقال الحسن وقتادة : المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها . وقال ٱبن مسلم : السائق قرينها من الشياطين سمى سائقا لأنه يتبعها و إن لم يحثّهـا . وقال مجاهد : السائق والشهيد ملَكان . وعن عثمان ٱبن عفان رضى الله عنه أنه قال وهو على المنـبر : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » سائق : مَلَك يسوقها إلى أمر الله ، وشهيد : يشهد عليها بعملها .

قلت : هذا أصح فإن فى حديث جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن ٱبن آدم لفى غفلة عما خلقه الله عز وجل له إن الله لا إلٰه غيره إذا أراد خَلْقه قال للمَلَك ٱكتب رزقه وأثره وأجله وٱكتبه شقيًّا أو سعيدًا ثم يرتفع ذلك المَلَك و يبعث الله ملكا آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسـناته وسيئاته فإذا جاءه الموت ٱرتفع ذلك[1] المَلَكان ثم جاء ملَك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أُدخل حفرته ردّ الروح فى جسده ثم يرتفع ملَك الموت ثم جاءه ملَكا القبر فٱمتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة ٱنحط عليه ملَك الحسنات وملَك السيئات فأنشطا[2] كتابا معقودا فى عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد ثم قال الله تعالى : « لَقَـدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ قال : " حالا بعد حال " ثم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن قُدّامكم أمرًا عظيما فاستعينوا بالله العظيم " خرجه أبو نعيم الحافظ من حديث جعفر بن محمد بن على عن جابر وقال فيه : هذا حديث غريب من حديث جعفر ، وحديث جابر تفرّد به عنه جابر الجُعفىّ وعنه المفضّل . ثم فى الآية قولان : أحدهما أنهـا عامة فى المسـلم والكافر وهو قول الجمهـور . الثانى أنها خاصة فى الكافر؛ قاله الضحاك .

(١) كذا فى جميع الأصول والدر المنثور ، والظاهر أن يكون « ذانك » .

(٢) أنشط الكتاب : حل عقدته .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ ﴾ قال ٱبن زيد : المراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى لقد كنت يا محمد فى غفلة من الرسالة فى قريش فى جاهليتهم . وقال ٱبن عباس والضحاك : إن المراد به المشركون أى كانوا فى غفلة من عواقب أمورهم . وقال أكثر المفسرين : إن المراد به البر والفاجر . وهو ٱختيار الطبرى . وقيل : أى لقد كنت أيها الإنسان فى غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد ؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلٰهية . « فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ » أى عَماك؛ وفيه أربعة أوجه : أحدها إذ كان فى بطن أمه فولد؛ قاله السدّى . الثانى إذا كان فى القبر فنشر . وهذا معنى قول ٱبن عباس . الثالث وقت العَرْض فى القيامة ؛ قاله مجاهد . الرابع أنه نزول الوحى وتحمل الرسالة . وهذا معنى قول ابن زيد . ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ قيل : يراد به بصر القلب كما يقال هو بصير بالفقه ؛ فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار ، كما تبصر العين ماقابلها من الأشخاص والأجسام . وقيل : المراد به بصر العين وهو الظاهر أى بصر عينك اليوم حديد؛ أى قوىّ نافذ يرى ما كان محجوبا عنك . قال مجاهد : « فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » يعنى نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك . وقاله الضحاك . وقيل : يعاين مايصير إليه من ثواب وعقاب . وهو معنى قول ٱبن عباس . وقيل : يعنى أن الكافر يحشر وبصره حديد ثم يزرق ويَعْمَى . وقرئ « لَقَدْ كُنتِ » « عَنكِ » « فَبَصَرُكِ » بالكسر على خطاب النفس .

قوله تعالى : وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ يعنى المَلَك الموكّل به فى قول الحسن وقتادة والضحاك . ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أى هذا ما عندى من كتابة عمله مُعَدّ محفوظ . وقال مجاهد : يقول هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله . وقيل : المعنى هذا ما عندى من العذاب حاضر . وعن مجاهد أيضا : قرينه الذى قيّض له من الشياطين . وقال ابن زيد فى رواية ابن وهب عنه : إنه قرينه من الإنس ، فيقول الله تعالى لقرينه : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ قال الخليل والأخفش : هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول : ويلك آرحلاها وآزجراها ، وخذاه وأطلقاه للواحد . قال الفراء : تقول للواحد قُوما عنا ، وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل فى إبله وغنمه ورفقته فى سفره آثنان فجرى كلام الرجل على صاحبيه ، ومنه قولهم للواحد فى الشعر : خليلى ، ثم يقول : ياصاح . قال آمرؤ القيس :

خَلِيلَيَّ مُرَّابِي على أُمِّ جُنْدَبِ * نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفؤادِ المُعَذَّبِ

وقال أيضا :

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقال آخر :

فإن تَزْجُرانِي يابنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ * وإنْ [تَدَعانِى][1] أَحْمِ عِرْضًا مُمَنَّعَا

وقيل : جاء كذلك لأن القرين يقع للجماعة والاثنين . وقال المازنى : قوله « أَلْقِيَا » يدل على أَلْقِ أَلْقِ . وقال المبرد : هى تثنية على التوكيد ، المعنى أَلْقِ أَلْقِ فناب « أَلْقِيَا » مناب التكرار . ويجوز أن يكون « أَلْقِيَا » تثنية على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطب به المَلَكين . وقيل : هو مخاطبة للسائق والحافظ . وقيل : إن الأصل أَلْقِيَنْ بالنون الخفيفة تقلب فى الوقف ألفا فحمل الوصل على الوقف . وقرأ الحسن « أَلْقِيَنْ » بالنون الخفيفة نحو قوله : « وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ »[2] وقوله : « لَنَسْفَعًا »[3] . ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

(١) فى الأصول : « تدعوانى » وما أثبتناه هو ما عليه الرواية فى تفسير الطبرى والألوسى والفراء وغيرها . ولعل ما فى الأصول رواية أخرى . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٨٤ (٣) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٥

أى معاند؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقال بعضهم : العنيد المعرض عن الحق؛ يقال عَنَدَ يعنِد بالكسر عُنُودًا أى خالف وردّ الحق وهو يعرفه فهو عَنِيد وعاند ، وجمع العَنِيد عُنُد مثل رغيف ورُغُف . ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ يعنى الزكاة المفروضة وكل حقّ واجب . ﴿مُعْتَدٍ﴾ فى منطقه وسيرته وأمره ؛ ظالم . ﴿مُرِيبٍ﴾ شاكٍّ فى التوحيد ؛ قاله الحسن وقتادة . يقال : أراب الرجلُ فهو مُرِيب إذا جاء بالريبة . وهو المشرك يدل عليه قوله تعالى : ﴿الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ . وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة . وأراد بقوله : «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» أنه كان يمنع بنى أخيه من الإسلام . ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ تأكيد للأمر الأول . ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ يعنى الشيطان الذى قيض لهذا الكافر العنيد تبرأ منه وكذّبه . ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق وكان طاغيا بآختياره وإنما دعوته فاستجاب لى . وقرينه هنا هو شيطانه بغير آختلاف . حكاه المهدوى . وحكى الثعلبى قال آبن عباس ومقاتل : قرينه الملك ؛ وذلك أن الوليد بن المغيرة يقول للملَك الذى كان يكتب سيئاته : ربِّ إنه أعجلنى، فيقول الملَك : ربنا ما أطغيته أى ما أعجلته . وقال سعيد بن جبير : يقول الكافر ربِّ إنه زاد علىّ فى الكتابة ، فيقول الملَك : ربنا ما أطغيته أى ما زدت عليه فى الكتابة ؛ فحينئذ يقول الله تعالى : ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ﴾ يعنى الكافرين وقرناءهم من الشياطين . قال القشيرى : وهذا يدل على أن القرين الشيطان . ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ أى أرسلت الرسل . وقيل : هذا خطاب لكل من آختصم . وقيل : هو للاثنين وجاء بلفظ الجمع . ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ قيل هو قوله : «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا (١)» وقيل هو قوله : «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٢)» . وقال الفراء : ما يكذب عندى أى ما يزاد فى القول ولا ينقص لعلمى بالغيب . ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أى ما أنا بمعذِّب من لم يُجرم ؛ قاله آبن عباس . وقد مضى القول فى معناه فى «الحج (٣)» وغيرها .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ .
(٢) راجع جـ ١٤ ص ٩٦ .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٦ وجـ ١٥ ص ٣٧٠ .

قوله تعالى : يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ قرأ نافع وأبو بكر « يَوْمَ يَقُولُ » بالياء آعتبارا بقوله : « لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ » . الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى وهى نون العظمة (١) . وقرأ الحسن « يَوْمَ أَقُولُ » . وعن آبن مسعود وغيره « يَوْمَ يُقَالُ » . وآنتصب « يَوْمَ » على معنى ما يبدّل القول لدىّ يومَ . وقيل : بفعل مقدر معناه : وأنذرهم « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ » لما سبق من وعده إياها أنه يملؤها . وهذا الآستفهام على سبيل التصديق لخبره ، والتحقيق لوعده ، والتقريع لأعدائه ، والتنبيه لجميع عباده . « وَتَقُولُ » جهنم « هَلْ مِن مَّزِيدٍ » أى ما بقى فىّ موضع للزيادة ؛ كقوله عليه السلام : "هل تَرَك لنا عَقيل من رَبْع أو منزل" أى ما ترك ؛ فمعنى الكلام الجحد . ويحتمل أن يكون آستفهاما بمعنى الآستزادة ؛ أى هل من مزيد فأزداد؟ . وإنما صلح هذا للوجهين ؛ لأن فى الآستفهام ضربا من الجحد . وقيل : ليس ثَمّ قول وإنما هو على طريق المثل ؛ أى إنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك ؛ كما قال الشاعر :

آمتلأ الحوضُ وقال قَطْنِي * مَهْلًا رُوَيْدًا قد مَلأْتَ بَطْنِي

وهذا تفسير مجاهد وغيره . أى هل فىّ من مسلك قد آمتلأت . وقيل : يُنطق الله النار (٢) حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح . وهذا أصح على ما بيناه فى سورة « الفرقان » . وفى صحيح مسلم والبخارى والترمذىّ عن أنس بن مالك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) فى ن ، هـ : « التعظيم » . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٠ .

"لا تزال جهنم يُلْقَ فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع ربُّ العزة فيها قَدَمه فيَنْزَوِى[1] بعضها إلى بعض وتقول قَطْ قَطْ بعزتك وكرمك ولا يزال فى الجنة فَضلٌ حتى يُنشئَ الله لها خلقا فيسكنَهم فَضْلَ الجنة" لفظ مسلم. وفى رواية أخرى من حديث أبى هريرة : "وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله عليها رِجْله يقول لها قَطْ قَطْ فهنالك تمتلىء و ينْزَوِى بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحدا وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقًا". قال علماؤنا رحمهم الله : أما معنى القَدم هنا فهم قوم يُقدِّمهم الله إلى النار، وقد سبق فى علمه أنهم من أهل النار . وكذلك الرِّجْل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم؛ يقال : رأيت رِجْلًا من الناس ورِجْلًا من جَرَاد، قال الشاعر :

فمرّ بنا رِجْلٌ من الناس وانْزَوَى * إليهم من الحىِّ اليمانينَ أَرْجُلُ
قبائلُ من لَخْمٍ وعُكْلٍ وحِمْيَرٍ * على ٱبْنَىْ نِزارٍ بالعَدَاوة أحْفَلُ

ويبين هذا المعنى ما روى عن ٱبن مسعود أنه قال : ما فى النار بيت ولا سلسلة ولا مِقمَع ولا تابوت إلا وعليه ٱسم صاحبه، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذى قد عرف ٱسمه وصفته، فإذا ٱستوفى [كل واحد منهم][2] ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة : قَطْ قَطْ حسبُنا حسبُنا ! أى ٱكتفينا ٱكتفينا ، وحينئذ تنزوى جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر . فعبّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم، و يشهد لهذا التأويل قوله فى نفس الحديث : "ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئَ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة" وقد زدنا هذا المعنى بيانا ومهدناه فى كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى والحمد لله . وقال النضر بن شُمَيل فى معنى قوله عليه السلام : "حتى يَضَع الجبّار فيها قَدمَه" أى من سبق فى علمه أنه من أهل النار .

قوله تعالى : ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أى قربت منهم . وقيل : هذا قبل الدخول فى الدنيا؛ أى قربت من قلوبهم حين قيل لهم ٱجتنبوا المعاصى . وقيل : بعد الدخول

(١) ينزوى بعضها إلى بعض : أى تنقبض على من فيها ، وتشتغل بعذابهم ، وتكف عن سؤال هل من مزيد . (هامش مسلم) . (٢) الزيادة من ن .

قربت لهم مواضعهم فيها فلا تبعد . « غَيْرَ بَعِيدٍ » أى منهم وهذا تأكيد . ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ أى ويقال لهم هذا الجزاء الذى وعدتم فى الدنيا على ألسنة الرسل . وقراءة العامة « تُوعَدُونَ » بالتاء على الخطاب . وقرأ ابن كثير بالياء على الخبر، لأنه أتى بعد ذكر المتقين . ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ أوّاب أى رَجّاع إلى الله عن المعاصى ، ثم يرجع ويذنب ثم يرجع ، هكذا قاله الضحاك وغيره . وقال ابن عباس وعطاء : الأوّاب المسبّح من قوله : « يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ »[(١)] . وقال الحكم بن عتيبة : هو الذاكر لله تعالى فى الخلوة . وقال الشعبي ومجاهد : هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلوة فيستغفر الله منها . وهو قول ابن مسعود . وقال عُبيد بن عُمير : هو الذى لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله تعالى فيه . وعنه قال : كنا نحدّث أن الأوّاب الحفيظ الذى إذا قام من مجلسه قال سبحان الله وبحمده ، اللهم إنى أستغفرك مما أصبت فى مجلسى هذا . وفى الحديث : "من قال إذا قام من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر الله له ما كان فى ذلك المجلس" . وهكذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول . وقال بعض العلماء : أنا أحبّ أن أقول أستغفرك وأسألك التوبة ، ولا أحبّ أن أقول وأتوب إليك إلا على حقيقته .

قلت : هذا استحسان واتباع الحديث أولى . وقال أبو بكر الورّاق : هو المتوكل على الله فى السراء والضراء . وقال القاسم : هو الذى لا يشتغل إلا بالله عز وجل . « حَفِيظٍ » قال ابن عباس : هو الذى حفظ ذنوبه حتى يرجع عنها . وقال قتادة : حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته وائتمنه عليه . وعن ابن عباس أيضا : هو الحافظ لأمر الله . مجاهد : هو الحافظ لحق الله تعالى بالاعتراف ولنعمه بالشكر . قال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله تعالى بالقبول . وروى مكحول عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من حافظ على أربع ركعات من أوّل النهار كان أوّابا حفيظا" ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ «مَنْ» فى محل خفض على البدل من قوله : «لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ» أو فى موضع الصفة لـ « أَوَّابٍ » . ويجوز الرفع على الاستئناف، والخبر

(١) راجع ج ١٤ ص ٢٦٤

« ٱدْخُلُوهَا » على تقدير حذف جواب الشرط والتقدير فيقال لهم : « ٱدْخُلُوهَا » . والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره . وقال الضحاك والسُّدى : يعني في الخلوة حين لا يراه أحد . وقال الحسن : إذا أرخى السترَ وأغلق البابَ . ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ مقبل على الطاعة . وقيل: مخلص . وقال أبو بكر الورّاق : علامة المنيب أن يكون عارفا لحرمته ومواليا له، متواضعا لجلاله تاركا لهوى نفسه .

قلت : ويحتمل أن يكون القلب المنيب القلب السليم ؛ كما قال تعالى : « إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » على ما تقدم[1] ؛ والله أعلم . « ٱدْخُلُوهَا » أى يقال لأهل هذه الصفات : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ أى بسلامة من العذاب . وقيل : بسلام من الله وملائكته عليهم . وقيل : بسلامة من زوال النِّعم . وقال : « ٱدْخُلُوهَا » وفي أول الكلام « مَنْ خَشِيَ » ؛ لأن « مَنْ » تكون بمعنى الجمع .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ يعني ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم . ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ من النعم مما لم يخطر على بالهم . وقال أنس وجابر : المزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف . وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ»[2] قال: الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم . وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام ، قالا : أخبرنا المسعوديّ عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة بن عبد الله ابن عتبة عن ابن مسعود قال : تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة في كثيب من كافور أبيض فيكونون منه في القرب . قال ابن المبارك : على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا . وقال يحيى بن سلام : لمسارعتهم إلى الجمع في الدنيا، وزاد " فيحدث الله لهم من الكرامة شيئا لم يكونوا رأوه قبل ذلك " . قال يحيى : وسمعت غير المسعودى يزيد فيه قوله تعالى : « وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١١٤ .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠ .

قلت : قوله " فى كَثِيب " يريد أهل الجنة، أى وهم على كثب؛ كما فى مرسل الحسن، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن أهل الجنة ينظرون ربهم فى كل يوم جمعة على كَثِيب من كافور " الحديث . وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » . وقيل : إن المزيد ما يزوَّجون به من الحور العين ؛ رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعا .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمة هم أشدّ منهم بطشا وقوة . ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ أى ساروا فيها طلبا للهرب . وقيل : أثَّروا فى البلاد؛ قاله ٱبن عباس . وقال مجاهد : ضربوا وطافوا . وقال النضر بن شميل : دوّروا . وقال قتادة : طوّفوا . وقال المؤرِّج تباعدوا ؛ ومنه قول ٱمرئ القيس :

وقــد نَقَّبْتُ فى الآفاق حتّى * رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

ثم قيل : طافوا فى أقاصى البــلاد طلبا للتجارات ، وهل وجدوا من الموت محيصا ؟ .
وقيل : طوّفوا فى البلاد يلتمسون مَحِيصًا من الموت . قال الحرث بن حِلِّزة :

نَقَّبُوا فى البلادِ من حَذَرِ المــو * تِ وجَالُوا فى الأرضِ كُلَّ مَجالِ

وقرأ الحسن وأبو العالية «فَنَقَبُوا» بفتح القاف وتخفيفها . والنقب هو الخرق والدخول فى الشىء . وقيل : النقب الطريق فى الجبل، وكذلك المَنْقَب والمَنْقَبة؛ عن ٱبن السكيت . ونَقَب الجدار نَقْبا ، وٱسم تلك النَّقْبة نَقْب أيضا ، و جمع النَّقْب النُّقُوب ؛ أى خرقوا البلاد وساروا فى نقوبها . وقيل : أثَّروا فيها كتأثير الحديد فيما ينقب . وقرأ السُّلَمى ويحيى بن يَعْمَر «فَنَقِّبُوا» بكسر القاف والتشديد على الأمر بالتهديد والوعيد؛ أى طَوِّفوا البلاد وسيروا

فيها فانظروا ﴿ هَلْ مِن ﴾ الموت ﴿ مَحِيصٍ ﴾ ومهرب ؛ ذكره الثعلبي . وحكى القشيري «فَنَقِبُوا» بكسر القاف مع التخفيف ؛ أي أكثروا السير فيها حتى نَقِبت دوابُّهم . الجوهري : ونَقِب البعيرُ بالكسر إذا رَقّت أخفافه ، وأنقب الرجلُ إذا نَقِب بعيرُه ، ونَقِب الخفُّ الملبوس أي تخرّق . والمحِيص مصدر حاص عنه يَحِيص حَيْصًا وحُيوصًا ومَحِيصًا ومَحاصًا وحَيَصانًا ؛ أي عَدل وحادَ . يقال : ما عنه مَحِيص أي مَحِيد ومَهْرب . والانحياص مثله ؛ يقال للأولياء : حاصوا عن العدوّ وللأعداء انهزموا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أي فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرة وموعظة ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي عقل يتدبر به ؛ فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : لمن كان له حياة ونفس مميزة ؛ فعبر عن النفس الحية بالقلب ؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها ؛ كما قال امرؤ القيس :

أَغَرَّكِ مِنِّي أَنَّ حُبَّكِ قاتِلي * وَأَنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ

وفي التنزيل : « لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا »(١) . وقال يحيى بن معاذ : القلب قلبان ؛ قلب محتشٍ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من الأمور الآخرة لم يدر ما يصنع ، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة . ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ أي استمع القرآن . تقول العرب : ألق إليّ سمعك أي استمع . وقد مضى في « طه »(٢) كيفية الاستماع وثمرته . ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي شاهد القلب ؛ قال الزجاج : أي قلبه حاضر فيما يسمع . وقال سفيان : أي لا يكون حاضرا وقلبه غائب . ثم قيل : الآية لأهل الكتاب ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال الحسن : إنها في اليهود والنصارى خاصة . وقال محمد ابن كعب وأبو صالح : إنها في أهل القرآن خاصة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ تقدّم في « الأعراف »(٣) وغيرها . واللغوب التعب والإعياء ، تقول منه : لَغَب

(١) راجع جـ ١٥ ص ٥٥ (٢) راجع جـ ١١ ص ١٧٦
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢١٨

يَلْغُب بالضم لُغُوبًا، ولَغِب بالكسر يَلْغَب لُغُوبًا لغة ضعيفة فيه . وألغبته أنا أى أنصبته. قال قتادة والكلبي : هذه الآية نزلت فى يهود المدينة ؛ زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، وآستراح يوم السبت ؛ فجعلوه راحة ، فأكذبهم الله تعالى فى ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أمره بالصبر على ما يقوله المشركون ؛ أى هَوِّن أمرهم عليك . ونزلت قبل الأمر بالقتال فهى منسوخة . وقيل : هو ثابت للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته . وقيل معناه : فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم : إن الله آستراح يوم السبت .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ قيل : إنه أراد[1] به الصلوات الخمس . قال أبو صالح : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل الغروب صلاة العصر . ورواه جرير بن عبد الله مرفوعا ؛ قال : كنا جلوسا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال : "أَمَا إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون فى رؤيته فإن آستطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها — يعنى العصر والفجر ثم قرأ جرير — « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا[2] » " متفق عليه واللفظ لمسلم . وقال آبن عباس : « قَبْلَ الْغُرُوبِ » الظهر والعصر . ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ يعنى صلاة العشاءين . وقيل : المراد تسبيحه بالقول تنزيها قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ؛ قاله عطاء الخراسانيّ وأبو الأحوص . وقال بعض العلماء فى قوله : « قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ » قال ركعتى الفجر « وَقَبْلَ الْغُرُوبِ » الركعتين قبل المغرب ؛ وقال ثُمامة

(١) فى ح ، هـ ن : « يراد » . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٦١ .

ابن عبد الله بن بن أنس : كان ذوو الألباب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يصلّون الركعتين قبل المغرب . وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا بالمدينة فإذا أذن المؤذّن لصلاة المغرب ابتدروا السّوارِى[1] فركعوا ركعتين ، حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صُليت من كثرة من يصلّيهما . وقال قتادة : ما أدركت أحدا يُصلِّى الركعتين إلا أنسًا وأبا بَرْزَة الأسلمى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ فيه أربعة أقوال : الأول — هو تسبيح الله تعالى فى الليل ، قاله أبو الأحوص . الثانى — أنها صلاة الليل كله ، قاله مجاهد . الثالث — أنها ركعتا الفجر ، قاله ابن عباس . الرابع — أنها صلاة العشاء الآخرة ، قاله ابن زيد . قال ابن العربى : من قال إنه التسبيح فى الليل فيعضُده الصحيح " مَنْ تَعَارّ[2] من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ". وأما من قال إنها الصلاة بالليل فإن الصلاة تسمى تسبيحا لما فيها من تسبيح الله ، ومنه سُبْحة الضحى . وأما من قال إنها صلاة الفجر أو العشاء فلأنهما من صلاة الليل ، والعشاء أوضحه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ قال عمر وعلىّ وأبو هريرة والحسن بن علىّ والحسن البصرىّ والنّخعىّ والشعبىّ والأوزاعىّ والزهرىّ : أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر ، ورواه العوفى عن ابن عباس ، وقد رفعه ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ركعتان بعد المغرب أدبار السجود " ذكره الثعلبى . ولفظ الماوردى : وروى عن ابن عباس قال : بتُّ ليلةً عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فصلّى ركعتين قبل الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : " يابن عباس ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم وركعتان بعد المغرب أدبار السجود" : وقال أنس : قال النبىّ صلى الله

---

(١) ابتدروا السوارى : أى سارعوا إليها ، والسوارى جمع السارية وهى العمود ؛ أى يقف كل مصلّ خلف العمود لئلا يقع المرور بين يديه فى صلاته منفردا . (٢) تعار : استيقظ .

عليه وسلم "من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته فى عِليين" . قال أنس فقرأ فى الركعة الأولى « قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ » وفى الثانية « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » قال مقاتل : ووقتهما لم يغرب الشفق الأحمر. وعن ٱبن عباس أيضا: هو الوتر. قال ٱبن زيد : هو النوافل بعد الصلوات، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة، قال النحاس: والظاهر يدل على هذا إلا أن الأولى ٱتباع الأكثر وهو صحيح عن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه. وقال أبو الأحوص: هو التسبيح فى أدبار السجود . قال ٱبن العربى وهو الأقوى فى النظر . وفى صحيح الحديث : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دبر الصلاة المكتوبة "لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ"(١) وقيل : إنه منسوخ بالفرائض فلا يجب على أحد إلا خمس صلوات ، نقل ذلك الجماعة .

الخامســة — قرأ نافع وٱبن كثير وحمزة « وَإِدْبَارَ السُّجُودِ » بكسر الهمزة على المصدر من أدبر الشىء إدبارًا إذا وَلَّى. الباقون بفتحها جمع دُبُر . وهى قراءة علىّ وٱبن عباس، ومثالها طُنُب وأطناب ، أو دُبْر كقُفْل وأقفال . وقد ٱستعملوه ظرفا نحو جئتك فى دبر الصلاة وفى أدبار الصلاة . ولا خلاف فى آخر «وَالطُّورِ» . «وَإِدْبَارَ النُّجُومِ» أنه بالكسر مصدر، وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثانى ، وهو البياض المنشقّ من سواد الليل .

قوله تعالى : وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(١) "ولا ينفع ذا الجد منك الجد" أى لا ينفع ذا الغنى منك غناه وإنما ينفعه الإيمان والطاعة . (النهاية لابن الأثير) .

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِى ٱلْمُنَادِى مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ مفعول الاستماع محذوف؛ أى ٱستمع النداء والصوت أو الصيحة وهى صيحة القيامة، وهى النفخة الثانية، والمنادى جبريل . وقيل : إسرافيل . الزمخشرى : وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى ، فينادى بالحشر ويقول : هَلُمّوا إلى الحساب فالنداء على هذا فى المحشر. وقيل : وٱستمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب، أى يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النداء. قال عكرمة: ينادى منادى الرحمن فكأنما يُنادى فى آذانهم . وقيل : المكان القريب صخرة بيت المقدس . ويقال : إنها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء باثنى عشر ميلا . وقال كعب : بثمانية عشر ميلا، ذكر الأوّل القشيرى والزمخشرى، والثانى الماوردى . فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة فينادى بالحشر. أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، ويا عظاما نخرة، ويا أكفانا فانية ، ويا قلوبا خاوية ، ويا أبدانا فاسدة، ويا عيونا سائلة ، قوموا لعرض رب العالمين . قال قتادة : هو إسرافيل صاحب الصّور . ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعنى صيحة البعث . ومعنى «الخُرُوج» الاجتماع إلى الحساب . ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ أى يوم الخروج من القبور. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ نميت الأحياء ونحيي الموتى؛ أثبت هنا الحقيقة ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ إلى المنادى صاحب الصّور إلى بيت المقدس . ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أى هيّن سهل . وقرأ الكوفيون « تَشَقَّقُ » بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى . الباقون بإدغام التاء فى الشين . وأثبت ٱبن محيصن وٱبن كثير ويعقوب ياء «المنادى» فى الحالين على الأصل ، وأثبتها نافع وأبو عمرو فى الوصل لا غير ، وحذف الباقون فى الحالين .

قلت : وقد زادت السنة هذه الآية بيانا؛ فروى الترمذى عن معاوية بن حَيْدة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره، قال وأشار بيده إلى الشام فقال : " من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركبانا ومشاة وتُجَرّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام تُوفُون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول مايعرب عن أحدكم فخذه" فى رواية أخرى " فخذه وكفّه " وخرّج علىّ بن معبد عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره :

ثم يقول — يعني الله تعالى — لإسرافيل : " أنفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل وعزتي وجلالي ليرجعنّ كلّ رُوح إلى جسده فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ثم تدخل في الخياشيم فتمشى في الأجساد مشي السم في اللديغ ثم تنشق الأرض عنكم وأنا أوّل من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها شبابا كلكم أبناء ثلاث وثلاثين واللسان يومئذ بالسريانية " وذكر الحديث، وقد ذكرنا جميع هذا وغيره في « التذكرة » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي من تكذيبك وشتمك . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ أي بمسلّط تجبرهم على الإسلام؛ فتكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال . والجبّار من الجبرية والتسلّط إذ لا يقال جبّار بمعنى مُجبِر، كما لا يقال خرّاج بمعنى مُخرِج؛ حكاه القشيري . النحاس : وقيل معنى جبّار لست تُجبرهم، وهو خطأ لأنه لا يكون فعّال من أفعل . وحكى الثعلبي : وقال ثعلب قد جاءت أحرف فعّال بمعنى مُفعِل وهي شاذة، جبّار بمعنى مُجبِر، ودرّاك بمعنى مُدرِك ، وسرّاع بمعنى مُسرِع ، وبكّاء بمعنى مُبكٍ، وعدّاء بمعنى مُعدٍ . وقد قرئ « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَّادِ »(1) بتشديد الشين بمعنى المرشد وهو موسى . وقيل : هو الله . وكذلك قرئ « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَّاكِينَ »(2) يعني ممسكين . وقال أبو حامد الخارزنجي(3) : تقول العرب : سيف سَقّاط بمعنى مُسقِط . وقيل : « بِجَبَّارٍ » بمسيطر كما في الغاشية « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ »(4) . وقال الفرّاء : سمعت من العرب من يقول جَبَره على الأمر أي قهره، فالجبّار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح . وقيل : الجبّار من قولهم جبرته على الأمر أي أجبرته وهي لغة كنانية وهما لغتان . الجوهري : وأجبرته على الأمر أكرهته عليه، وأجبرته أيضا نسبته إلى [الجبر، كما تقول أكفرته إذا نسبته إلى الكفر](5) . ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ قال ابن عباس : قالوا يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت : « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » أي ما أعددته لمن عصاني من العذاب؛ فالوعيد العذاب والوعد الثواب، قال الشاعر :

---

(1) راجع جـ ١٥ ص ٣١٠ . (2) راجع جـ ١١ ص ٣٤ .
(3) الخارزنجي : نسبة إلى خارزنج قرية بنواحي نيسابور . (4) راجع جـ ٢٠ ص ٣٧ .
(5) الزيادة من الصحاح للجوهري .

وإنّى وإنْ أوعدْتُه أو وعدْتُه * لَمُخْلِفُ إيعادِى ومُنْجِزُ مَوْعِدِى

وكان قتادة يقول : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك . وأثبت الياء في « وَعِيدِى » يعقوب فى الحالين، وأثبتها ورش فى الوصل دون الوقف، وحذف الباقون فى الحالين . والله أعلم . تم تفسير سورة « ق » والحمد لله .

سورة والذاريات

مكية فى قول الجميع، وهى ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)

قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ قال أبو بكر الأنبارى : حدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا مكى بن ابراهيم ، حدثنا الجعيد بن عبد الرحمن ، عن يزيد ابن خصيفة، عن السائب بن يزيد أن رجلا قال لعمر رضى الله عنه : إنى مررت برجل[1] يسأل عن تفسير مشكل القرآن، فقال عمر : اللهم أمكنى منه؛ فدخل الرجل على عمر يوما وهو لابس ثيابا وعمامة وعمر يقرأ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال : يا أمير المؤمنين ما « الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده، ثم قال : ألبسوه ثيابه واحملوه على قتب وأبلغوا به حيّه، ثم ليقم خطيبا فليقل : إن صَبِيغًا[1] طلب العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعا فى قومه بعد أن كان سيدًا فيهم . وعن عامر بن واثلة أن ابن الكوّاء سأل عليّا رضى الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما « الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » [قال] : ويلك سَلْ تَفَقُّهًا ولا تسأل تَعَنُّتًا « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » الرياح « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » السحاب « فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا » السفن « فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا » الملائكة . وروى الحرث عن على رضى الله عنه « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا »

---

(١) هو صبيغ — كأمير — بن عسل — بكسر العين — كان يعنت الناس بالغوامض والسؤالات من متشابه القرآن فنفاه عمر إلى البصرة بعد ضربه ، وكتب إلى واليها الا يؤويه ، ونهى عن مجالسته (التاج) .

قال : الرياح « فَالْحَـامِلَاتِ وِقْرًا » قال : السحاب تحمل المـاء كما تحمل ذوات الأربع الوقر « فَالْجَـارِيَاتِ يُسْرًا » قال : السفن موقرة « فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا » قال : الملائكة تأتى بأمر مختلف؛ جبريل بالغلظة ، وميكائيل صاحب الرحمـة ، وملك المـوت يأتى بالموت . وقال الفراء : وقيل تأتى بأمر مختلف من الخِصب والجَدْب والمطر والموت والحوادث[1] . ويقال : ذَرَتِ الرِّيحُ الترابَ تَذْرُوه ذَرْوًا وتَذْرِيه ذَرْيًا . ثم قيل : « وَالذَّارِيَاتِ » وما بعده أقسام، وإذا أقسم الرب بشيء أثبت له شرفا . وقيـل : المعـنى وربِّ الذارياتِ ، والجـواب (إِنَّمَـا تُوعَدُونَ) أى الذى توعدونه من الخير والشر والثواب والعقاب (لَصَادِقٌ) لا كذب فيه ؛ ومعنى « لَصَادِقٌ » لصدق ؛ وقع الاسم موقع المصدر . (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِـعٌ) يعنى الجزاء نازل[2] بكم . ثم ابتدأ قسما آخر فقال : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ . إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » وقيـل : إن الذاريات النساء الولودات لأن فى ذرايتهن ذرو الخلق ؛ لأنهنّ يذرين الأولاد فصرن ذاريات ؛ وأقسم بهنّ لمـا فى ترائبهنّ من خيرة عبـاده الصالحين . وخص النسـاء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذاريا لأمرين : أحدهما لأنهن أوعيـة دون الرجال ، فلاجتماع الذّروين فيهنّ خصصن بالذكر . الثانى — أن الذّرو فيهنّ أطول زمانًا ، وهنّ بالمباشرة أقرب عهدا . « فَالْحَـامِلَاتِ وِقْرًا » السحاب . وقيل : الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمـل . والوِقر بكسر الواو ثقل الحمـل على ظهر أو فى بطن ، يقال : جاء يحمل وِقره وقد أوقر بعـيره . وأكثر ما يستعمل الوِقر فى حمـل البغل والحمار ، والوَسْق فى حمـل البعير . وهذه امرأة مُوقَرة بفتح القاف إذا حملت حملا ثقيلا . وأوقرت النخلة كثر حَمْلُها؛ يقال : نخلة مُوقِرة ومُوقِر ومُوقَرة ، وحكى مُوقَر وهو على غير القياس ، لأن الفعل للنخلة . وإنما قيل : مُوقِر بكسر القاف على [قياس][3] قولك امرأة حامل ، لأن حمل الشجر مشبه بحمل النساء؛ فأما مُوقَر بالفتح فشاذ ، وقد روى فى قول لبيد يصف نخيلا :

عَصَبٌ كَوارِعُ فى خليج مُحَلَّمٍ * حَمَلَتْ فمنهـا موقَرٌ مَكْمُومُ

---

(١) فى ل ، ن : «الخوارق» . (٢) فى ز ، ل ، ن : «النازل» . (٣) الزيادة من كتب اللغة .

والجمع مواقِر . فأما الوَقْر بالفتح فهو ثقل الأذن ، وقد وقرت أذنه تَوْقر وَقْرا أى صَمَّت ، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين وقد تقدّم فى « الأنعام »[1] القول فيه . « فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً » السفن تجرى بالرياح يسرًا إلى حيث سيرت . وقيل : السحاب ؛ وفى جريها يسراً على هذا القول وجهان : أحدهما — إلى حيث يسيرها الله تعالى من البلاد والبقاع . الثانى — هو سهولة تسييرها ؛ وذلك معروف عند العرب ، كما قال الأعشى :

كأنّ مِشْيَتَهـا مِنْ بيتِ جارتها * مَشْيُ السَّحَابةِ لارَيْثٌ ولا عَجَلُ

قوله تعالى : وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ قيل : المراد بالسماء هاهنا السُّحُب التى تظل الأرض . وقيل : السماء المرفوعة . ابن عمر : هى السماء السابعة ؛ ذكره المهدوى والثعلبي والماوردى وغيرهم . وفى « الْحُبُكِ » أقوال سبعة : الأول — قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والربيع : ذات الخَلق الحسن المستوى . وقاله عكرمة ؛ قال : ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه ؛ يقال منه حَبَك الثوبَ يَحبِكُه بالكسر حَبْكاً أى أجاد نسجه . قال ابن الأعرابى : كل شىء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته . والثانى — ذات الزينة ؛ قاله الحسن وسعيد بن جبير ، وعن الحسن أيضا : ذات النجوم وهو الثالث . الرابع — قال الضحاك : ذات الطرائق ؛ يقال لما تراه فى الماء والرمل إذا أصابته الريح حُبُك . ونحوه قول الفراء ؛ قال : الحُبُك تَكَسُّر كل شىء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة ، والماء القائم

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ .

إذا مرت به الريح ، ودرع الحديد لها حُبُك ، والشعرة الجَعْدة تكسّرها حُبُك . وفى حديث الدجّال : إنّ شعره حُبُك . قال زهير :

مُكَلَّلٌ بأصـولِ النَّجْـمِ تَنْسِجهُ * رِيحٌ خَرِيقٌ لِضاحِى مائِه حُبُكُ (١)

ولكنها تبعد من العباد فلا يرونهـا . الخامس — ذات الشدة ، قاله ابن زيد ، وقرأ « وَبَنَيْنَا فَوْقَـكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (٢) » . والمحبوك الشديد الخَـلْق من الفـرس وغـيره ، قال امرؤ القيس :

قـد غَدَا يَحْمِـلُنِى فى أنفِـهِ * لَاحِقُ الإطْلَيْنِ (٣) مَحبُوكٌ مُمَرّ

وقال آخـــر :

مَرِجَ الدِّينَ فأعددتُ لَهُ * مُشْرِفَ الحارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ (٤)

وفى الحديث : أن عائشة رضى الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع فى الصلاة ، أى تشدّ الإزار وتحكمه . السادس — ذات الصفّاقة ؛ قاله خَصِيف ، ومنه ثوب صفيق ووجه صفيق بين الصفاقة . السابع — أن المراد بالطرق المجَرّة التى فى السماء ؛ سميت بذلك لأنها كأثر المجَـرّ . و « الحُبُـك » جمع حِباك ، قال الراجز :

كأنّمـا جَلَّلهـا الحُـوَّاكُ * طنفسـة فى وَشْيِها حِبـاكُ

والحبَاك والحَبِيكة الطريقة فى الرمل ونحوه . وجمع الحِبَاك حُبُك وجمـع الحَبِيكة حَبَائك ، والحُبَـكة مثل العَبَكة وهى الحبّة من السويق ، عن الجوهرى . وروى عن الحسن فى قوله : « ذَاتِ الحُبُكِ » « الحُبْك » و « الحِبِك » و « الحِبْك » والحَبك والحُبَك [وقرأ أيضا « الحُبُك »] كالجماعة . وروى عن عِكرمة وأبى مِجْلَز « الحُبك » . و « الحُبُك » واحدتها حَبيكة ، « والحُبْك » مخفّف منه . و « الحِبَك » واحدتها حِبْكة . ومن قـرأ « الحُبَك » فالواحدة حُبْكَة كبُرْقة وبُرَق أو حُبُكَة كظُلُمة وظُلَم . ومن قرأ « الحِبِك » فهو كإبِل وإطِل (٣) و « الحِبْك » مخففة منه .

(١) النجم : كل شىء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل . ريح خريق : شديدة . لضاحى مائه : ماضحا للشمس من الماء أى برز . والبيت فى وصف غدير. (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٦٩
(٣) الإطل : الخاصرة كلها . وقيل : غير ذلك .
(٤) البيت لأبى دؤاد يصف فرسا . والكتد — بفتح التاء وكسرها — : مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس .

ومن قرأ « الحِبُك » فهو شاذ إذا ليس فى كلام العرب فِعُلٌ، وهو محمول على تداخل اللغات، كأنه كسر الحاء ليكسر الباء ثم تصوّر « الحُبُك » فضم الباء . وقال جميعه المهدوى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ هذا جواب القسم الذى هو « والسَّمَاءِ » أى إنكم يأهل مكة « فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » فى محمد والقرآن فمن مصدّق ومكذّب . وقيل : نزلت فى المقتسمين . وقيل : آختلافهم قولهم ساحر بل شاعر بل آفتراه بل هو مجنون بل هو كاهن بل هو أساطير الأولين . وقيل : آختلافهم أن منهم من نفى الحشر ومنهم من شك فيه . وقيل : المراد عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم و يعبدون غيره .

قوله تعالى : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أى يصرف عن الإيمان بمحمد والقرآن من صُرِف ؛ عن الحسن وغيره . وقيل : المعنى يُصرَف عن الإيمان من أراده بقولهم هو سحر وكهانة وأساطير الأولين . وقيل : المعنى يُصرَف عن ذلك الآختلاف مَن عصمه الله . أَفَكه يأفِكه أفكاً أى قلبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قوله تعالى : «أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا»(١) . وقال مجاهد : معنى « يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » يُؤفَن عنه من أُفِن، والأَفْن فساد العقل . الزمخشرى : وقرئ « يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ » أى يحرمه من حرم ؛ من أَفَن الضَّرْعَ إذا أنهكه حَلْباً . وقال قُطْرُب : يُخدَع عنه من خُدِع . وقال اليزيدى : يُدفَع عنه من دُفِع . والمعنى واحد وكله راجع إلى معنى الصرف .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ فى التفسير : لُعِن الكذّابون . وقال آبن عباس : أى قُتِل المرتابون ؛ يعنى الكهنة . وقال الحسن : هم الذين يقولون لسنا نبعث . ومعنى « قُتِلَ » أى هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدى المؤمنين . وقال الفراء : معنى «قُتِلَ» لُعِن؛ قال : و «الْخَرَّاصُونَ» الكذابون الذين يتخرصون بما لا يعلمون؛ فيقولون: إن محمدا مجنون كذّاب ساحر شاعر ؛ وهذا دعاء عليهم ؛ لان من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك . قال آبن الأنبارى : علّمنا الدعاء عليهم؛ أى قولوا : « قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ »وهو جمع خارص والخَرْص الكذب والخَرّاص الكذّاب، وقد خَرَص يَخْرُص بالضم خَرْصا أى كَذَب؛

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٥

يقال : خَرَص واخترص، وخَلَق واختلق، وبَشَك وابتشك، وسَرَج واسترج، ومان، بمعنى كذب؛ حكاه النحاس . والخَرْص أيضا حَزْر ما على النخل من الرطب تمراً . وقد خَرَصتُ النخلَ والاسم الخِرْص بالكسر؛ يقال : كم خِرْص نخلك والخرّاص الذى يخرصها فهو مشترك. وأصل الخُرْص القطع على ما تقدّم بيانه فى « الأنعام »[1] ومنه الخَرِيص للخليج ؛ لأنه ينقطع إليه الماء ، والخُرْصُ حبّة القُرْط إذا كانت منفردة ؛ لانقطاعها عن أخواتها ، والخُرْص العود ؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته . والخَرِص الذى به جوع وبَرْد لأنه ينقطع به ؛ يقال : خَرِص الرجلُ بالكسر فهو خَرِص ، أى جائع مقرور ، ولا يقال للجوع بلا برد خَرَص . ويقال للبرد بلا جوع خَرَص . والخُرْص بالضم والكسر الحلقة من الذهب أو الفضة والجمع الخِرْصان . ويدخل فى الخَرْص قول المنجمين وكل من يدّعى الحَدْس والتخمين . وقال ابن عباس : هم المقتسمون الذين اقتسموا أعقاب مكة ، واقتسموا القول فى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ؛ ليصرفوا الناس عن الإيمان به .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ الغمرة ما ستر الشىء وغطّاه . ومنه نهر غَمْر أى يغمُر من دخله ، ومنه غَمَرات الموت . «سَاهُونَ» أى لاهون غافلون عن أمر الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أى متى يوم الحساب ؛ يقولون ذلك استهزاءً وشكًّا فى القيامة . ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ نصب « يَوْمَ » على تقدير الجزاء أى هذا الجزاء « يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ » أى يحرقون ، وهو من قولهم : فتنت الذهب أى أحرقته لتختبره ؛ وأصل الفتنة الاختبار . وقيل : إنه مبنيّ بُنى لإضافته إلى غير متمكن ، وموضعه نصب على التقدير المتقدّم ، أو رفع على البدل من « يَوْمُ الدِّينِ » . وقال الزجاج : يقول يعجبنى يومُ أنت قائم و يومُ أنت تقوم ، و إن شئت فتحت وهو فى موضع رفع ، فإنما انتصب هذا وهو فى المعنى رفع . وقال ابن عباس : «يُفْتَنُونَ» يُعذَّبون . ومنه قول الشاعر :

كلُّ امرِئٍ من عبادِ اللهِ مُضطَهدٌ * ببطنِ مكةَ مقهورٌ ومفتونُ

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٧١

قوله تعالى: ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ أى يقال لهم ذوقوا عذابكم؛ قاله ابن زيد. مجاهد: حريقكم. ابن عباس: أى تكذيبكم يعنى جزاءكم. الفراء: أى عذابكم ﴿ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فى الدنيا. وقال: « هَذَا » لم يقل هذه؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب.

قوله تعالى: إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لما ذكر مآل الكفار ذكر مآل المؤمنين أى هم فى بساتين فيها عيون جارية على نهاية ما يتنزه به. ﴿ آخِذِينَ ﴾ نصب على الحال. ﴿ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى ما أعطاهم من الثواب وأنواع الكرامات؛ قاله الضحاك. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: « آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ » أى عاملين بالفرائض. ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ أى قبل دخولهم الجنة فى الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ بالفرائض. وقال ابن عباس: المعنى كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين فى أعمالهم.

قوله تعالى: كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ معنى «يَهْجَعُونَ» ينامون، والهجوع النوم ليلا، والتَّهجاع النومة الخفيفة؛ قال أبو قيس بن الأسلت:

قد حصَّتِ البيضةُ رأسى فما * أَطْعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاعِ

وقال عمرو بن مَعْدى كَرِب يتشوق أخته وكان أسرها الصِّمّة أبو دُرَيد بن الصِّمّة:

أَمِنْ رَيْحانة الدّاعى السَّميعُ * يُؤَرِّقُنِى وأَصحابى هُجُوعُ

يقال: هَجَع يَهْجَع هُجوعًا، وهَبَغ يَهْبَغ هُبوغًا بالغين المعجمة إذا نام؛ قاله الجوهرى. واختلف فى «ما» فقيل: صلة زائدة — قاله إبراهيم النخعى — والتقدير كانوا قليلا من الليل

يهجعون؛ أى ينامون قليلا من الليل ويصلّون أكثره . قال عطاء : وهذا لما أمروا بقيام الليل . وكان أبو ذرّ (١) يحتجز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصة « قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا » (٢) الآية . وقيل : ليس « ما » صلة بل الوقف عند قوله : « قَلِيلاً » ثم يبتدئ « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » فـ « ما » للنفى وهو نفى النوم عنهم البَتّةَ . قال الحسن : كانوا لا ينامون من الليل الا أقله وربما نَشِطوا فجدّوا إلى السحر . روى عن يعقوب الحضرمى أنه قال : آختلفوا فى تفسير هذه الآية فقال بعضهم : « كَانُوا قَلِيلاً » معناه كان عددهم يسيرا ثم آبتدأ فقال : « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » على معنى من الليل يهجعون؛ قال آبن الأنبارى : وهذا فاسد؛ لأن الآية إنما تدل على قلة نومهم لا على قلة عددهم، وبعد فلو آبتدأنا « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » على معنى من الليل يهجعون لم يكن فى هذا مدح لهم ؛ لأن الناس كلهم يهجعون من الليل إلا أن تكون « ما » جحدًا .

قلت : وعلى ما تأوّله بعض الناس — وهو قول الضحاك — من أن عددهم كان يسيرا يكون الكلام متصلا بما قبل من قوله : « إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ » أى كان المحسنون قليلا، ثم آستأنف فقال : « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » وعلى التأويل الأوّل والثانى يكون « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ » خطابا مستأنفا بعد تمام ما تقدّمه ويكون الوقف على « مَا يَهْجَعُونَ » ، وكذلك إن جعلت « قَلِيلًا » خبر كان وترفع « ما » بقليل؛ كأنه قال : كانوا قليلا من الليل هجوعهم . فـ « ما » يجوز أن تكون نافية، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرا، ويجوز أن تكون رفعا على البدل من آسم كان ، التقدير كان هجوعهم قليلا من الليل، وآنتصاب قوله : « قَلِيلًا » إن قدرت « ما » زائدة مؤكدة بـ « يَهْجَعُونَ » على تقدير كانوا وقتا قليلا أو هجوعا قليلا يهجعون ، وإن لم تقدر « ما » زائدة كان قوله : « قَلِيلًا » خبر كان ولم يجز نصبه بـ « يَهْجَعُونَ » ؛ لأنه إذا قدر نصبه بـ « يَهْجَعُونَ » مع تقدير « ما » مصدرا قدمت الصلة على الموصول . وقال أنس وقتادة فى تأويل الآية : أى كانوا يصلّون بين العشاءين: المغرب والعشاء . أبو العالية : كانو لا ينامون بين العشاءين . وقاله آبن وهب . وقال مجاهد :

(١) فى ز ، ل ، ن : «أبو بكر» . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٣٢

نزلت فى الأنصار كانوا يصلون العشاءين فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم يمضون إلى قُباء . وقال محمد بن على بن الحسين : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العَتَمة . قال الحسن : كأنه عَدّ هجوعهم قليلا فى جنب يقظتهم للصلاة . وقال ابن عباس ومُطرِّف : قَلّ ليلة لا تأتى عليهم إلا يصلّون لله فيها إما من أوّلها وإما من وسطها .

الثانيــة — روى عن بعض المتهجدين أنه أتاه آتٍ فى منامه فأنشده :

وكيف تنامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ * ولم تَدرِ فى أىّ المجالِسِ تنزِلُ

وروى عن رجل من الأزد أنه قال : كنت لا أنام الليل فنمت فى آخر الليل ، فإذا أنا بشابين أحسن ما رأيت ومعهما حُلَل ، فوقفا على كل مصلّ وكسواه حلّة ، ثم انتهيا إلى النيام فلم يكسوهم ، فقلت لهما : اكسوانى من حُللكما هذا ؛ فقالا لى : إنها ليست حُلّة لباس إنما هى رضوان الله يحلّ على كل مصلّ . ويروى عن أبى خَلّاد أنه قال : حدّثنى صاحب لى قال : فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ مُثِّلت لى القيامة ، فنظرت إلى أقوام من إخوانى قد أضاءت وجوههم ، وأشرقت ألوانهم ، وعليهم الحلل من دون الخلائق ، فقلت : ما بال هؤلاء مكتسون والناس عُراة ، ووجوههم مشرقة ووجوه الناس مغبرة ! فقال لى قائل : الذين رأيتهم مكتسون فهم المصلّون بين الأذان والإقامة ، والذين وجوههم مشرقة فأصحاب السهر والتهجد ، قال : ورأيت أقواما على نجائب فقلت : ما بال هؤلاء ركبانا والناس مشاة حفاة ؟ فقال لى : هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقربا لله تعالى فأعطاهم الله بذلك خير الثواب ؛ قال : فصحت فى منامى : واهاً للعابدين ، ما أشرف مقامهم ! ثم استيقظت من منامى وأنا خائف .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ مدح ثان ؛ أى يستغفرون من ذنوبهم ؛ قاله الحسن . والسَّحَر وقت يرجى فيه إجابة الدعاء . وقد مضى فى « آل عمران »[1] القول فيه . وقال ابن عمر ومجاهد : أى يصلّون وقت السَّحَر فسمّوا الصلاة استغفاراً .

وقال الحسن فى قوله تعالى : « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » مدّوا الصلاة من أوّل الليل

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٨

إلى السحر ثم استغفروا فى السحر . ابن وهب : هى فى الأنصار؛ يعنى أنهم كانوا يغدون من قُباء فيصلون فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم . ابن وهب عن ابن لهيعة عن يزيد ابن أبى حبيب قالوا : كانوا يَنْضَحون لِنَاسٍ من الأنصار بالدلاء على الثمار ثم يهجعون قليلا، ثم يصلّون آخر الليل . الضحاك : صلاة الفجر . قال الأحنف بن قيس : عرضت عملى على أعمال أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بَوْنًا بعيدا لا نبلغ أعمالهم «كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ» وعرضت عملى على أعمال أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم، يكذبون بكتاب الله وبرسوله وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ مدح ثالث . قال محمد بن سيرين وقتادة : الحق هنا الزكاة المفروضة . وقيل : إنه حقّ سوى الزكاة يصل به رَحِمًا، أو يَقرى به ضيفا، أو يحمل به كَلًّا، أو يغنى محروما . وقاله ابن عباس؛ لأن السورة مكية وفرضت الزكاة بالمدينة . ابن العربى : والأقوى فى هذه الآية أنها الزكاة؛ لقوله تعالى فى سورة «سأل سائل» : «وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ»(1) والحق المعلوم هو الزكاة التى بيّن الشرع قدرها وجنسها ووقتها، فأما غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم؛ لأنه غير مقدّر ولا مجنّس ولا موقّت .

الخامسة — قوله تعالى : «لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ» السائل الذى يسأل الناس لفاقته؛ قاله ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما . «وَالْمَحْرُومِ» الذى حُرِم المالَ . واختلف فى تعيينه؛ فقال ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما : المحروم المُحارَف الذى ليس له فى الإسلام سهم . وقالت عائشة رضى الله عنها : المحروم المُحارَف الذى لا يتيسر له مكسبه؛ يقال : رجل مُحارَف بفتح الراء أى محدود محروم، وهو خلاف قولك مُبارَك . وقد حورف كسبُ فلان إذا شُدِّد عليه فى معاشه كأنه مِيلَ برزقه عنه . وقال قتادة والزهرى : المحروم المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئا ولا يُعلِم بحاجته . وقال الحسن ومحمد بن الحنفية : المحروم الذى يجىء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم . روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث سَرِيّة فأصابوا وغنموا فجاء قوم بعد ما فرغوا فنزلت هذه الآية «وَفِي أَمْوَالِهِمْ» . وقال

(1) راجع جـ ١٨ ص ٢٩١

عكرمة : المحروم الذى لا يبقى له مال . وقال زيد بن أسلم : هو الذى أصيب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته . وقال القُرَظِيّ : المحروم الذى أصابته الجائحة ثم قرأ « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » نظيره فى قصة أصحاب الجنة حيث قالوا : « بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » وقال أبو قلابة : كان رجل من أهل اليمامة له مال فجاء سيل فذهب بماله ، فقال رجل من أصحابه : هذا المحروم فأقسموا له . وقيل : إنه الذى يطلب الدنيا وتُدبِر عنه . وهو يروى عن ابن عباس أيضا . وقال عبد الرحمن بن حميد : المحروم المملوك . وقيل : إنه الكلب ؛ روى أن عمر بن عبدالعزيز كان فى طريق مكة ، فجاء كلب فانتزع عمر رحمه الله كتف شاة فرمى بها إليه وقال : يقولون إنه المحروم . وقيل : إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوى الأنساب ؛ لأنه قد حُرِم كسب نفسه حتى وجبت نفقته فى مال غيره . وروى ابن وهب عن مالك : أنه الذى يحرم الرزق ، وهذا قول حسن ؛ لأنه يعم جميع الأقوال . وقال الشعبي : لى اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم منى فيه يومئذ . رواه شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي . وأصله فى اللغة الممنوع ؛ من الحرمان وهو المنع . قال علقمة :

وَمُطْعَمُ الغُنْمِ يومَ الغُنْمِ مُطْعَمُهُ * أَنَّى تَوَجَّه والمحرومُ محرومُ

وعن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التى فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتى وجلالى لأقربنكم ولأبعدنهم " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)

قوله تعالى : ﴿ وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ لما ذكر أمر الفريقين بيّن أن فى الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور ؛ فمنها عود النبات بعد أن صار هشيما ، ومنها أنه

قدّر الأقوات فيها قِواما للحيوانات ، ومنها سيرهم فى البلدان التى يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأمم المكذّبة . والموقنون هم العارفون المحقّقون وحدانية ربهم ، وصدق نبوّة نبيهم؛ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ قيل : التقدير وفى الأرض وفى أنفسكم آيات للموقنين . وقال قتادة : المعنى من سار فى الأرض رأى آياتٍ وعبرًا ، ومن تفكر فى نفسه علم أنه خُلق ليعبد الله . ابن الزبير ومجاهد : المراد سبيل الخلاء والبول . وقال السائب ابن شريك : يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين ؛ ولو شرب لبنًا محضًا لخرج منه الماء ومنه الغائط ؛ فتلك الآية فى النفس . وقال ابن زيد : المعنى أنه خلقكم من تراب، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، « ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ »(١) . السدى : «وَفِي أَنْفُسِكُمْ» أى فى حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم . الحسن : وفى الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، والشيب بعد السواد . وقيل : المعنى وفى خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح ، وفى اختلاف الألسنة والألوان والصُّوَر، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها(٢) من العقول، وما خصّت به من أنواع المعانى والفنون ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح ، وتأتّيها لما خُلِقت له ، وما سوّى فى الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنى، وأنه إذا جسا(٣) شىء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »(٤) . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ يعنى بصر القلب ليعرفوا كمال قدرته . وقيل : إنه نُجح العاجز، وحرمان الحازم .

قلت : كل ما ذكر مراد فى الاعتبار . وقد قدّمنا فى آية التوحيد من سورة « البقرة »(٥) أن ما فى بدن الإنسان الذى هو العالَم الصغير شىء إلا وله نظير فى العالَم الكبير، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفى ويغنى لمن تدبر .

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٧ (٢) فى الأصل المطبوع : « وما فيها من العقول » .
(٣) جست اليد تيبست عظامها وقل لحمها . (٤) راجع جـ ١٢ ص ١١٠ (٥) راجع جـ ٢ ص ٢٠٢

قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق . قال سعيد بن جبير : كل عين قائمة فإنها من الثلج . وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم . وقال أهل المعانى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » معناه وفى المطر رزقكم ؛ سمى المطر سماء لأنه من السماء ينزل . قال الشاعر (١) :

إذا سقط السماءُ بأرض قوم * رعيناه وإن كانوا غضابا

وقال ابن كيسان : يعنى وعلى ربّ السماء رزقكم ؛ نظيره : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا (٢) » . وقال سفيان الثورى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » أى عند الله فى السماء رزقكم . وقيل : المعنى وفى السماء تقدير رزقكم ، وما فيه لكم مكتوب فى أم الكتاب . وعن سفيان قال : قرأ واصل الأحدب « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » فقال : ألا أرى رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض ! فدخل خَرِبة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا فإذا هو فى الثالثة بدوخلة (٣) رُطب ، وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرّق الله بالموت بينهما . وقرأ ابن محيصن ومجاهد « وَفِي السَّمَاءِ رَازِقُكُمْ » بالألف وكذلك فى آخرها « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ » . ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال مجاهد : يعنى من خير وشر . وقال غيره : من خير خاصة . وقيل : الشر خاصة . وقيل : الجنة ؛ عن سفيان بن عيينة . الضحاك : « وَمَا تُوعَدُونَ » من الجنة والنار . وقال ابن سيرين : « وَمَا تُوعَدُونَ » من أمر الساعة . وقاله الربيع .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أكد ما أخبرهم به من البعث وما خلق فى السماء من الرزق ، وأقسم عليه بأنه لحقّ ثم أكده بقوله : ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ وخصّ النطق من بين سائر الحواسّ ؛ لأن ما سواه من الحواسّ يدخله التشبيه ، كالذى

(١) هو معوّد الحكماء معاوية بن مالك ؛ وسمى معوّد الحكماء لقوله فى هذه القصيدة :

أعود مثلها الحكماء بعدى * إذا ما الحق فى الحدثان نابا

(٢) راجع جـ ٩ ص ٦

(٣) الدوخلة (بتشديد اللام وتخفيفها) : سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب .

يُرى فى المرآة ، وآستحالة الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها ، والدوىّ والطنين فى الأذن ، والنطق سالم من ذلك ، ولا يُعترض بالصَّدَى لأنه لا يكون إلا بعد حصول الكلام من الناطق غير مَشُوب بما يشكل به . وقال بعض الحكماء : كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره ، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره . وقال الحسن : بلغنى أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدّقوه قال الله تعالى : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ » ". وقال الأصمعى : أقبلتُ ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابىّ جِلْفٌ جافٍ على قعود له متقلّدا سيفه وبيده قوسه ، فدنا وسلّم وقال : ممن الرجل ؟ قلت من بنى أَصْمَع ، قال : أنت الأصمعى ؟ قلت : نعم . قال : ومن أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يُتلَى فيه كلامُ الرحمن ؛ قال : وللرحمن كلام يتلوه الآدميون ؟ قلت : نعم ؛ قال : فآتل علىّ منه شيئا ؛ فقرأت « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » إلى قوله : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » فقال : يا أصمعى حسبك ! ! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها ، وقال : أعنّى على توزيعها ؛ ففرّقناها على من أقبل وأدبر ، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرَّحل وولى نحو البادية وهو يقول : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فمقتُّ نفسى ولمتُها ، ثم حججت مع الرشيد ، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابى وهو ناحل مصفر ، فسلّم علىّ وأخذ بيدى وقال : آتل علىّ كلام الرحمن ، وأجلسنى من وراء المقام فقرأت « وَالذَّارِيَاتِ » حتى وصلت إلى قوله تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فقال الأعرابى : لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقًّا ، وقال : وهل غير هذا ؟ قلت : نعم ؛ يقول الله تبارك وتعالى : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » قال فصاح الأعرابى وقال : ياسبحان الله ! من الذى أغضب الجليل حتى حلف ! ألم يصدقوه فى قوله حتى ألجئوه إلى اليمين ؟ فقالها ثلاثا وخرجت بها نفسه . وقال يزيد بن مرثد : إن رجلا جاع بمكان ليس فيه شىء فقال : اللهم رزقك الذى وعدتنى فأتنى به ؛ فشبِع ورَوِى من غير طعام ولا شراب . وعن أبى سعيد الخدرىّ قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لو أن أحدكم

فرّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت" أسنده الثعلبي . وفى سنن ابن ماجه عن حبة وسواء ابني خالد قالا: دخلنا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يعالج شيئا فأعنّاه عليه، فقال: "لا تيأسا من الرزق ماتهززت رءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قِشْر[1] ثم يرزقه الله". وروى أن قوما من الأعراب زرعوا زرعاً فأصابته جائحة فحزنوا لأجله، فخرجت عليهم أعرابية فقالت: مالى أراكم قد نكستم رءوسكم، وضاقت صدوركم، هو ربنا والعالم بنا، رزقنا عليه يأتينا به حيث شاء! ثم أنشأت تقول:

لو كان فى صخرةٍ فى البحر راسيةٍ * صمّا مُلَمْلَمَةٍ مَلْسا نواحيها
رِزْقٌ لنفسٍ بَرَاهَا الله لانفلقتْ * حتى تؤدى إليها كُلَّ ما فيها
أو كان بين طِباقِ السبع مسلكها * لَسَهَّلَ الله فى المرقَى مَرَاقيها
حتّى تنالَ الذى فى اللوح خُطَّ لها * إنْ لم تَنَلْه وإلا سوف يأتيها

قلت: وفى هذا المعنى قصة الأشعريين حين أرسلوا رسولهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فسمع قوله تعالى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» فرجع ولم يكلم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال: ليس الأشعريون بأهون على الله من الدواب؛ وقد ذكرناه فى سورة «هود»[2]. وقال لقمان: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ» الآية. وقد مضى فى «لقمان»[3] وقد استوفينا هذا الباب فى كتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة) والحمد لله. وهذا هو التوكل الحقيق الذى لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الربّ؛ رزقنا الله إياه ولا أحالنا على أحد سواه بمنّه وكرمه.

قوله تعالى: ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ قراءة العامة «مِثْلَ» بالنصب أى كمثل «مَا أَنَّكُمْ» فهو منصوب على تقدير حذف الكاف أى كمثل نطقكم و«ما» زائدة؛ قاله بعض الكوفيين. وقال الزجاج والفراء: يجوز أن ينتصب على التوكيد؛ أى لحَقٌّ حقًّا مثل

(١) القشر هنا الثياب. (٢) راجع جـ ٩ ص ٦ (٣) راجع جـ ١٤ ص ٦٦

نطقك؛ فكأنه نعت لمصدر محذوف . وقول سيبويه : إنه مبنى بُنى حين أضيف إلى غير متمكن و « ما » زائدة للتوكيد . المازنى : « مِثْلَ » مع « ما » بمنزلة شيء واحد فبنى على الفتح لذلك . وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال : ولأن من العرب من يجعل مِثلا منصوبا أبدا؛ فتقول : قال لى رجلٌ مثلك ، ومررت برجل مثلَك بنصب [مثل على معنى كمثل](١) . وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى والأعمش « مِثْلُ » بالرفع على أنه صفة لحقّ؛ لأنه نكرة وإن أضيف إلى معرفة، إذ لا يختص بالإضافة لكثرة الأشياء التى يقع بعدها التماثل بين المتماثلين . و « مِثْلَ » مضاف إلى « أَنَّكُمْ » و « ما » زائدة ولا تكون مع مابعدها بمنزلة المصدر إذ لافعل معها تكون معه مصدرا . ويجوز أن تكون بدلا من « الحقّ » .

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ليبين بها أنه أهلك المكذب بآياته كما فعل بقوم لوط . « هَلْ أَتَاكَ » أى ألم يأتك . وقيل : « هَلْ » بمعنى قد ؛ كقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ »(٢) . وقد مضى الكلام فى ضيف إبراهيم فى « هود »(٣) « والحجر »(٤) . « الْمُكْرَمِينَ » أى عند الله؛ دليله قوله تعالى : « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ »(٥) قال ٱبن عباس : يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل — زاد عثمان بن حَصين — ورفائيل عليهم الصلاة والسلام . وقال محمد بن كعب : كان جبريل ومعه تسعة . وقال عطاء وجماعة : كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر .

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . (٢) راجع ج ١٩ ص ١١٦
(٣) راجع ج ٩ ص ٦٢ (٤) راجع ج ١٠ ص ٣٥ (٥) راجع ج ١١ ص ٢٨١

قال ابن عباس : سماهم مكرمين لأنهم غير مدعوين . وقال مجاهد : سماهم مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه . قال عبد الوهاب : قال لى على بن عياض : عندى هريسة مارأيك فيها ؟ قلت : ما أحسن رأيى فيها ؛ قال : امض بنا ؛ فدخلت الدار فنادى الغلام فإذا هو غائب ، فما راعنى إلا به ومعه القُمْقُمة والطَّسْت وعلى عاتقه المِنْديل ، فقلت : إنالله وإنا إليه راجعون ، لو علمتُ ياأبا الحسن أن الأمر هكذا ؛ قال : هَوِّن عليك فإنك عندنامُكَرَم ، والمكرم إنما يُخدم بالنفس ؛ انظر إلى قوله تعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً ﴾ تقدم فى « الحجر »[1] . ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أى عليكم سلام . ويجوز بمعنى أمرى سلام أوردّى لكم سلام . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « سِلْمٌ » بكسر السين . ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أى أنتم قوم منكرون ؛ أى غرباء لانعرفكم . وقيل : لأنه رآهم على غير صورة البشر ، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم فنكرهم ، فقال : « قَوْمٌ مُنْكَرُونَ » . وقيل : أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان . وقال أبو العالية : أنكر سلامهم فى ذلك الزمان وفى تلك الأرض . وقيل : خافهم ؛ يقال : أنكرته إذا خفته ، قال الشاعر[2] :

فَأَنْكَرَتْنِي وما كان الذى نَكِرَتْ * مِنَ الحوادِثِ إلَّا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ قال الزجاج : أى عدل إلى أهله . وقد مضى فى « والصافات »[3] . ويقال : أراغ وارتاغ بمعنى طلب ، وماذا تُرِيغ أى تريد وتطلب ، وأراغ إلى كذا أى مال إليه سرًّا وحاد ، فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتين بمعنى . ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أى جاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كما فى « هود » : « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ »[4] . ويقال : إن إبراهيم انطلق إلى منزله كالمستخفى[5] من ضيفه ، لئلا يظهروا على مايريد أن يتخذ لهم من الطعام .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٤   (٢) هو الأعشى .   (٣) راجع جـ ١٥ ص ٩٤
(٤) راجع جـ ٩ ص ٦٢ و ٦٨   (٥) فى ن : « كالمستحى » .

قوله تعالى : ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ يعنى العجل . ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قال قتادة : كان عامة مالِ إبراهيم البقر ، واختاره لهم سمينا زيادة فى إكرامهم . وقيل : العِجل فى بعض اللغات الشاة . ذكره القشيرى . وفى الصحاح : العِجل ولد البقرة والعِجَّوْل مثله والجمع العَجاجيل والأنثى عِجْلة ، عن أبى الجراح ، و بقرة مُعْجِل ذات عِجْل ، وعِجْل قبيلة من ربيعة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أى أحس منهم فى نفسه خوفا . وقيل : أضمر لما لم يتحرّموا بطعامه . ومن أخلاق الناس : أن من تَحرَّم بطعام إنسان أمنه . وقال عمرو ابن دينار : قالت الملائكة لانأكل إلا بالثمن . قال : كلوا وأدّوا ثمنه . قالوا : وماثمنه ؟ قال : تسمُّون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم . فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : لهذا اتخذك الله خليلا . وقد تقدّم هذا فى « هود » . ولما رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسله . ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى بولد يولد له من سارة زوجته . وقيل : لما أخبروه أنهم ملائكة لم يصدّقهم ، فدعوا الله فأحيا العجل الذى قرّبه إليهم . وروى عون بن أبى شدّاد : أن جبريل مسح العجل بجناحه ، فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل فى الدار . ومعنى « عَلِيمٍ » أى يكون بعد بلوغه من أولى العلم بالله وبدينه . والجمهور على أن المبشّر به هو إسحق . وقال مجاهد وحده : هو إسمعيل وليس بشىء فإن الله تعالى يقول : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ »(1) . وهذا نص .

قوله تعالى : فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ ﴾ أى فى صيحة وضجة ؛ عن ابن عباس وغيره . ومنه أخذ صرير الباب وهو صوته . وقال عكرمة وقتادة : إنها الرَّنة والتأوه ولم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان . قال الفراء : وإنما هو كقولك أقبل يشتمنى أى أخذ فى شتمى . وقيل : أقبلت فى صَرَّة أى فى جماعة من النساء(2) تسمع كلام الملائكة . قال

(1) راجع جـ ١٥ ص ٩٩ (٢) فى ن : «الناس» .

الجوهرى : الصّرة الضجّة والصيحة ، والصّرة الجماعة ، والصّرة الشدّة من كرب وغيره ، قال آمرؤ القيس :

فألحقه بالهاديات ودونه * جواحرها فى صرّة لم تزيّل (١)

يحتمل هذا البيت الوجوه الثلاثة . وصرة القيظ شدّة حرّه . فلما سمعت سارة البشارة صكّت وجهها ؛ أى ضربت يدها على وجهها على عادة النّسوان عند التعجب ؛ قاله سفيان الثورى وغيره . وقال آبن عباس : صكّت وجهها لطمته . وأصل الصّك الضرب ؛ صكّه أى ضربه ؛ قال الراجز (٢) :

* يا كروانا صكّ فاكبأنّا *

قال الأموى : كبن الظبي إذا لطأ بالأرض وآكبأنّ آنقبض . ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أى أتلد عجوز عقيم . الزجاج : أى وقالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد، كما قالت : « يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ (٣) » . ﴿ قَالُوا كَذَٰلِكِ ﴾ أى كما قلنا لك وأخبرناك ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ فلا تشكّى فيه، وكان بين البشارة والولادة سنة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهى بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم يومئذ آبن مائة سنة وقد مضى هذا . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ حكيم فيما يفعله عليم بمصالح خلقه .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

(١) ويروى فألحقنا والبيت من معلقته ، والهاديات أوائل بقر الوحش ، وجواحرها متخلفاتها ، ولم تزيل ، أى لم تتفرق ؛ يقول : لما لحق هذا الفرس أوائل بقر الوحش بقيت أواخرها لم تتفرق .

(٢) هو مدرك بن حصن . وتمامه : * فشن بالسلح فلما شنا *

(٣) راجع جـ ٩ ص ٦٩

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لما تيقن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة قال لهم: «فَمَا خَطْبُكُمْ» أى ماشأنكم وقصتكم «أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ» ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يريد قوم لوط. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ أى لنرجمهم بها. ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أى معلمة. قيل: كانت مخططة بسواد وبياض. وقيل: بسواد وحمرة. وقيل: «مُسَوَّمَةً» أى معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل: على كل حجر اسم من يهلك به. وقيل: عليها أمثال الخواتيم. وقد مضى هذا كله فى «هود»[1]. فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشذاذهم فلم يفلت منهم مخبر. ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أى عند الله وقد أعدها لرجم من قضى برجمه. ثم قيل: كانت مطبوخة طبخ الآجر، قاله ابن زيد؛ وهو معنى قوله تعالى: «حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ» على ماتقدم بيانه فى «هود». وقيل: هى الحجارة التى نراها وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور. وإنما قال: «مِنْ طِينٍ» ليعلم أنها ليست حجارة الماء التى هى البَرَد. حكاه القشيرى.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان فى قومه من المؤمنين؛ لئلا يهلك المؤمنون، وذلك قوله تعالى: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ»[1]. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعنى لوطا وبنتيه وفيه إضمار؛ أى فما وجدنا فيها غير أهل بيت. وقد يقال بيت شريف يراد به الأهل. وقوله: «فِيهَا» كناية عن القرية ولم يتقدم لها ذكر؛ لأن المعنى مفهوم. وأيضا فقوله تعالى: «إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ» يدل على القرية؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية. وقيل: الضمير فيها للجماعة. والمؤمنون والمسلمون هاهنا سواء فجنس اللفظ لئلا يتكرر، كما قال: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ»[1]. وقيل: الإيمان تصديق القلب، والإسلام الانقياد بالظاهر، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا. فسماهم فى الآية الأولى مؤمنين؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم. وقد مضى الكلام فى هذا المعنى فى «البقرة»[2] وغيرها. وقوله: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ

(١) راجع جـ ٩ ص ٨٢ وص ٧٩ وص ٢١٥ (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٣

آمنا قل لم تؤمنوا » يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام وهو مقتضى حديث جبريل عليه السلام في صحيح مسلم وغيره . وقد بيناه في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾ أي عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم ؛ نظيره : « وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »[1] . ثم قيل : الآية المتروكة نفس القرية الخربة . وقيل : الحجارة المنضودة التي رجموا بها هي الآية . ﴿ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون[2] .

قوله تعالى : وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَى ﴾ أي وتركنا أيضا في قصة موسى آية . وقال الفراء : هو معطوف على قوله : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ » « وَفِي مُوسَى » . ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة بينة وهي العصا . وقيل : أي بالمعجزات من العصا وغيرها .

قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أي فرعون أعرض عن الإيمان « بِرُكْنِهِ » أي بجموعه وأجناده ؛ قاله ابن زيد . وهو معنى قول مجاهد ، ومنه قوله : « أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ »[3] يعني المنعة والعشيرة . وقال ابن عباس وقتادة : بقوته . ومنه قول عنترة :

فما أوهى مراس الحرب ركني * ولكن ما تقادم من زماني[4]

وقيل : بنفسه . وقال الأخفش : بجانبه ؛ كقوله تعالى : «أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ»[5] وقاله المؤرج . الجوهري : وركن الشيء جانبه الأقوى ، وهو يأوي إلى ركن شديد أي عزة ومنعة . القشيري : والركن جانب البدن . وهذا عبارة عن المبالغة في الإعراض عن الشيء .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٤٣ .
(٢) في ح « المشفقون » .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٧٨ .
(٤) في رواية : ولا وصلت إليّ يد الزمان .
(٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٢١ .

﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ « أو » بمعنى الواو ، لأنهـم قالوهما جميعا . قاله المؤرج والفراء ، وأنشد بيت جرير :

أثعلبـة الفـوارس أو رياحا * عدلت بهـم طهيـة والخشابا (١)

وقد توضع « أو » بمعنى الواو ، كقوله تعـالى : « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » (٢) والواو بمعنى أو ، كقوله تعالى : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » وقد تقدّم جميع هذا (٣) . ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ لكفرهم وتوليهم عن الإيمان . ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ أى طرحناهم ﴿ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ يعنى فرعون ، لأنه أتى ما يلام عليه .

قوله تعـالى : وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ أى وتركنا فى عاد آية لمن تأمل . ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ وهى التى لا تُلقح سحابا ولا شجرا ، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة ؛ ومنه امرأة عقيم لا تحمـل ولا تلد . ثم قيل : هى الجنوب . روى ابن أبى ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " الريح العقيم الجَنُوب " وقال مقـاتل : هى الدبور كما فى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "نُصرت بالصَّبَا وأهلكت عاد بالدَّبُور" . وقال ابن عباس : هى النكباء . وقال عُبيد بن عُمير : مسكنها الأرض الرابعة وما فتح على عاد منها إلا كقدر منخر الثور . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد أيضا أنها الصَّبا ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ أى كالشيء الهشيم ؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتت : رميم وهشيم . قال ابن عباس : كالشيء الهالك البالى ، وقاله مجاهد . ومنه قول الشاعر (٤) :

---

(١) طهية — كسمية — : حى من تميم نسبوا إلى أمهم ، والخشاب : بطون من تميم أيضا .

(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٤٧ (٣) راجع جـ ٥ ص ١٧

(٤) هو جرير يرثى ابنه .

تَرَكْتني حِينَ كَفّ الدّهرُ مِنْ بَصَرِى * وإذْ بَقِيتُ كعَظْمِ الرِّمّـةِ البَالِي

وقال قتادة : إنه الذى دِيس من يابس النبات . وقال أبو العالية والسدى : كالتراب المدقوق . قُطْرب: الرِّميم الرّماد . وقال يمان : ما رمته الماشية من الكلأ بمرمتها . ويقال للشفة المِرَمّة والمِقَمّة بالكسر، والمَرَمّة بالفتح لغة فيه . وأصل الكلمة من رَمّ العظمُ إذا بلى؛ تقول منه : رَمّ العظم يَرِمّ بالكسر رِمّة فهو رميم ، قال [الشاعر] (١) :

وَرَأى عَواقِبَ خُلْفِ ذَاكَ مَذَمّةً * تَبْـقَى عليـه والعِظَـامُ رَمِـيمُ

والرِّمة بالكسر العظام البالية والجمع رِمم ورِمام . ونظير هذه الآية : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ » حسب ما تقدم (٢) .

قوله تعالى : وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ أى وفيهم أيضا عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ أى إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما فى هود (٣) : « تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » . وقيل : معنى « تَمَتَّعُوا » أى أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم . ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أى خالفوا أمر الله فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أى الموت . وقيل : هى كل عذاب مهلك . قال الحسين بن واقد : كلّ صاعقة فى القرآن فهو العذاب . وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصِن ومجاهد والكسائى «الصَّعْقَةَ» يقال صَعِق الرجلُ صَعْقة وتَصْعاقا أى غُشِى عليه . وصَعَقتهم السماء أى ألقت (٤) عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب وقد مضى فى « البقرة (٥) » وغيرها . ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليها نهارا . ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ قيل: معناه

(١) من ن .   (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٦ .   (٣) راجع جـ ٩ ص ٦٠ .
(٤) فى ح ، ز ، ل ، ن : « إذا ألقت » .   (٥) راجع جـ ١ ص ٢١٩ .

من نهوض. وقيل : ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه و يقوموا به و يدفعوه عن أنفسهم؛ تقول : لا أقوم لهذا الأمر أى لا أطيقه. وقال ابن عباس: أى ذهبت أجسامهم و بقيت أرواحهم فى العذاب. ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أى ممتنعين من العذاب حين أهلكوا، أى ما كان لهم ناصر.

قوله تعالى : وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ قرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو « وَقَوْمِ نُوحٍ » بالخفض؛ أى وفى قوم نوح آية أيضا. الباقون بالنصب على معنى وأهلكنا قوم نوح، أو يكون معطوفا على الهاء والميم فى « أَخَذَتْهُمْ » أو الهاء فى « أَخَذْنَاهُ » أى فأخذتهم الصاعقة وأخذت قوم نوح ، أو « نَبَذْنَاهُمْ فى اليَمّ » ونبذنا قوم نوح ، أو يكون بمعنى اذكر .

قوله تعالى : وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ لما بيّن هذه الآيات قال : وفى السماء آيات وعبر تدل على أن الصانع قادر على الكمال، فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان . ومعنى « بِأَيْدٍ » أى بقوة وقدرة. عن ابن عباس وغيره. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس: لقادرون. وقيل: أى و إنا لذو سَعة، و بخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده. وقيل: أى و إنا لموسعون الرزق على خلقنا . عن ابن عباس أيضا . الحسن : و إنا لمطيقون . وعنه أيضا : و إنا لموسعون الرزق بالمطر. وقال الضحاك : أغنيناكم؛ دليله : «عَلَى المُوسِعِ قَدَرُهُ»[(١)] . وقال القُتَبِي : ذو سعة على خلقنا . والمعنى متقارب . وقيل : جعلنا بينهما و بين الأرض سعة . الجوهرى : وأوسعَ الرجلُ أى صار ذا سَعة وغِنًى، ومنه قوله تعالى: «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » أى أغنياء قادرون . فشمل جميع الأقوال . ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٠٣

أى بسطناها كالفراش على وجه الماء ومددناها . ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ أى فنعم الماهدون نحن لهم (١) . والمعنى فى الجمع التعظيم ؛ مَهَدت الفراشَ مَهْدًا بَسَطته ووطّأته ، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أى صنفين ونوعين مختلفين . قال ابن زيد : أى ذكرا وأنثى وحلوًا وحامضا ونحو ذلك . مجاهد : يعنى الذكر والأنثى ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجنّ والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشىّ ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطّعوم والأرابيح والأصوات . أى جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا ، ومن قدر على هذا فليقدر على الإعادة . وقيل : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » لتعلموا أن خالق الأزواج فرد ، فلا يقدّر فى صفته حركة ولا سكون ، ولا ضياء ولا ظلام ، ولا قعود ولا قيام ، ولا ابتداء ولا انتهاء ؛ إذ هو عز وجل وتر « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » (٢) . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ
مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾
أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ
بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ لما تقدّم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم ؛ لذلك قال الله تعالى : لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم يا محمد ؛ أى قل لقومك : « فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أى فرّوا من معاصيه إلى طاعته . وقال ابن عباس : فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم . وعنه فرّوا منه إليه واعملوا بطاعته . وقال محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان : « فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ » اخرجوا إلى مكة . وقال الحسين

(١) لفظة « لهم » ساقطة من ز . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٨

آبن الفضل : آحترزوا من كل شيء دون الله فمن فـرّ إلى غيره لم يمتنع منـه . وقال أبو بكر الوزاق : فِروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن . وقال الجُنَيد : الشيطان داعٍ إلى الباطل ففروا إلى الله يمنعكم منه . وقال ذو النون المصرى : ففِرّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر . وقال عمرو بن عثمان : فِرّوا من أنفسكم إلى ربكم . وقال أيضا : فِروا إلى ماسبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم . وقال سهل بن عبد الله : فِرّوا ممـا سوى الله إلى الله . « إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أى أنذركم عقابه على الكفر والمعصية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا للناس وهو النذير . وقيل : هو خطاب من الله للخلق . ﴿ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أى من محمد وسيوفه ﴿ نَذِيرٌ ﴾ أى أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بى ؛ قاله آبن عباس .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُـولٍ ﴾ هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى كما كذّبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون، كذّب من قبلهم وقالوا مثل قولهم . والكاف من « كَذَٰلِكَ » يجوز أن تكون نصبا على تقدير أنذركم إنذاراً كإنذار من تقدّمنى من الرســل الذين أنذروا قومهم ، أو رفعا على تقدير الأمر كذلك أى كالأول . والأوّل تخويف لمن عصاه من الموحّدين ، والثانى لمن أشرك به من الملحدين . والتمـام على قوله : « كَذَٰلِكَ » عن يعقوب وغيره .

قوله تعـالى : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ أى أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب . وتواطئوا عليــه ؛ والألف للتوبيخ والتعجب . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أى لم يوصِ بعضهم بعضا بل جمعهم الطغيان ، وهو مجاوزة الحدّ فى الكفر .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم وآصفح عنهم ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ عند الله لأنك أديت ما عليك من تبليغ الرسالة ، ثم نسخ هذا بقوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقيل : نسخ بآية السيف . والأوّل قول الضحاك ؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة . وقال مجاهد : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » فاعرض عنهم « فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » أى ليس يلومك

ربك على تقصير كان منك «وَذَكِّرْ» أي بالعظة فإن العظة «تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ». قتادة: «وَذَكِّرْ» بالقرآن «فَإِنَّ الذِّكْرَى» به «تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ». وقيل: ذكرهم بالعقوبة وأيام الله. وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها.

قوله تعالى: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قيل: إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص. والمعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجنّ والإنس إلا ليوحدون. قال القشيريّ: والآية دخلها التخصيص على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ»[1] ومن خُلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على المؤمنين منهم؛ وهو كقوله تعالى: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا»[2] وإنما قال فريق منهم. ذكره الضحاك والكلبي والفرّاء والقتبي. وفي قراءة عبد الله: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» وقال عليّ رضي الله عنه: أي وما خلقت الجنّ والإنس إلا لآمرهم بالعبادة. واعتمد الزجاج على هذا القول، ويدل عليه قوله تعالى: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا»[3]. فإن قيل: كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته؟ قيل: قد تذللوا لقضائه عليهم؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الامتناع منه، وإنما خالفهم من كفر في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه. وقيل: «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» أي إلا ليقروا لي بالعبادة طوعا أو كرها؛ رواه عليّ ابن أبي طلحة عن ابن عباس. فالكره ما يُرى فيهم من أثر الصنعة. مجاهد: إلا ليعرفوني.

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢٤ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٨ (٣) راجع جـ ٨ ص ١١٩

الثعلبي : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده . ودليل هـذا التأويل قوله تعالى : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »[1] « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ »[1] وما أشبه هـذا من الآيات . وعن مجاهد أيضا : إلا لآمرهم وأنهاهم . زيد بن أسلم : هو ما جُبِلوا عليه من الشّقوة والسعادة ؛ فخلق السعداء من الجنّ والإنس للعبادة ، وخلق الأشقياء منهم للمعصية . وعن الكلبي أيضا : إلا ليوحدون ، فأما المؤمن فيوحده فى الشـدّة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده فى الشدّة والبـلاء دون النعمة والرخاء ؛ يدل عليه قوله تعـالى : « وَإِذَا غَشِيَهُم مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ »[2] الآية . وقال عِكْرمة : إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد . وقيل : المعنى إلا لأستعبدهم . والمعنى متقارب ؛ تقول : عبـد بيِّن العبودة والعبودية ، وأصـل العبودية الخضوع والذل . والتعبيد التذليل ؛ يقال : طريق معبد . قال[3] :

* وظِيفًا وَظِيفًا فـوقَ مَوْرٍ مُعَبَّـدِ *

والتعبيد الاستعباد وهو أن يتخـذه عبدا . وكذلك الاعتباد . والعبادة : الطاعة ، والتعبُّـد التّنسك . فمعنى « لِيَعْبُدُونِ » ليذلّوا ويخضعوا ويعبدوا . ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِنْ رِزْقٍ ﴾ « مِنْ » صـلة أى رزقا بل أنا الرزّاق والمعطى . وقال ابن عبـاس وأبو الجوزاء : أى ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها . وقيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادى ولا أن يطعموهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ وقرأ ابن مُحَيصن وغيره « الرَّازِقُ » . ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ أى الشديد القوى . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب والنّخعى « الْمَتِينِ » بالجـر على النعت للقـوّة . الباقون بالرفع على النعت لـ « الرزّاق » ، أو « ذُو » من قوله : « ذُو الْقُوَّةِ » أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ أو يكون نعتا لاسم إنّ على الموضع ، أو خبرا بعـد خبر . قال الفراء : كان

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٢٣ وص ٦٤ (٢) راجع جـ ١٤ ص ٨٠

(٣) هو طرفة بن العبد ، والبيت من معلقته وصدره :

* تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت *

الوظيف عظم الساق . وقوله أتبعت وظيفا وظيفا أى أتبعت وظيف يدها وظيف رجلها ، ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها فى موضع يدها إذا سارت . والمور : الطريق .

حقه المتينة فذكّره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرَم المحكم الفتل ؛ يقال : حبل متين . وأنشد الفرّاء :

لِكُلِّ دَهْرٍ قَدْ لَبِسْتُ أَثْوُبَا * حَتَّى ٱكْتَسَى الرَّأْسُ قِنَاعًا أَشْيَبَا

* مِن رَيطَةٍ وَالْيُمْنَةَ الْمُعَصَّبَا *

فذكّر المعصّب ؛ لأن اليمنة صنف من الثياب ؛ ومن هذا الباب قوله تعالى : « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ »(١) أى وعظ « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ »(٢) أى الصياح والصوت .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى كفروا من أهل مكة ﴿ ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ أى نصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة . وقال ٱبن الأعرابي : يقال يوم ذَنُوب أى طويل الشر لا ينقضى . وأصل الذَّنوب فى اللغة الدَّلو العظيمة ، وكانوا يستقون الماء فيقسمون ذلك على الأنصباء فقيل للذَّنوب نصيب من هذا ؛ قال الراجز :

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ * فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ

وقال عَلْقمة :

وفى كلّ يوم قد خَبَطْتَ بِنِعْمةٍ * فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وقال آخر(٣) :

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَايَا طَارِقَاتٌ * لِكُلِّ بَنِي أَبٍ مِنْهَا ذَنُوبُ

الجوهرى : والذَّنُوب الفرس الطويل الذَّنب ، والذَّنُوب النصيب ، والذَّنُوب لحم أسفل المَتْن ، والذَّنُوب الدّلو الملأى ماء . وقال ٱبن السكيت : فيها ماء قريب من الملء يؤنث ويذكر ، ولا يقال لها وهى فارغة ذَنُوب ، والجمع فى أدنى العدد أَذْنِبة والكثير ذَنائِب ، مثل قَلُوص وقلائص . ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أى فلا يستعجلون نزول العذاب بهم ؛ لأنهم قالوا : يا محمد « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »(٤) فنزل بهم يوم بدر ما حقق به وعده وعجّل بهم ٱنتقامه ، ثم لهم فى الآخرة العذاب الدائم ، والخزى القائم ، الذى لا ٱنقطاع له ولا نفاد ، ولا غاية ولا آباد . تم تفسير سورة « والذاريات » والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٥٩ (٢) راجع جـ ٩ ص ٦١
(٣) قائله أبو ذؤيب . (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٣٧ و جـ ٩ ص ٢٧

سورة « والطور »

مكية كلها فى قول الجميع ، وهى تسعٌ وأربعون آية

روى الأئمة عن جبير بن مُطْعِم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بالطور فى المغرب . متفق عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ﴾ الطور آسم الجبل الذى كلم الله عليه موسى ؛ أقسم الله به تشريفا له وتكريما وتذكيرا لما فيه من الآيات ، وهو أحد جبال الجنة . وروى إسمعيل ابن إسحق قال : حدّثنا إسمعيل بن أبى أويس ، قال : حدّثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أربعة أجبل من جبال الجنة وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة مَلَاحم من مَلَاحم الجنة (١) " قيل : فما الأجبل ؟ قال : "جبل أُحُد يحبنا ونحبه والطُّور جبل من جبال الجنة ولُبْنان جبل من جبال الجنة [والجودى جبل من جبال الجنة] (٢) " وذكر الحديث ، وقد استوفيناه فى كتاب «التذكرة» . قال مجاهد : الطور هو بالسريانية الجبل والمراد به طورسينا . وقاله السدّى . وقال مقاتل بن حيان : هما طوران يقال لأحدهما طُورسينا والآخر طورزيتا ؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون . وقيل : هو جبل بمَدْيَن وآسمه زَبِير . قال الجوهرى : والزّبير الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام .

---

(١) الملاحم : غزوة بدر وأحد والخندق وخيبر . (٢) الزيادة من ن .

قلت : ومدين بالأرض المقدّسة وهى قرية شعيب عليه السلام . وقيل : إن الطُّور كل جبل أنبت، ومالا ينبت فليس بطور؛ قاله ابن عباس . وقد مضى فى «البقرة»(١) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ أى مكتوب ؛ يعنى القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف ، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ ؛ كما قال تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ »(٢) . وقيل : يعنى سائر الكتب المنزلة على الأنبياء، وكان كل كتاب فى رَقّ ينشره أهله لقراءته . وقال الكلبي : هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صرير القلم . وقال الفراء : هو صحائف الأعمال ؛ فمن آخذ كتابه بيمينه ، ومن آخذ كتابه بشماله ؛ نظيره : « وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُوراً »(٣) وقوله : « وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ »(٤) . وقيل : إنه الكتاب الذى كتبه الله تعالى لملائكته فى السماء يقرءون فيه ما كان وما يكون . وقيل : المراد ما كتب الله فى قلوب الأولياء من المؤمنين؛ بيانه : « أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ »(٢) .

قلت : وفى هذا القول تجوُّز ؛ لأنه عبّر بالقلوب عن الرِّق . قال المبرّد : الرَّق ما رُقِّق من الجلد ليكتب فيه، والمنشور المبسوط . وكذا قال الجوهرى فى الصحاح ، قال : والرَّق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق . ومنه قوله تعالى : « فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ » والرَّق أيضا العظيم من السّلاحف . قال أبو عبيدة : وجمعه رُقُوق . والمعنى المراد ما قاله الفراء؛ والله أعلم . وكل صحيفة فهى رَقٌّ لرقة حواشيها ؛ ومنه قول المتلمس :

فكأنَّما هى من تَقَادُمِ عَهْدِها * رَقٌّ أُتِيحَ كتابُها مَسطورُ(٥)

وأما الرِّق بالكسر فهو المِلك ؛ يقال : عبد مرقوق . وحكى الماوردى عن ابن عباس : أن الرَّق بالفتح ما بين المشرق والمغرب .

قوله تعالى : ﴿ والْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ قال على وابن عباس وغيرهما : هو بيت فى السماء حِيَال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملَك ، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه . قال

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ .
(٢) راجع ص ٢٢٤ وص ٣٠٨ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٩ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٣٢ .
(٥) لم نعثر على هذا البيت فى ديوان المتلمس .

على رضى الله عنه : هو بيت فى السماء السادسة . وقيل : فى السماء الرابعة ؛ روى أنس ابن مالك، عن مالك بن صَعْصَعة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أوتى بى إلى السماء الرابعة فرفع لنا البيت المعمور فإذا هو حِيال الكعبة لو خَرّ خَرّ عليها يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه " ذكره الماوردىّ . وحكى القشيرى عن آبن عباس أنه فى السماء الدنيا . وقال أبو بكر الأنبارى : سأل آبن الكواء علياً رضى الله عنه قال : فما البيت المعمور ؟ قال : بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال له الضُّراح . وكذا فى « الصحاح » : والضُّراح بالضم بيت فى السماء وهو البيت المعمور عن آبن عباس . وعُمْرانه كثرة غاشيته من الملائكة . وقال المهدوى عنه : حذاء العرش . والذى فى صحيح مسلم عن مالك بن صعصعة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حديث الإسراء : " ثم رُفع إلىّ البيت المعمور فقلت ياجبريل ما هذا قال هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخرُ(١) ما عليهم " وذكر الحديث . وفى حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أُتِيت بالبُرَاق " الحديث ؛ وفيه : " ثم عرج بنا إلى السابعة(٢) فآستفتح جبريل عليه السلام فقيل من هذا قال جبريل قيل ومَن معك قال محمد — صلى الله عليه وسلم — قيل وقد بُعث إليه قال قد بُعِث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنِدا ظهره إلى البيت المعمور و إذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه " . وعن ابن عباس أيضا قال : لله فى السموات والأرضين خمسةَ عشرَ بيتا ، سبعة فى السموات وسبعة فى الأرضين والكعبة ، وكلها مقابلة للكعبة . وقال الحسن : البيت المعمور هو الكعبة ، البيت الحرام الذى هو معمور من الناس ، يعمره الله كل سنة بستمائة ألف ، فإن عجز الناس عن ذلك أتمه الله بالملائكة ، وهو أوّل بيت وضعه الله للعبادة فى الأرض . وقال الربيع بن أنس : إن البيت المعمور كان

---

(١) « آخر » برفع الراء ونصبها ، فالنصب على الظرف والرفع على تقدير ذلك آخر ما عليهم ، والرفع أوجه . (هامش مسلم) .

(٢) فى ح ، ز ، ل ، ن : « إلى السماء السابعة » .

فى الأرض موضع الكعبة فى زمان آدم عليه السلام، فلما كان زمان نوح عليه السلام أمرهم أن يحجُّوا فأبوا عليــه وعصوه ، فلما طغى المـاء رفع فجعل بحـذائه فى السماء الدنيا، فيَعمره كلَّ يوم سـبعونَ ألفَ ملَك ، ثم لا يرجعون إليــه حتى ينفخ فى الصور ، قال : فبــوّأ الله جلّ وعز لإبراهيم مكان البيت حيث كان ؛ قال الله تعـالى : « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ »(١). ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَـرْفُوعِ ﴾ يعنى السماء سماها سقفا ؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت؛ بيانه : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا »(٢) . وقال آبن عباس : هو العرش وهو سقف الجنة . ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ قال مجاهد : الموقَد؛ وقد جاء فى الخبر : " إن البحر يُسجَر يوم القيامة فيكون نارا " . وقال قتادة : المملوء . وأنشد النحويون للنَّمر بن تَوْلَب :

إذا شـاء طالـعَ مَسْجُورةً　*　تَرَى حَولَها النَّبْعَ والسَّاسَمَا(٣)

يريد وَعْلًا يطالع عينـا مسجورة مملوءة . فيجـوز أن يكون المملوء نارا فيكون كالقـول المتقدم . وكذا قال الضحاك وشمـر بن عطية ومحمد بن كعب والأخفش بأنه المـوْقد المحمىّ بمنزلة التَّنُّور المسجور . ومنه قيل : لِلمِسْعَرِ مِســجَر ؛ ودليل هــذا التأويل قوله تعـالى : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّـرَتْ »(٤) أى أوقدت ؛ سَجَرت التَّنُّور أسجره سجْرًا أى أحميته . وقال سعيد آبن المسيِّب : قال علىّ رضى الله عنه لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. قال ما أُرَاكَ إلا صادقا ، وتلا : « والْبَحْرِ الْمَسْجُورِ » . « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ» مخففة . وقال عبـد الله آبن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم. [وقال كعب : يُسجَر البحر غدا فيزاد فى نار جهنم ؛ فهــذا قول(٥)] وقال آبن عباس : المسجور الذى ذهب ماؤه . وقاله أبو العاليـة . وروى عطية وذو الرُّمة الشاعر عن آبن عبـاس قال : خرجت أَمَة لتسـتق فقالت : إن الحوض مسجور أى فارغ ، قال آبن أبى داود : ليس لذى الرُّمة حديث إلا هذا . وقيل: المسجور أى المفجور؛ دليله : «وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّـرَتْ»(٤)أى تنشفها الأرض فلا يبق فيها ماء.

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٣٦　(٢) راجع جـ ١١ ص ٢٨٥　(٣) الساسم غير مهموز: شجر يتخذ منه القسى والسهام ؛ والنبع مثله .　(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٢٨ وص ٢٤٢　(٥) ما بين المربعين ساقط من ه .

وقول ثالث قاله عليّ رضي الله عنه وعكرمة . قال أبو مكين : سألت عِكرمة عن البحر المسجور فقال : هو بحر دون العرش . وقال عليّ : تحت العرش فيه ماء غليظ . و يقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحا فينبتون في قبورهم . وقال الربيع بن أنس : المسجور المختلط العذب بالملح .

قلت : و إليه يرجع معنى « فُجِّرَتْ » في أحد التأويلين ؛ أي فُجِّرَ عذبُها في مالحها : والله أعلم . وسيأتي . وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : المسجور المحبوس .
﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا جواب القسم ؛ أي واقع بالمشركين . قال جُبَير بن مُطْعِم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر ، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب « وَالطُّورِ » إلى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ فكأنما صدع قلبي ، فأسلمت خوفا من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب . وقال هشام بن حسان : انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ « وَالطُّورِ » حتى بلغ « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ » فبكى الحسن و بكى أصحابه ؛ فجعل مالك يضطرب حتى غُشي عليه . ولما وُلّي بكّار القضاء جاء إليه رجلان يختصمان فتوجهت على أحدهما اليمين ، فرغب إلى الصلح بينهما ، وأنه يعطي خصمه من عنده عوضا من يمينه فأبى إلا اليمين ، فأحلفه بأول « وَالطُّورِ » إلى أن قال له قل : « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ » إن كنت كاذبا ؛ فقالها فخرج فكسر من حينه .(1)

قوله تعالى : يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

(1) في ن « إن عذاب الله بي لواقع الخ » .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ العامل فى يوم قوله : « وَاقِعٌ » أى يقع العذاب بهم يوم القيامة وهو اليوم الذى تمور فيه السماء . قال أهل اللغة : مار الشيء يَمُورُ مَوْرًا ، أى تحرك وجاء وذهب كما تَتَكفَّأ النخلةُ العَيْدانة ، أى الطويلة ، والتَّمور مثله . وقال الضحاك : يموج بعضها فى بعض . مجاهد : تدور دورا . أبوعبيدة والأخفش : تكفأ ، وأنشد للأعشى :

كأنّ مِشْيَتَها مِن بيتِ جارتِهَا　*　مَوْرُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وقيل تجرى جريا . ومنه قول جرير :

وما زالتِ القَتْلَى تَمُورُ دِماؤُهَا　*　بِدجلةَ حتّى ماءُ دجلةَ أَشْكَلُ (١)

وقال آبن عباس : تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب . وقيل : يدور أهلها فيها ويموج بعضهم فى بعض . والمور أيضا الطريق . ومنه قول طَرَفَة :

*　... فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ (٢)　*

والمَوْرُ الموج . وناقة مَوَّارة اليد أى سريعة . والبعير يمور عضداه إذا ترددا فى عَرْض جنبه ، قال الشاعر :

*　على ظَهْرِ مَوَّارِ المِلَاطِ حِصَانِ　*

المِلاط الجنب . وقولهم : لا أدرى أغارَ أم مَارَ ؛ أى أتى غورا أم دار فرجع إلى نجد . والمُور بالضم الغبار بالريح . وقيل : إن السماء هاهنا الفلك وموره آضطراب نظمه وآختلاف سيره ؛ قاله آبن بحر . ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ قال مقاتل : تسير عن أماكنها حتى تستوى بالأرض . وقيل : تسير كسير السحاب اليوم فى الدنيا ؛ بيانه « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٣) » . وقد مضى هذا المعنى فى « الكهف (٤) » . ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

---

(١) الأشكل : ما فيه بياض وحمرة .

(٢) البيت من معلقته وتمامه :

تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت　*　وظيفا وظيفا فوق مور معبد

تبارى : تعارض . والعتاق : النوق الكرام . والناجيات : السريعات . والوظيف : عظم الساق . والمعبد : المذلل .

(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٤٢

(٤) راجع جـ ١٠ ص ٤١٦

« وَيْلٌ » كلمة تقال للهالك ، و إنمـا دخلت الفاء لأن فى الكلام معنى المجازاة . ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أى فى تردد فى الباطل ، وهو خوضهم فى أمر محمد بالتكذيب . وقيل : فى خوض فى أسباب الدنيا يلعبون لايذكرون حسابا ولا جزاء . وقد مضى فى « براءة »(١) .

قوله تعـالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ « يَوْمَ » بدل من يومئذ . و « يُدَعُّونَ » معناه يدفعون الى جهنم بشـدّة وعنف ، يقال : دَعَعْتُه أدعُّه دعًّا أى دفعته ، ومنه قوله تعالى : « فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ »(٢) . وفى التفسـير : إن خزنة جهنم يَغُلُّون أيديهـم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعونهـم فى النـار دفعًا على وجوههم ، وزَخًّا فى أعناقهم حتى يرِدوا النار . وقرأ أبو رجاء العطاردى وٱبن السَّمَيْقَع « يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا » بالتخفيف من الدعاء فإذا دنوا من النار قالت لهم الخزنة : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فى الدنيا .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا ﴾ ٱستفهام معناه التوبيخ والتقريع ؛ أى يقال لهم : «أَفَسِحْرٌ هَذَا » الذى ترون الآن باعينكم ﴿ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ . وقيل: « أَمْ » بمعنى بل ؛ أى بل كنتم لاتبصرون فى الدنيا ولاتعقلون .

قوله تعـالى : ﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾ أى تقول لهم الخزنة ذوقوا حرّها بالدخول فيها . ﴿ فَٱصْبِرُوا أَوْلَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى سواء كان لكم فيها صبر أولم يكن فـ « سواء » خبره محذوف ، أى سـواء عليكم الجزع والصبر فلا ينفعكم شيء ، كما أخبر عنهم أنهم يقولون : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا »(٣) . ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠١ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢١١

(٣) راجع جـ ٩ ص ٣٥٥

قوله تعــالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ لمــا ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين أيضًا ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ أى ذوى فاكهة كثيرة ؛ يقال : رجل فاكه أى ذو فاكهة ، كما يقال : لابِنٌ وتامِرٌ ؛ أى ذو لبن وتمر ؛ قال[1] :

وغَرَرْتَنِي وزعمتَ أنـ * ـكَ لابِنٌ بالصَّيْفِ تامِرْ

أى ذو لبن وتمــر . وقرأ الحسن وغيره : « فَكِهِينَ » بغير ألف ومعناه معجبين ناعمين فى قول آبن عباس وغيره ؛ يقــال : فَكِه الرجلُ بالكسر فهــو فكِهٌ إذا كان طيّب النفس مزاحا . والفكه أيضًا الأشر البطر . وقد مضى فى «الدخان»[2] القول فى هذا . ﴿ بِمَـا آتَاهُمْ ﴾ أى أعطاهم ﴿ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ . ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ أى يقال لهم ذلك. ﴿ هَنِيئًا ﴾ الهنىء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى ليهنئكم ما صرتم إليه «هَنِيئًا» . وقيل : أى مُتِّعتم بنعيم الجنة إمتاعًا هنيئًا . وقيل: أى كلوا وآشربوا هنئتم «هَنِيئًا» فهو صفة فى موضع المصدر . وقيل : « هَنِيئًا » أى حلالا . وقيل : لا أذى فيه ولا غائلة . وقيل : « هَنِيئًا » أى لا تموتون ؛ فإن ما لا يبقى أو لا يبقى الإنسان معه منغص غير هنىء.

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ ﴾ سُرُر جمع سرير وفى الكلام حذف تقديره : متكئين على نمــارق سرر . ﴿ مَصْفُوفَةٍ ﴾ قال آبن الأعرابى : أى موصولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفًّا . وفى الأخبار أنها تصفّ فى السماء بطــول كذا وكذا ؛ فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له ، فإذا جلس عليها عادت إلى حالها . قال آبن عباس : هى سرر من ذهب مكلّلة بالزبرجد والدر والياقوت ، والسرير مابين مكة وأيلة . ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أى قرنّاهم بهنّ . قال يونس بن حبيب : تقول العرب زوجته آمرأة وتزوّجت آمرأة ؛ وليس من كلام العرب تزوّجت بامرأة . قال : وقول الله عز وجل : « وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » أى قرنّاهم بهنّ ؛ من قول الله تعــالى : « آحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُــوا وَأَزْوَاجَهُمْ »[3] أى وقرناءهم . وقال الفرّاء : تزوّجت بامرأة لغة فى أزد شنوءة . وقد مضى القول فى معنى الحور العين[4] .

---

(١) هو الحطيئة .
(٢) راجع جـ ١٦ ص ١٣٩
(٣) راجع جـ ١٥ ص ١٠٢
(٤) راجع جـ ١٦ ص ١٥٢

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ ﴾ قرأ العامة «وَاتَّبَعَتْهُمْ» بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء. وقرأ أبو عمرو « وَأَتْبَعْنَاهُمْ » بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون؛ آعتبارا بقوله : « أَلْحَقْنَا بِهِمْ » ؛ ليكون الكلام على نسق واحد . فأما قوله : « ذُرِّيَّتُهُمْ » الأولى فقرأها بالجمع آبن عامر وأبو عمرو ويعقوب ورواها عن نافع إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول وضم باقيهم. وقرأ الباقون «ذُرِّيَّتُهُمْ» على التوحيد وضم التاء وهو المشهور عن نافع . فأما الثانية فقرأها نافع وآبن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع . الباقون « ذُرِّيَّتَهُمْ » على التوحيد وفتح التاء . وآختلف في معناه ؛ فقيل عن آبن عباس أربع روايات : الأولى أنه قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقرّبهم عينه، وتلا هذه الآية . ورواه مرفوعاً النحاس في «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد بن جبير عن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقرّبهم عينه" ثم قرأ « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ بِإِيمَانٍ » الآية . قال أبو جعفر : فصار الحديث مرفوعاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وكذا يجب أن يكون ؛ لأن آبن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه . الزمخشري : فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وبآجتماع أولادهم ونسلهم بهم .

وعن آبن عباس أيضا أنه قال: إن الله ليلحق بالمؤمن ذريته الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان؛ قاله المهدوى . والذرية تقع على الصغار والكبار، فإن جعلت الذرية ها هنا للصغار كان قوله تعالى: « بِإِيمَانٍ » في موضع الحال من المفعولين، وكان التقدير « بِإِيمَانٍ » من الآباء. وإن جعلت الذرية للكبار كان قوله : « بِإِيمَانٍ » حالا من الفاعلين . القول الثالث عن آبن عباس: أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار والذرية التابعون . وفي رواية عنه : إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة رفع الله الآباء إلى الأبناء، فالآباء داخلون في آسم الذرية، كقوله تعالى: « وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ » . وعن آبن عباس أيضا يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهم إنهم لم يدركوا ما أدركت فيقول يا رب إني عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به"[1] . وقالت خديجة رضي الله عنها : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ولدين لي ماتا في الجاهلية فقال لي : "هما في النار" فلما رأى الكراهية في وجهي قال : "لو رأيتِ مكانهما لأبغضتهما" قالت : يا رسول الله فولدي منك ؟ قال : "في الجنة" ثم قال : "إن المؤمنين وأولادهم في الجنة والمشركين وأولادهم في النار"[2] ثم قرأ « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ » الآية .

﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لقصر أعمارهم، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئا بإلحاق الذريات بهم . والهاء والميم راجعان إلى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا » . وقال آبن زيد : المعنى « وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ » ألحقنا بالذرية أبناءهم الصغار الذين لم يبلغوا العمل؛ فالهاء والميم على هذا القول للذرية . وقرأ آبن كثير « وَمَا أَلِتْنَاهُمْ » بكسر اللام . وفتح الباقون . وعن أبي هريرة « آلَتْنَاهُمْ » بالمد؛ قال آبن الأعرابي: أَلَتَه يألِته أَلْتًا، وآلته يُؤْلته إيلاتًا، ولاته يَلِيته لَيْتًا كلها إذا نقصه.

---

(١) هذا الحديث كان قبل قوله صلى الله عليه وسلم : « سألت ربي فأعطاني أولاد المشركين خدما لأهل الجنة » .

وفى الصحاح : ولاته عن وجهه يلوته ويليته أى حبسه عن وجهه وصرفه، وكذلك ألاته عن وجهه فعل وأفعل بمعنى، ويقال أيضا : ما ألاته من عمله شيئا أى ما نقصه مثل ألته وقد مضى بـ«مالحجرات»(١). ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ قيل : يرجع إلى أهل النار . قال ابن عباس : ارتهن أهل جهنم بأعمالهم وصار أهل الجنة إلى نعيمهم ؛ ولهذا قال : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ »(٢). وقيل : هو عام لكل إنسان مرتهن بعمله فلا ينقص أحد من ثواب عمله، فأما الزيادة على ثواب العمل فهى تفضل من الله . ويحتمل أن يكون هذا فى الذرية الذين لم يؤمنوا فلا يلحقون آباءهم المؤمنين بل يكونون مرتهنين بكفرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أى أكثرنا لهم من ذلك زيادة من الله، أمدهم بها غير الذى كان لهم .

قوله تعالى : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أى يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاته وخدمه فى الجنة . والكأس : إناء الخمر وكل إناء مملوء من شراب وغيره ؛ فإذا فرغ لم يسم كأسا . وشاهد التنازع والكأس فى اللغة قول الأخطل :

وشارب مُرْبِح بالكأس نادمني * لا بالحَصُور ولا فيها بسوّار(٣)
نازعته طيّب الراح الشَّمُول وقد * صاح الدجاج وحانت وقعة السارى

وقال امرؤ القيس :

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت * هصرت بغصن ذى شماريخ ميّال

وقد مضى هذا فى « والصافات »(٤). ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أى فى الكأس أى لا يجرى بينهم لغو

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٨ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٨٥

(٣) مربح : يخر لضيفانه الربع وهى الفصلان؛ ويروى : مرتج وهو الذى كأسه ملأى بالخمر فيسكر ولا يتغير عن أخلاقه الحميدة . والحصور الضيق البخيل مثل الحصير . والسوار هو المعربد الوثاب ، ويروى بستأر وهو الذى إذا شرب ترك بقية فى قعر الإناء . والدجاج هنا المراد به الديكة يريد وقت السحر ، يقال هذا دجاج فيريدون الديوك . وهذه دجاج فيريدون الأنثى . ووقعة السارى — ويروى وقفة السارى — من وقعت الإبل إذا بركت . والسارى هو السائر بالليل . وفى نسخ الأصل كلها : فى الكأس نازعنى . والتصحيح كما أثبتناه فى صدر الكتاب من ديوان الأخطل طبع اليسوعيين . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٧٧ ... ففيها الكلام على الكأس .

« وَلَا تَأْثِيمٌ » ولا مافيه إثم . والتأثيم تفعيل من الإثم ؛ أى تلك الكأس لاتجعلهم آثمين لأنه مباح لهم . وقيل : « لَا لَغْوٌ فِيهَا » أى فى الجنة . قال آبن عطاء : أىُّ لغوٍ يكون فى مجلس محلّه جنة عدن ، وسقاتهم الملائكة ، وشربهم على ذكر الله ، وريحانهم وتحيتهم من عند الله ، والقوم أضياف الله ! « وَلَا تَأْثِيمٌ » أى ولا كذب؛ قاله آبن عباس . الضحاك : يعنى لايكذب بعضهم بعضا . وقرأ آبن كثير وآبن محيصن وأبو عمرو : « لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ » بفتح آخره . الباقون بالرفع والتنوين . وقد مضى هذا فى « البقرة »[(١)] عند قوله تعالى : « وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾ أى بالفواكه والتُّحف والطعام والشراب ؛ ودليله : « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ »[(٢)] ، « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ »[(٣)] . ثم قيل : هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم ، فأقرّ الله تعالى بهم أعينهم . وقيل : إنهم من أخدمهم الله تعالى إياهم من أولاد غيرهم . وقيل : هم غلمان خلقوا فى الجنة . قال الكلبي : لايكبرون أبدا ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ فى الحسن والبياض ﴿ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ فى الصَّدَف ، والمكنون المصون . وقوله تعالى : « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ »[(٤)] . قيل : هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة . وليس فى الجنة نَصَب ولا حاجة إلى خدمة ، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم . وعن عائشة رضى الله عنها : أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدمه فيجيبه ألفٌ كلّهم لبّيك لبّيك " . وعن عبد الله بن عمر قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل غلام على عمل ليس عليه صاحبه " . وعن الحسن أنهم قالوا : يارسول الله إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف يكون المخدوم ؟ فقال : " ما بينهما كما بين القمر ليلة البدر وبين أصغر الكواكب" . قال الكسائى : كننت الشىء سترته وصنته من الشمس ، وأكننته فى نفسى أسررته . وقال أبو زيد : كننته وأكننته بمعنًى فى الكِنّ وفى النفس جميعاً ؛ تقول : كننت العلم وأكننته فهو مكنون ومُكَنّ . وكننت الجارية وأكننتها[(٥)] فهى مكنونة ومُكَنّة .

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٦٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ١١١ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٧٧
(٤) راجع ص ٢٠٢ من هذا الجزء . (٥) هذه الكلمة ساقطة من ل .

قوله تعالى : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : إذا بعثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضًا . وقيل : فى الجنة « يَتَسَاءَلُونَ » أى يتذاكرون ما كانوا فيه فى الدنيا من التعب والخوف من العاقبة ، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنهم . وقيل : يقول بعضهم لبعض بم صرت فى هذه المنزلة الرفيعة ؟ ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أى قال كل مسئول منهم لسائله : « إِنَّا كُنَّا قَبْلُ » أى فى الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله . ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالجنة والمغفرة . وقيل : بالتوفيق والهداية . ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ قال الحسن : « السَّمُوم » اسم من أسماء النار وطبقة من طِباق جهنم . وقيل : هو النار كما تقول جهنم . وقيل : نار عذاب السَّمُوم . والسَّمُوم الريح الحارة تؤنث ؛ يقال منه : سُمَّ يومُنَا فهو مسموم والجمع سَمَائم قال أبو عبيدة : السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار ؛ وقد تستعمل السَّمُوم فى لفح البرد [(١) وهو فى لفح الحرّ] والشمس أكثر ؛ قال الراجز :

اليوم يومٌ باردٌ سَمُومُهُ * مَنْ جَزِع اليومَ فلا أَلُومُهْ

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أى فى الدنيا بأن يمنّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا . وقيل : « نَدْعُوهُ » أى نعبده . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ وقرأ نافع والكسائى «أَنَّه» بفتح الهمزة؛ أى لأنه . الباقون بالكسر على الابتداء . و «الْبَرُّ» اللطيف ؛ قاله ابن عباس(٢) . وعنه أيضا : أنه الصادق فيما وعد . وقاله ابن جريج .

(١) الزيادة من ن . (٢) تفسير البر بالمحسن أولى كما فى روح المعانى وغيره من التفسير .

قوله تعالى : فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أى فذكر يامحمد قومك بالقرآن . ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ يعنى برسالة ربك ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ تبتدع القول وتخبر بمـا فى غد من غير وَحْى . ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ وهـذا ردّ لقولهم فى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فعقبة بن أبى مُعَيْط قال : إنه مجنون، وشيبة بن ربيعة قال : إنه ساحر، وغيرهما قال : كاهن ؛ فأكذبهم الله تعالى وردّ عليهم . ثم قيل : إن معنى «فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ» القسم ؛ أى وبنعمة الله ماأنت بكاهن ولا مجنـون . وقيل : ليس قسمًا ، و إنمـا هو كما تقول : ماأنت بحمد الله بجاهل؛ أى قد برأك الله من ذلك .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ أى بل يقولون محمد شاعر . قال سيبويه : خوطب العباد بمـا جرى فى كلامهم . قال أبو جعفر النحاس : وهذا كلام حسن إلا أنه غير مبيّن ولا مشروح؛ يريد سيبويه أن« أَمْ » فى كلام العرب لخروج من حديث إلى حديث؛ كما قال[(١)] :

* أَتَهْجُـر غَانيـــةً أَمْ تُلِمْ *

فتم الكلام ثم خرج إلى شيء آخر فقال :

* أَمِ الحَبْلُ وَاهٍ بها مُنْجَذِمْ *

فما جاء فى كتاب الله تعـالى من هذا فمعناه التقرير والتوبيخ والخروج من حديث إلى حديث ، والنحويون يمثلونها ببل . ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ قال قتادة : قال قوم من الكفار تربصوا

---

(١) هو الأعشى .

بمحمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بنى فلان . قال الضحاك : هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر؛ أى يهلك عن قريب كما هلك مَنْ قبلُ من الشعراء، وأن أباه مات شاباً فربما يمـوت كما مات أبوه . وقال الأخفش : نتربص به إلى ريب المنون فحذف حرف الجر، كما تقول : قصدت زيدًا وقصـدت إلى زيد . والمنون : الموت فى قول ابن عبـاس .

قال أبو الغَوْلِ الطُّهوِى :

هُمُ مَنَعُوا حِمَى الْوَقَبَى بِضَرْبٍ * يُؤَلِّف بين أَشْـتَاتِ الْمَنُـونِ (١)

أى المنايا؛ يقول : إن الضرب يجمع بين قوم متفرقى الأمكنة لو أتتهم مناياهم فى أماكنهم لأتتهم متفرقة ، فاجتمعوا فى موضع واحد فأتتهم المنايا مجتمعة . وقال السـدّى عن أبى مالك عن ابن عباس : «رَيْبَ» فى القرآن شكٌّ إلا مكاناً واحدا فى الطور «رَيْبَ الْمَنُونِ» يعنى حوادث الأمور؛ وقال الشاعر (٢) :

تَرَبَّصْ بها رَيْبَ الْمَنُونِ لَعَلَّها * تُطَلَّقُ يوماً أو يموتُ حَلِيلُها

وقال مجاهد : « رَيْبَ الْمَنُونِ » حوادث الدهر ، والمنون هـو الدهر ؛ قال أبو ذُؤَيْب :

أَمِنَ الْمَنُونِ ورَيْبِـه تَتَوجَّـعُ * والدَّهْرُ لَيس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

وقال الأعشى .

أَأَنْ رَأَتْ رجلًا أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ * رَيْبَ المنونِ ودَهرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ (٣)

قال الأصمعى : المنون الليل والنهار ؛ وسميا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار و يقطعان الآجال . وعنه : أنه قيل للدهر منون، لأنه يذهب بمُنَّة الحيوان أى قوته وكذلك المنِيَّة . أبو عبيدة: قيل للدهر منون؛ لأنه مُضْعِف، من قولهم حَبْلٌ منِين أى ضعيف، والمنين الغبار الضعيف. قال الفراء : والمنون مؤنثة وتكون واحدًا و جمعًا . الأصمعى : المنون واحد لا جماعة له .

(١) هو من بنى نهشل واسمه علباء بن جوشن . والوقبى بكجمزى ماء لبنى مالك بن مازن مشهور بوقائع عديدة وهو على طريق المدينة من البصرة .

(٢) الذى فى نسخ الأصل : قال ابن عباس وليس بشىء ، وفى سائر كتب التفسير قال الشاعر كما أثبتناه .

(٣) يروى : ودهر مفند . وهى الرواية المشهورة . متبل مسقم أو يذهب بالأهل والولد . وخبل ككتف ملتو على أهله لا يرون فيه سررا .

الأخفش : هو جماعة لا واحد له ، والمنون يذكر و يؤنث ؛ فمن ذكّره جعله الدهر أو الموت ، ومن أنّثه فعلى الحمل على المعنى كأنه أراد المنية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا ﴾ أى قل لهم يا محمد تربصوا أى آنتظروا . ﴿ فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أى من المنتظرين بكم العذاب ؛ فعُذِّبوا يوم بدر بالسيف .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ ﴾ أى عقولهم ﴿ بِهَـٰذَا ﴾ أى بالكذب عليك . ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أى أم طَغَوْا بغير عقول . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل؛ أى بل كفروا طغيانًا وإن ظهر لهم الحق . وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل ؟ فقال : تلك عقول كادها الله؛ أى لم يصحبها بالتوفيق . وقيل : « أَحْلَامُهُمْ » أى أذهانهم؛ لأن العقل لا يُعطَى للكافر ولو كان له عقل لآمن . وإنما يعطى الكافر الذهن فصار عليه حجة . والذِّهن يقبل العلم جملةً ، والعقل يميّز العلم و يقدر المقادير لحدود الأمر والنهى . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما أعقل فلانًا النصرانى! فقال : " مَهْ إنّ الكافر لاعقل له أما سمعت قول الله تعالى : «وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ» ". وفى حديث آبن عمر : فزجره النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم قال : "مَهْ فإن العاقل من يعمل بطاعة الله" ذكره الترمذى الحكيم أبو عبد الله بإسناده .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أى آفتعله وآفتراه ، يعنى القرآن . والتقوّل تكلّف القول ، وإنما يستعمل فى الكذب فى غالب الأمر . ويقال قوّلتنى مالم أقل ! وأقولتنى مالم أقل؛ أى آدّعيته علىّ . وتَقَوَّل عليه أى كذب عليه . وآقتال عليه تحكّم قال :(١)

ومَنْزِلةٌ فى دارِ صِدْقٍ وغِبْطَةٍ　*　وما آقْتالَ مِن حُكْمٍ علىَّ طَبِيبُ

فأم الأولى للإنكار والثانية للإيجاب أى ليس كما يقولون . ﴿ بَل لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ جحدا وآستكبارًا . ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ أى بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ فى أن محمدا آفتراه . وقرأ الجحدرى « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ » بالإضافة . والهاء فى « مثله » للنبيّ صلى الله

---

(١) هو كعب بن سعد الغنوى .

عليه وسلم ، وأضيف الحديث الذى يراد به القرآن إليه لأنه المبعوث به . والهاء على قراءة الجماعة للقرآن .

قوله تعالى : أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ « أَمْ » صلة زائدة والتقدير أخلقوا من غير شيء . قال ابن عباس (١) : من غير ربّ خلقهم وقدّرهم . وقيل : من غير أمّ ولا أب ؛ فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم لله عليهم حجة؛ ليسوا كذلك ! أليس قد خُلِقوا من نطفة وعلقة ومضغة؟ قاله ابن عطاء . وقال ابن كيسان : أم خُلِقوا عبثًا وتُرِكوا سُدًى «مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ» أى لغير شىء فـ « من » بمعنى اللام. ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أى أيقولون إنهم خَلَقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله وهم لا يقولون ذلك ، وإذا أقروا أن ثَمّ خالقًا غيرهم فما الذى يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام، ومن الإقرار بأنه قادر على البعث. ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى ليس الأمر كذلك فإنهم لم يخلقوا شيئا ﴿ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ بالحق ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله و يُعرِضوا عن أمره . وقال ابن عباس : خزائن ربك المطر والرزق . وقيل : مفاتيح الرحمة . وقال عكرمة : النبوة . أى أفبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة يضعونها حيث شاءوا . وضرب المثل بالخزائن ؛ لأن الخزانة بيت

(١) فى ل : « قال ابن الكميت » .

يهيأ لجمع أنواع مختلفـة من الذخائر ، ومقدورات الربّ كالخزائن التى فيها من كل الأجناس فلا نهاية لها . ﴿ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴾ قال آبن عباس : المسلّطون الجبّارون . وعنه أيضًا : المبطلون . وقاله الضحاك . وعن آبن عباس أيضا : أم هم المتولّون . عطاء : أم هم أرباب قاهرون . قال عطاء : يقال تسيطرت عليّ أى آتخذتنى خَوَلًا لك . وقاله أبو عبيـدة . وفى الصحاح : المسيطر والمصيطر المسلّط على الشيء ليُشرِف عليـه و يتعهدَ أحوالَه و يكتب عمله ، وأصله من السَّطر؛ لأن الكتّاب يُسَطِّر والذى يفعله مُسَطِّر ومُسَيْطِر . يقال سَيْطرتَ علينا . آبن بحر : « أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ » أى هم الحفظة ؛ مأخوذ من تسطير الكتّاب الذى يحفظ ما كتب فيه؛ فصار المسيطر ها هنا حافظا ما كتبه الله فى اللوح المحفوظ . وفيه ثلاث لغـات : الصاد وبهـا قرأت العامة ، والسين وهى قراءة آبن مُحيصن وحُميد ومجاهد وقُنْبُل وهشام وأبى حَيْوة ، وبإشمام الصاد الزاى وهى قراءة حمزة كما تقدّم فى « الصِّراط »(١) .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُـلَّمٌ ﴾ أى أيدّعون أن لهم مُرتقًى إلى السماء ومصعدًا وسببًا ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أى عليه الأخبارَ ويَصِلون به إلى علم الغيب ، كما يصل إليه محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى . ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة بيّنة أن هذا الذى هم عليه حقّ . والسُّلم واحد السلالم التى يرتقى عليها . وربما سمى الغرز بذلك؛ قال أبو الرُّبَيْس الثعلبي يصف ناقته :

مُطَارَةُ قَلْبٍ إن ثَنَى الرِّجْلَ ربُّها * بِسُـلَّمِ غَرْزٍ فى مُنَاخٍ يُعاجِـلُه

وقال زهـــير :

ومَنْ هابَ أســبابَ المنيَّـةِ يَلْقَها(٢) * ولَـوْ رَامَ أســبابَ السَّماءِ بِسُـلَّمِ

وقال آخـــر :

تَجنَّيتِ لى ذنبًا وما إنْ جَنَيْتُه * لِتتَّخِذى عُذْرًا إلى الهَجْـرِ سُلَّمـا

(١) راجع جـ ١ ص ١٤٧   (٢) ويروى :

* ومن هاب أسباب المنايا ينلنه *

وهى الرواية المشهورة .

وقال ٱبن مُقبل فى الجمع :

لا تُحْـرِزُ المـرءَ أَحْجاءُ البِلاَدِ وَلَا * يُبْنَى له فى السَّموَاتِ السَّلَالِيمُ

الأحجاء النواحى مثل الأرجاء واحدها حَجًا ورَجًا مقصور . ويروى : أَعْناء البلاد ، والأعْناء أيضًا الجوانب والنواحى واحدها عِنْو بالكسر . وقال ٱبن الأعرابى : واحدها عَنًا مقصور . وجاءنا أعناء من الناس واحدهم عِنْو بالكسر، وهم قوم من قبائل شتّى . « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أى عليه؛ كقوله تعالى : « فِي جُذُوعِ النَّخْلِ »(١) أى عليها؛ قاله الأخفش . وقال أبو عبيدة: يستمعون به . وقال الزجاج : أى ألهم بجبريل الذى يأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم بالوحى .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ سَـفَّه أحلامهم توبيخًا لهم وتقـريعًا . أى أتضيفون إلى الله البنات مع أَنفتكم منهن ، ومن كان عقله هكذا فلا يُسـتبعد منه إنكار البعث . ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أى على تبليغ الرسالة . ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ أى فهم من المغرم الذى تطلبهم به «مُثْقَلُونَ» مجهدون لمـا كلفتهم به . ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب . وقيل : أى أم عندهم علم ماغاب عن الناس حتى علموا أن ما أخبرهم به الرسول من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل. وقال قتادة : لمـا قالوا نتربص به ريب المنون قال الله تعالى: « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ » حتى علموا متى يموت محمد أو إلى ما يئول إليــه أمره . وقال ٱبن عباس : أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه . وقال القتبى : يكتبون يحكمون والكتَاب الحكم ؛ ومنه قوله تعالى : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَـةَ »(٢) أى حكم، وقوله عليه الصلاة والسلام : ” والذى نفسى بيده لأحكمن بينكم بكتاب الله “ أى بحكم الله .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أى مكرًا بك فى دار النّـدوة . ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أى الممكور بهم « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »(٣) وذلك أنهم قتلوا ببدر. ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يخلق ويرزق ويمنع . ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ نزّه نفسه أن يكون له شريك . قال الخليل : كل ما فى سورة «والطور» من ذِكر «أَمْ» فكلمة ٱستفهام وليس بعطف .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٢٤ (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٣٥ (٣) راجع جـ ١٤ ص ٣٥٨

قوله تعالى : وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ قال ذلك جوابا لقولهم : « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ »(١)، وقولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا »(٢) فأعلم أنه لو فعل ذلك لقالوا : ﴿ سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ أى بعضه فوق بعض سقط علينا وليس سماء؛ وهذا فعل المعاند أو فعل من آستولى عليه التقليد، وكان فى المشركين القسمان . والكِسَف جمع كِسْفة وهى القطعة من الشيء؛ يقال : أعطنى كِسْفة من ثوبك، ويقال فى جمعها أيضاً : كِسْف . ويقال: الكِسْف والكِسْفة واحد . وقال الأخفش : من قرأ كِسْفًا جعله واحدًا، ومن قرأ « كِسَفا » جعله جمعا . وقد تقدم القول فى هذا فى « سبحان »(٢) وغيرها والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ منسوخ بآية السيف . ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يَصْعَقُونَ ﴾ بفتح الياء قراءة العامة، وقرأ آبن عامر وعاصم بضمها . قال الفراء : هما لغتان صَعِق وصُعِق مثل سَعِد وسُعِد . قال قتادة : يوم يموتون . وقيل : هو يوم بدر . وقيل : يوم النفخة الأولى(٣) . وقيل : يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم . وقيل : « يُصْعَقُون » بضم الياء من أصعقه الله .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أى ما كادوا به النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الدنيا . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ من الله . و « يَوْمَ » منصوب على البدل من « يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ » .

قوله تعالى : وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٣٦ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣ (٣) فى ن : «وقال غيره عند النفخة الأولى» .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى كفروا ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ قيل : قبل موتهم . آبن زيد : مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد . مجاهد : هو الجوع والجَهْد سبع سنين . آبن عباس : هو القتل . وعنه : عذاب القبر . وقاله البَرَاء بن عازِب وعلىّ رضى الله عنهم . فـ « دُونَ » بمعنى غير . وقيل : عذاباً أخفّ من عذاب الآخرة . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [أن العذاب نازل بهم] (١) وقيل : « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ما يصيرون إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

فيــه مسألتان :

الأولى ــ « وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » قيل : لقضاء ربك فيما حمّلك من رسالته . وقيل: لبلائه فيما آبتلاك به من قومك؛ ثم نسخ بآية السيف .

الثانيــة ــ قوله تعالى : « فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى ومنظر منّا نرى ونسمع ما تقول وتفعل . وقيــل : بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك . والمعنى واحد . ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام : « وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي » أى بحفظى وحراستى وقد تقدّم (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾

فيــه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » آختلف فى تأويل قوله : « حِينَ تَقُومُ » فقال عون بن مالك وآبن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثورى وأبو الأحوص: يسبح الله حين يقوم من مجلسه؛ فيقول: سبحان الله وبحمده، أو سبحانك اللهم وبحمدك؛ فإن كان المجلس خيراً آزددت ثناءً حسناً، وإن كان غير ذلك كان كفارةً له؛ ودليل هذا التأويل ما خرّجه الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غُفر له ما كان فى مجلسه ذلك" قال: حديث

---

(١) الزيادة من ز ، ل ، ن ، هـ . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٩٦ .

حسن صحيح غريب . وفيه عن ابن عمر قال : كنا نعدّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم : " رب اغفر لى وتب على إنك أنت التوّاب الغفــور " قال حديث حسن صحيح غريب . وقال محمــد بن كعب والضحاك والربيــع : المعنى حين تقوم إلى الصلاة . قال الضحاك يقول : الله أكبر كبيرًا ، والحمــد لله كثيرًا ، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا . قال الكِيا الطبرى : وهذا فيه بُعــد؛ فإن قوله : « حِينَ تَقُومُ » لا يدل على التسبيح بعد التكبير ، فإن التكبير هو الذى يكون بعد القيــام ، والتسبيح يكون وراء ذلك ، فدلّ على أن المراد فيــه حين تقوم من كل مكان كما قال ابن مسعود رضى الله عنــه . وقال أبو الجوزاء وحسان بن عطية : المعنى حين تقوم من منامك . قال حسان : ليكون مفتتحًا لعمله بذكر الله . وقال الكلبي : واذكر الله باللسان حين تقــوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهى صلاة الفجر . وفى هذا روايات مختلفات صحاح ؛ منها حديث عُبادة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من تَعارَّ فى الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم اغفرلى أو دعا استجيب له فإن توضأ وصــلّى قبلت صلاته " خرّجه البخارى . تعارّ الرجل من الليل: إذا هبّ من نومه مع صوت؛ ومنه عَارَّ الظَّلِيمُ يعارُّ عِرارًا وهو صوته؛ وبعضهم يقول : عَرَّ الظَّلِيمُ يَعِــرُّ عِرَارًا ، كما قالوا زَمَرَ النَّعامُ يَزْمِرُ زِمَارًا. وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : " اللهــم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت قَيُّوم السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمــد أنت ربّ السموات والأرض ومن فيهنّ أنت الحقّ ووعدك الحــقّ وقولك الحقّ ولقاؤك الحقّ والجنــة حقّ والنار حقّ والساعة حقّ والنبيون حقّ ومحمد حقّ اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليــك حاكمت فاغفر لى ما قدّمت وما أخرت وأسررت وأعلنت أنت المقدّم وأنت المــؤخّر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك " متفق عليه . وعن ابن عباس أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليــل مسح النوم عن وجهه ؛ ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة « آل عمران »[1] .

(١) من قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض ... » آية ١٩٠ .

وقال زيد بن أسلم : المعنى حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر . قال ابن العربي : أما نوم القائلة فليس فيه أثر وهو ملحق بنوم الليل . وقال الضحاك : إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها . الماوردي : وفي هذا التسبيح قولان : أحدهما وهو قوله سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود . الثاني أنه التوجه في الصلاة يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرك . قال ابن العربي : من قال إنه التسبيح للصلاة فهذا أفضله ، والآثار في ذلك كثيرة أعظمها ما ثبت عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : "وجّهت وجهيَ" الحديث . وقد ذكرناه وغيره في آخر سورة «الأنعام»[(1)] . وفي البخاري عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله علّمني دعاء أدعو به في صلاتي ؛ فقال : "قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم" .

الثانيــة ـــ قوله تعالى : «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ» تقدّم في «قٓ»[(2)] مستوفًى عند قوله تعالى : «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ» . وأما «إِدْبَارَ النُّجُومِ» فقال عليّ وابن عباس وجابر وأنس : يعني ركعتي الفجر . فحمل بعض العلماء الآية على هذا القول على الندب وجعلها منسوخة بالصلوات الخمس . وعن الضحاك وابن زيد : أن قوله : «وَإِدْبَارَ النُّجُومِ» يريد به صلاة الصبح وهو اختيار الطبريّ . وعن ابن عباس : أنه التسبيح في آخر الصلوات . وبكسر الهمزة في «إِدْبَارَ النُّجُومِ» قرأ السبعة على المصدر حسب ما بيناه في «قٓ» . وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السَّمَيْقَع «وَأَدْبَارَ» بالفتح ، ومثله روي عن يعقوب وسلام وأيوب ؛ وهو جمع دُبْر ودُبُر . ودُبْر الأمر ودُبُره آخره . وروى الترمذي من حديث محمد بن فضيل ، عن رِشْدِين بن كريب عن أبيه عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب"

---

(1) راجع جـ ٧ ص ١٥٣ (2) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء .

قال : حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه من حديث محمد بن فضيل عن رِشدِين بن كريب . وسألت محمد بن إسمعيل عن محمد بن فضيل ورِشدِين بن كريب أيهما أوثق ؟ فقال : ما أقربهما ، ومحمد عندى أرجح . قال : وسألت عبد الله بن عبد الرحمن عن هذا فقال : ما أقربهما ، ورِشدِين بن كريب أرجحهما عندى . قال الترمذى : والقول ما قال أبو محمد ورِشدين بن كريب عندى أرجح من محمد وأقدم ، وقد أدرك رِشدِين ٱبن عباس ورآه . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشدّ معاهدة منه على ركعتين[1] قبل الصبح . وعنها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها" . تم تفسير سورة « والطور » والحمد لله .

سورة « والنَّجْم »

مكّيّة ، وهى إحدى وستون آية

مكّية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ٱبن عباس وقتادة : إلا آية منها وهى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ » الآية . وقيل : ٱثنتان وستون آية . وقيل : إن السورة كلها مدنية . والصحيح أنها مكية لما روى ٱبن مسعود أنه قال : هى أوّل سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة . وفى « البخارى » عن ٱبن عباس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سجد بالنّجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس . وعن عبد الله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم فسجد لها ، فما بقى أحد من القوم إلا سجد ؛ فأخذ رجل من القوم كفًّا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال : يكفينى هذا . قال عبد الله : فلقد رأيته بعدُ[2] قُتِل كافرًا ، متفق عليه . الرجل يقال له أمية بن خلف . وفى الصحيحين عن زيد بن ثابت [رضى الله عنه[3]] أنه قرأ على النبيّ صلى الله عليه وسلم سورة « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » فلم يسجد . وقد مضى فى آخر « الأعراف[4] » القول فى هذا والحمد لله .

---

(١) فى ن : «أشد معاهدة منه على ركعتى الفجر قبل الصبح» . (٢) فى ل : « هو » .
(٣) الزيادة : من ز ، ل . (٤) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : معنى « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ » والثُّرَيَّا إذا سقطت مع الفجر ؛ والعرب تسمى الثُّرَيَّا نجما و إن كانت فى العدد نجومًا ؛ يقال: إنها سبعة أنجم ، ستة منها ظاهرة وواحد خفيّ(1) يَمتحِن الناس به أبصارهم . وفى « الشِّفا » للقاضى عياض : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يرى فى الثُّرَيا أحد عشر نجمًا . وعن مجاهد أيضا أن المعنى والقرآن إذا نزل ؛ لأنه كان ينزل نجومًا . وقاله الفرّاء . وعنه أيضا : يعنى نجوم السماء كلها حين تغرب . وهو قول الحسن قال : أقسم الله بالنجوم إذا غابت . وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جمْع ؛ كقول الراعى :

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فى مُسْتَحِيرةٍ * سَرِيعٍ بِأيدى الآكِلِين جُمُودُها

وقال عمر بن أبى ربيعة :

أَحْسَنُ النَّجْمِ فى السماءِ الثُّرَيَّا * وَالثُّرَيَّا فى الأرض زَيْنُ النِّساءِ

وقال الحسن أيضًا : المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة . وقال السدّى : إن النجم ههنا الزُّهَرة لأن قومًا من العرب كانوا يعبدونها . وقيل : المراد به النجوم التى ترجم بها الشياطين ؛ وسببه أن الله تعالى لما أراد بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولًا كثر انقضاض الكواكب قبل مولده ، فذُعر أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريرًا ، كان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال : انظروا البروج الاثنى عشر فإن انقضّ

(1) فى ز ، ل : « وواحد منها » بزيادة كلمة : « منها » .

منها شيء فهو ذهاب الدنيا ، فإن لم ينقضّ منها شيء فسيحدث فى الدنيا أمر عظيم ، فاستشعروا ذلك ؛ فلما بُعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كان هو الأمر العظيم الذى آستشعروه ، فأنزل الله تعالى : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » أى ذلك النجم الذى هوى هو لهذه النبوّة التى حدثت . وقيل : النجم هنا هو النبت الذى ليس له ساق ، وهَوَى أى سقط على الأرض . وقال جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم : «وَالنَّجْمِ» يعنى محمدًا صلى الله عليه وسلم « إِذَا هَوَى » إذا نزل من السماء ليلة المعراج . وعن عروة بن الزبير رضى الله عنهما أن عُتْبة ابن أبى لهب وكان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتينّ محمدًا فلأوذينّه ، فأتاه فقال : يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى ، و بالذى دنا فتدلى . ثم تفل فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردّ عليه آبنته وطلّقها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللّهم سَلِّط عليه كلبًا من كلابك " وكان أبو طالب حاضرًا فوجم لها وقال : ما كان أغناك يابن أخى عن هذه الدعوة ، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام ، فنزلوا منزلاً ، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه أرض مسبعة . فقال أبو لهب لأصحابه : أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة ! فإنى أخاف على آبنى من دعوة محمد ؛ فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يتشمّم وجوههم حتى ضرب عُتْبة فقتله . وقال حسان :

مَنْ يَرْجِعِ العامَ إلى أَهْلِهِ * فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بالرَّاجِعِ[(١)]

وأصل النَّجْم الطلوع ؛ يقال : نَجَم السنُّ ونَجَم فلانٌ ببلاد كذا أى خرج على السلطان . والهُوِىّ النزول والسقوط ؛ يقال : هَوَى يَهْوِى هُوِيًا مثل مَضَى يَمْضِى مُضِيًا ؛ قال زهير :

فَشَجَّ بِهَا الأماعِزَ[(٢)] وهْى تَهْوِى * هُوِىَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ

---

(١) فى : ا « من يرجع الآن » .

(٢) شج : علا . والبيت فى وصف عير وأتنه ؛ أى لما وجد العير أن صنيبعات قد آنقطع ماؤها آنتقل عنها إلى غيرها بجمل يعلو بالأتن الأماعز وهى حزون الأرض الكثيرة الحصى .

وقال آخر[١] :

بَيْنَمَا نَحْنُ بالبَلاكِثِ فالقَا * عِ سِرَاعًا والعِيسُ تَهْوِى هُوِيًّا
خَطَرتْ خَطْرةٌ على القلبِ من ذِكْ * رَاكِ وَهْنًا فما ٱستطعْتُ مُضِيًّا

الأصمعى : هَوَى بالفتح يَهْوِى هُوِيًّا أى سقط إلى أسفل . قال : وكذلك ٱنهوى فى السير إذا مضى فيه ، وهَوَى وٱنْهَوَى فيه لغتان بمعنًى ، وقد جمعهما الشاعر فى قوله :

وكَمْ مَنْزِلٍ لولاىَ طِحْتَ كما هَوَى * بأَجرامِـهِ مِنْ قُلَّةِ النِّيقِ مُنْهَوِى[٢]

ويقال فى الحُبّ : هَوِىَ بالكسر يَهْوَى هَوًى ؛ أى أحبّ .

قوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ هذا جواب القسم ؛ أى ما ضلّ محمد صلى الله عليه وسلم عن الحق وما حاد عنه . ﴿ وَمَا غَوَى ﴾ الغىّ ضد الرشد أى ما صار غاويًا . وقيل : أى ما تكلم بالباطل . وقيل : أى ما خاب مما طلب والغىّ الخيبة ؛ قال الشاعر[٣] :

فمن يَلْقَ خيرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ * ومَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَىِّ لائمَا

أى مَن خاب فى طلبه لامه الناس . ثم يجوز أن يكون هذا إخبارًا عما بعد الوحى . ويجوز أن يكون إخبارًا عن أحواله على التعميم ؛ أى كان أبدًا موحدًا لله . وهو الصحيح على ما بيناه فى « الشورى »[٤] عند قوله : « مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى » قال قتادة : وما ينطق بالقرآن عن هواه « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى » إليه . وقيل : « عَنِ الْهَوَى » أى بالهوى ؛ قاله أبو عبيدة ؛

---

(١) قائله أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة كان متوجها إلى الشام فلما كان بالبلاكث — بالمثلثة — تذكر زوجته وكان شغوفا بها فكر راجعا فقال الأبيات ؛ وبعد البيتين :

قلت لبيك إذ دعانى لك الشو * ق وللحاديين حثا المطيا

(٢) قائله يزيد بن الحكم الثقفى . وقلة كل شىء : أعلاه . والنيق ـ بكسر النون ـ : أرفع موضع فى الجبل . وقيل : الطويل منه .

(٣) قائله المرقش .

(٤) راجع جـ ١٦ ص ٥٥

كقوله تعـالى : « فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا »[1] أى فاسأل عنه . النحاس : قول قتادة أولى، وتكون « عن » على بابها، أى مايخرج نطقه عن رأيه ، إنما هو بوحى من الله عز وجل ؛ لأن بعده : « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » .

الثانيـــة — قد يحتج بهذه الآية من لا يجوّز لرسول الله صلى الله عليه وسـلم الاجتهاد فى الحوادث . وفيها أيضًا دلالة على أن السُّنة كالوحى المنزل فى العمل . وقد تقدّم فى مقدّمة الكتاب حديث المقدام بن معـدى كرِب[2] فى ذلك والحمـد لله . قال السجستانى : إن شئت أبدلت « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » مِن « مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ » قال ابن الأنبارى : وهذا غلط ؛ لأن « إِنْ » الخفيفة لاتكون مبدلة من « ما » الدليل على هذا أنك لا تقول : والله ماقمت إن أنا لقاعد .

قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ يعنى جبريل عليه السلام فى قول سائر المفسرين؛ سوى الحسن فإنه قال : هو الله عز وجل، و يكون قوله تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ على قول الحسن تمـام الكلام ، ومعناه ذو قوّة والقوّة من صفات الله تعالى ؛ وأصله من شدّة فتل الحبل ، كأنه استمر به الفتل حتى بلغ إلى غاية يصعب معها الحل . ثم قال : ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ يعنى الله عز وجل؛ أى استوى على العرش . روى معناه عن الحسن . وقال الربيع بن أنس والفراء : ﴿ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ أى استوى جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام . وهـذا على العطف على المضمر المرفوع بـ « هو » . وأكثر العرب إذا أرادوا العطف فى مثل هذا الموضع أظهروا كناية المعطوف عليه؛ فيقولون : استوى هو وفلان؛ وقلما يقولون استوى وفلان ؛ وأنشد الفرّاء :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عُـودُهُ　*　ولا يَسْتوِى والخِرْوَعُ المتقصِّفُ[3]

أى لا يستوى هو والخروع؛ ونظير هذا : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا »[1] والمعنى أئذا كنا ترابا نحن وآباؤنا . ومعنى الآية : استوى جبريل هو ومحمد عليهما السلام ليلة الإسراء بالأفق الأعلى .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٦٣ وص ٢٢٨　　(٢) راجع جـ ١ ص ٣٧
(٣) النبع : شجر فى الجبال تؤخذ منه القسى . والخروع معروف . والمتقصف : المتكسر .

وأجاز العطف على الضمير لئلا يتكرر . وأنكر ذلك الزجاج إلا فى ضرورة الشعر . وقيل : المعنى فآستوى جبريل بالأفق الأعلى، وهو أجود. و إذا كان المستوى جبريل فمعنى «ذُومِرَّةٍ» فى وصفه ذو منطق حسن؛ قاله آبن عباس. وقال قتادة : ذو خَلْق طويل حسن. وقيل: معناه ذو صحة جسم وسلامة من الآفات؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لِذِى مِرَّةٍ سَوِيٍّ [1] ". وقال امرؤ القيس :

كنتُ فيهم أبدًا ذاحِيلَةٍ * مُحْكَمَ المِـرَّةِ مأمُونَ العُقَد

وقد قيل : « ذُو مِرَّةٍ » ذو قوة. قال الكلبي : وكان من شدّة جبريل عليه السلام : أنه آقتلع مدائن قوم لوط من الأرض السُّفْلَى [2] ، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء ، حتى سمع أهل السماء نبح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها. وكان من شدّته أيضًا : أنه أبصر إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدّسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه بأقصى جبل فى الهند. وكان من شدّته : صيحته بثمود فى عددهم وكثرتهم، فأصبحوا جاثمين خامدين. وكان من شدته : هبوطه من السماء على الأنبياء وصعوده إليها فى أسرع من الطرف . وقال قُطْرُب : تقول العرب لكل جَزْل الرأى حصيف العقل: ذُو مِرَّةٍ . قال الشاعر :

قد كنتُ قبلَ لِقاكُمُ ذا مِرَّةٍ * عنـدى لِكلّ مُخاصِمٍ مِيزانُهُ

وكان من جزالة رأيه وحصافة عقله : أن الله آئتمنه على وحيه إلى جميع رسله . قال الجوهرى : والمِرَّة إحدى الطبائع الأربع ، والمِرَّة القـوة وشدّة العقل أيضا . ورجل مرير أى قوىّ ذومِرةٍ . قال :

تَرى الرَّجُل النَّحِيفَ فتزدريه * وحَشْـوُ ثِيـابِه أسـدٌ مَرِيرٌ [3]

وقال لَقِيـــط :

حتى آستمرّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ * مُرُّ العزِيمةِ لا رَتًّا [4] ولا ضَرَعَا

---

(١) السوى : الصحيح الأعضاء . (٢) فى ح ، س : « من الماء الأسود » .

(٣) قائله العباس بن مرداس . وفى التاج : وفى أثوابه رجل مزير . بالزاى . ويروى : أسد مزير . والمزير كامير الشديد القلب القوى النافذ فى الأمور . (٤) كذا فى الأصول «لارتا» والرتة ردة قبيحة فى اللسان من العيب . والذى فى ديوان لقيط بآخر كتاب منتهى الطلب : «لاقحما» . والقحم : الشيخ الهرم يعتريه خرق وخرف . والضرع : اللين الذليل .

وقال مجاهد وقتادة : « ذُو مِرَّةٍ » ذو قوّة ؛ ومنه قول خُفَاف بن نَدْبة :

إنّى آمرؤٌ ذو مِرّةٍ فاستبقِنِي * فِيما يَنُوبُ مِن الخُطُوبِ صَلِيبُ

فالقوة تكون من صفة الله عز وجل، ومن صفة المخلوق . « فآستوى » يعنى جبريل على ما بينا؛ أى آرتفع وعلا إلى مكان فى السماء بعد أن علّم محمدًا صلى الله عليه وسلم ، قاله سعيد آبن المسيِّب وآبن جبير . وقيل : « فَٱسْتَوَى » أى قام فى صورته التى خلقه الله تعالى عليها ؛ لأنه كان يأتى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فى صورة الأدميين كما كان يأتى إلى الأنبياء ، فسأله النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه التى جبله الله عليها فأراه نفسه مرتين : مرة فى الأرض ومرة فى السماء؛ فأما فى الأرض ففى الأفق الأعلى ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم بحراء ، فطلع له جبريل من المشرق فسد الأرض إلى المغرب ، فخر النبيّ صلى الله عليه وسلم مغشيًا عليه ، فنزل إليه فى صورة الآدميين وضمّه إلى صدره ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه ؛ فلما أفاق النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ياجبريل ما ظننت أن الله خلق أحدًا على مثل هذه الصورة " . فقال : يا محمد إنما نشرت جناحين من أجنحتى وإن لى ستمائة جناح سَعةَ كل جناح ما بين المشرق والمغرب . فقال : " إن هذا لعظيم " فقال : وما أنا فى جنب ما خلقه الله إلا يسيرًا ، ولقد خلق الله إسرافيل له ستمائة جناح ، كل جناح منها قدر جميع أجنحتى ، وإنه ليتضاءل أحيانا من مخافة الله تعالى حتى يكون بقدر الوَصَع . يعنى العصفور الصغير؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ »[1] وأما فى السماء فعند سِدرة المنتهى ، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . وقول ثالث أن معنى « فَٱسْتَوَى » أى آستوى القرآن فى صدره . وفيه على هذا وجهان : أحدهما فى صدر جبريل حين نزل به عليه . الثانى فى صدر محمد صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه . وقول رابع أن معنى « فَٱسْتَوَى » فاعتدل يعنى محمدًا صلى الله عليه وسلم . وفيه على هذا وجهان : أحدهما فاعتدل فى قوّته . الثانى فى رسالته . ذكرهما الماوردى .

قلت : وعلى الأوّل يكون تمام الكلام « ذُو مِرَّةٍ » ، وعلى الثانى « شَدِيدُ الْقُوَى » . وقول خامس أن معناه فارتفع . وفيه على هذا وجهان : أحدهما أنه جبريل عليه السلام

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٣٩

آرتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفا . الثاني أنه النبيّ صلى الله عليه وسلم آرتفع بالمعراج . وقول سادس « فَٱسْتَوَىٰ » يعني الله عز وجل، أي آستوى على العرش على قول الحسن . وقد مضى القول فيه في « الأعراف »(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ جملة في موضع الحال ، والمعنى فاستوى عاليًا ، أي آستوى جبريل عاليًا على صورته ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يراه عليها حتى سأله إياها على ماذكرنا . والأفق ناحية السماء وجمعه آفاق . وقال قتادة : هو الموضع الذي تأتي منه الشمس . وكذا قال سفيان : هو الموضع الذي تطلع منه الشمس . ونحوه عن مجاهد . ويقال : أفْق وأُفُق مثل عُسْر وعُسُر . وقد مضى في « حم السجدة »(٢) . وفرس أُفُق بالضم أي رائع وكذلك الأنثى ؛ قال الشاعر :

أرجِّلُ لِمّتي وأَجُرُّ ذَيْـلِي * وتَحمِلُ شِكّتي أُفُقٌ كُمَيْتُ(٣)

وقيل : « وَهُوَ » أي النبيّ صلى الله عليه وسلم « بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ » يعني ليلة الإسراء وهذا ضعيف ؛ لأنه يقال : آستوى هو وفلان، ولا يقال آستوى وفلان إلا في ضرورة الشعر . والصحيح آستوى جبريل عليه السلام وجبريل بالأفق الأعلى على صورته الأصلية ؛ لأنه كان يتمثل للنبيّ صلى الله عليه وسلم إذا نزل بالوحي في صورة رجل ، فأحبّ النبيّ صلى الله وسلم أن يراه على صورته الحقيقية ، فآستوى في أفق المشرق فملأ الأفق .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ أي دنا جبريل بعد آستوائه بالأفق الأعلى من الأرض « فَتَدَلَّىٰ » فنزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم بالوحي . المعنى أنه لما رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم من عظمته ما رأى ، وهاله ذلك ردّه الله إلى صورة آدمي حين قرب من النبيّ صلى الله عليه وسلم بالوحي ، وذلك قوله تعالى : « فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ » يعني أوحى الله إلى جبريل وكان جبريل « قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ » قاله آبن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم . وعن

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ وجـ ١ ص ٢٥٤ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٧٤

(٣) قائله عمرو بن قنعاس المرادي . والشكة السلاح . وفي اللسان : وتحمل بزتي . والكميت من الخيل ما خلط حمرته سواد غير خالص .

آبن عباس أيضا فى قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » أن معناه أن الله تبارك وتعالى « دَنَا » من محمد صلى الله عليه وسلم « فَتَدَلَّى » . وروى نحوه أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. والمعنى دنا منه أمره وحكمه . وأصل التدلى النزول إلى الشيء حتى يقرب منه فوضع موضع القرب ؛ قال لبيد[1] :

فتَــدَلَّيْت عليـــه قافِـــلًا * وعلى الأرض غيَابَات الطَّفَل

وذهب الفرّاء إلى أن الفاء فى « فَتَدَلَّى » بمعنى الواو ، والتقدير ثم تدلى جبريل عليه السلام ودنا . ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت ، فقلت فدنا فقرب وقرب فدنا ، وشتمنى فأساء وأساء فشتمنى ؛ لأن الشتم والإساءة شيء واحد . وكذلك قوله تعالى : « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ »[2] المعنى والله أعلم : آنشق القمر وآقتربت الساعة. وقال الجرجانى : فى الكلام تقديم وتأخير أى تدلى فدنا ؛ لأن التـدلّى سبب الدنو . وقال آبن الأنبارى : ثم تدلّى جبريل أى نزل من السماء فدنا من محمد صلى الله عليـه وسلم . وقال آبن عباس : تدلّى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفعُ فدنا من ربه . وسيأتى . ومن قال : المعنى فآستوى جبريل ومحمد بالأفق الأعلى قد يقول : ثم دنا محمد من ربه دنو كرامة فتدلّى أى هَوَى للسجود . وهذا قول الضحاك . قال القشيرى : وقيل على هذا تدلّى أى تَدلّلَ ؛ كقولك تَظَنَّى بمعنى تَظَنَّنَ ، وهذا بعيد ؛ لأن الدلال غير مرضيّ فى صفة العبودية .

قوله تعـالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ أى « كان » محمد من ربه أو من جبريل « قَابَ قَوْسَيْنِ » أى قدر قوسين عربيتين . قاله آبن عباس وعطاء والفرّاء . الزمخشرى : فإن قلت كيف تقدير قوله : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ » قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين ، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو على فى قوله[3] :

* وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِن حَزِيمَةَ إِصْبِعَا *

(١) البيت فى وصف فرس . أراد أنه نزل من مربائه وهو على فرسه راكب .

(٢) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء (٣) اختلف فى القائل موصدر البيت : * فأدرك إبقاء العرادة ظلعها * وفى ز : « خزيمة » بالخاء المعجمة ، وهو تحريف . وحزيمة (بالمهملة) : اسم فارس من فرسان العرب . والعرادة : اسم فرس من خيل العرب فى الجاهلية .

أى ذا مقدار مسافة إصبع « أَوْ أَدْنَى » أى على تقديركم ؛ كقوله تعالى : « أَوْ يَزِيدُونَ »[١] .
وفى الصحاح : وتقول بينهما قابُ قَوْس ، وقِيبُ قَوْس وقادَ قَوْس، وقِيدُ قَوْس، أى قَدْر قَوْس . وقرأ زيد بن على « قَادَ » وقرئ « قِيدَ » و « قَدْرَ » . ذكره الزمخشرى . والقابُ ما بين المَقْبِض والسِّيَة . ولكل قوس قابان . وقال بعضهم فى قوله تعالى : « قَابَ قَوْسَيْنِ » أراد قابى قوس فقلبه . وفى الحديث : " ولَقَابُ قوسِ أحدِكم من الجنة وموضع قِـدِّه خيرٌ من الدنيا وما فيها " والقِـدّ السوط . وفى الصحيح عن أبى هريرة قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ولَقابُ قوسِ أحدِكم فى الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها " . وإنمـا ضرب المثل بالقوس ، لأنها لا تختلف فى القاب . والله أعلم . قال القاضى عِياض : اعلم أن ما وقع من إضافة الدنوّ والقرب من الله أو إلى الله فليس بدنوّ مكانٍ ولا قرب مَدًى ، وإنما دنوّ النبيّ صلى الله عليه وسلم من ربه وقُرْبه منه : إبانةُ عظيمِ منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته . ومن الله تعالى له : مبرّةٌ وتأنيس وبسط وإكرام . ويتأوّل فى قوله عليه السلام : " ينزل ربنا إلى سماء الدنيا " على أحد الوجوه : نزول إجمال وقبول وإحسان . قال القاضى : وقوله : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » فمن جعل الضمير عائدا إلى الله تعالى لا إلى جبريل كان عبارة عن نهاية القرب ، ولطف المحـل ، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد صلى الله عليه وسلم، وعبارةً عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب ، وإظهار التحفِّى ، وإنافة المنزلة والقـرب من الله؛ ويتأوّل فيه ما يتأوّل فى قوله عليه السلام : " من تقرب منى شبرًا تقربت منه ذراعًا ومن أتانى يمشى أتيته هرولةً " قربٌ بالإجابة والقبول ، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول . وقد قيل : « ثُمَّ دَنَا » جبريل من ربه « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » قاله مجاهد . ويدلّ عليـه ما روى فى الحديث : " إن أقرب الملائكة من الله جبريل عليه السلام " . وقيل : « أو » بمعنى الواو أى قاب قوسين وأدنى . وقيـل : بمعنى بل أى بل أدنى . وقال سعيد بن المسيّب : القاب صـدر القوس العربية حيث يشدّ عليـه السير الذى يتنكّبه صاحبـه، ولكل قوس قاب واحد . فأخبر أن جبريل قرب من محمد صلى الله عليه وسلم كقرب قاب قوسين . وقال سعيد بن جبير وعطاء

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٣٠

وأبو إسحق الهَمْدانى وأبو وائل شقيق بن سلمة : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ »أى قدر ذراعين، والقوس الذراع يقاس بها كل شيء ، وهى لغة بعض الحجازيين . وقيل : هى لغة أزد شَنُوءة أيضا . وقال الكسائى : قوله : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » أراد قوسًا واحدًا، كقول الشاعر :

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ * قَطَعْتُهُ بالسَّمْتِ لا بالسَّمْتَيْنِ (١)

أراد مهمهاً واحداً . والقوس تذكر وتؤنث فمن أنث قال في تصغيرها قويسة ومن ذكر قال قويس ؛ وفى المثل هـو من خيرِ قُوَيْسٍ سَهْماً . والجمع قِسِىّ وقُسِىّ وأقواس وقِياس؛ وأنشد أبو عبيدة :

* ووَتَّرَ الأَساوِرُ القِياسَا (٢) *

والقَـوْس أيضًا بقية التمر فى الجُلَّة أى الوعاء . والقَوْس برج فى السماء . فأما القُوس بالضم فصومعة الراهب ؛ قال الشاعر وذكر امرأة :

* لاَسْتَفْتَنَتْنِي وذَا المِسْحَيْنِ فى القُوسِ (٣) *

قوله تعـالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ تفخيم للوحى الذى أوحى إليـه . وتقدّم معنى الوحى وهو إلقاء الشيء بسرعة ومنه الوَحَاءَ الوَحَاء (٤) . والمعنى فأوحى الله تعـالى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى . وقيل : المعنى [« فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ » جبريل عليه السلام « مَا أَوْحَى »] (٥) . وقيل : المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليه ربه . قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة . قال قتادة : أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد . ثم قيل : هذا الوحى هل هو مبهم ؟ لا نَطَّلِع عليه نحن وتُعُبِّدْنَا بالإيمان به

---

(١) السمت : الطريق ومعناه قطعته على طريق واحد .

(٢) قائله القلاخ بن حزن . وتمامه : * صغدية تنتزع الأنفاسا *

والأساور: جمع إسوار وهو المقدم من أساورة الفرس . والصغد : جيل من العجم و يقال إنه اسم بلد . (مادة قوس) .

(٣) قائله جرير . وصدره : * لا وصل إذ صرفت هند ولو وقفت *

(٤) يمدّ و يقصر فالمقصور الوحى كالوغى ومعناه البدار البدار . راجع جـ ٤ ص ٨٥ وجـ ١٠ ص ١٣٣ فى معنى الوحى والقول فيه . (٥) ما بين المربعين ساقط من ح ، ز ، ل ، هـ .

على الجملة ، أو هو معلوم مفسّر ؟ قولان . وبالثانى قال سعيد بن جبير، قال : أوحى الله إلى محمد : ألم أجدك يتيما فآويتك ! ألم أجدك ضالّا فهديتك ! ألم أجدك عائلا فأغنيتك ! « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » . وقيل : أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك .

قوله تعالى : مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (١٥) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ (١٨)

قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ أى لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، وذلك أن الله تعالى جعل بصره فى فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية . وقيل : كانت رؤية حقيقة بالبصر . والأول مروى عن ابن عباس . وفى صحيح مسلم أنه رآه بقلبه . وهو قول أبى ذرّ وجماعة من الصحابة . والثانى قول أنس وجماعة . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال : أتعجبون أن تكون الخُلّة لإبراهيم ، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال : أما نحن بنى هاشم فنقول إن محمدا رأى ربه مرتين . وقد مضى القول فى هذا فى « الأنعام »(١) عند قوله : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » . وروى محمد بن كعب قال : قلنا يارسول الله صلى الله عليك رأيت ربك؟ قال : "رأيته بفؤادى مرتين" ثم قرأ : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَارَأَى » . وقول : ثالث أنه رأى جلاله وعظمته؛ قاله الحسن . وروى أبو العالية قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : " رأيت نهرا ورأيت وراء النهر حجابا ورأيت

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤ .

وراء الحجاب نورًا لم أر غير ذلك". وفى صحيح مسلم عن أبى ذرّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليـه وسلم هل رأيت ربك؟ قال : " نورٌ أنّى أراه " المعنى غلبنى من النور وبهرنى منه ما منعنى من رؤيته . ودلّ على هـذا الرواية الأخرى " رأيت نورًا " . وقال ٱبن مسعود : رأى جبريل على صورته مرتين . وقرأ هشام عن ٱبن عامر وأهل الشام «مَا كَذَّبَ» بالتشديد أى ما كذَّب قلبُ محمد ما رأى بعينه تلك الليـلة بل صدّقه . فـ «ـما» مفعوله بغـير حرف مقدّر ؛ لأنه يتعدّى مشدّدًا بغير حرف . ويجوز أن تكون «ما» بمعنى الذى والعائد محذوف، ويجوز أن يكون مع الفعل مصدرًا . الباقون مخففًا ؛ أى ما كذب فؤاد محمد فيما رأى ؛ فأسقط حرف الصفة . قال حسان رضى الله عنه :

لو كنتِ صادقة الذى حدّثتِنِي * لنجوتِ مَنْجَا الحارثِ بنِ هِشامِ

أى فى الذى حدّثتِنِي . ويجوز أن يكون مع الفعل مصدرًا . ويجوز أن يكون بمعنى الذى ؛ أى ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم الذى رأى .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ قرأ حمزة والكسائى « أَفَتَمْرُونَهُ » بفتح التـاء من غير ألف على معنى أفتجحدونه . وٱختاره أبو عبيد؛ لأنه قال : لم يماروه وإنما جحدوه. يقال : مراه حقه أى جحده ومريته أنا ؛ قال الشاعر :

لئن هجرت(١) أخا صِدقٍ ومَكْرُمَةٍ * لقد مَرَيْتَ أخًا ما كان يَمْرِيكَا

أى جحدته . وقال المبرّد : يقال مراه عن حقه وعلى حقه إذا منعه منـه ودفعه عنه . قال: ومثل على بمعنى عن قول بنى كعب بن ربيعة : رضى الله عليك؛ أى رضى عنك . وقرأ الأعرج ومجاهد « أَفَتُمْرُونَهُ » بضم التاء من غير ألف من أمريت؛ أى تريبونه وتشككونه . الباقون « أَفَتُمَارُونَهُ » بألف ، أى أتجادلونه وتدافعونه فى أنه رأى الله ؛ والمعنيان متداخلان ؛ لأن مجادلتهم جحود . وقيل : إن الجحود كان دائمـا منهم وهذا جدال جديد؛ قالوا : صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عِيرنا التى فى طريق الشام . على ما تقدّم(٢) .

---

(١) وروى : هجوت . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٩ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ « نَزْلَةً » مصدر فى موضع الحال كأنه قال : ولقد رآه نازلًا نزلةً أخرى . قال ابن عباس : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه مرة أخرى بقلبه . روى مسلم عن أبى العالية عنه قال : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » قال : رآه بفؤاده مرتين؛ فقوله : « نَزْلَةً أُخْرَى » يعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه كان له صعود ونزول مرارًا بحسب أعداد الصلوات المفروضة ، فلكل عَرْجة نَزْلة . وعلى هذا قوله تعالى : « عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » أى ومحمد صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى وفى بعض تلك النزلات . وقال ابن مسعود وأبو هريرة فى تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » أنه جبريل . ثبت هذا أيضا فى صحيح مسلم . وقال ابن مسعود : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "رأيت جبريل بالأفق الأعلى له ستمائة جناح يتناثر من ريشه الدر والياقوت" ذكره المهدوى .

قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ «عِنْدَ» من صلة «رَآهُ» على ما بينا . والسِّدْر شجر النَّبِق وهى فى السماء السادسة ، وجاء فى السماء السابعة . والحديث بهذا فى صحيح مسلم؛ الأول ما رواه مُرّة عن عبد الله قال : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سِدرة المنتهى ، وهى فى السماء السادسة ، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، قال : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ قال : فراش(١) من ذهب ، قال : فأعطى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثًا : أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغُفِر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المُقحِمات(٢) . الحديث الثانى رواه قتادة عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لما رُفعتُ إلى سِدرة المنتهى فى السماء السابعة نَبِقها مثل قِلال هَجَر وورقها مثل آذان الفِيلَة يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان قلت يا جبريل ما هذا قال أما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات" لفظ الدَّارَقُطْنى . والنَّبِق بكسر الباء : ثمر السِّدر الواحد نَبِقة . ويقال : نَبْق بفتح النون وسكون

(١) ويروى : « جراد من ذهب » . والفراش : دويبة ذات جناحين تتهافت فى ضوء السراج واحدتها فراشة .
(٢) المقحمات : الذنوب العظام التى تقحم أصحابها فى النار ؛ أى تلقيهم فيها .

الباء ؛ ذكرهما يعقوب فى الإصلاح وهى لغة المصريين ، والأولى أفصح وهى التى ثبتت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وروى الترمذيّ عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — وقد ذُكِر له سِدْرة المنتهى — قال : " يسير الراكب فى ظل الغصن منها مائة سنة أو يستظل بظلها مائة راكب — شك يحيى — فيها فَرَاش الذهب كأن ثمرها القِلال " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

قلت : وكذا لفظ مسلم من حديث ثابت عن أنس " ثم ذُهِب بى إلى سِدْرة المنتَهى وإذا ورقها كآذان الفِيلة وإذا ثمرها كالقِلال فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشِى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها " . وآختلف لم سُمِّيت سِدْرة المنتهى على أقوال تسعة : الأوّل — ما تقدّم عن آبن مسعود أنه ينتهى إليها كلما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها . الثانى — أنه ينتهى علم الأنبياء إليها ويعزب علمهم عما وراءها ؛ قاله آبن عباس . الثالث — أن الأعمال تنتهى إليها وتقبض منها ؛ قاله الضحاك . الرابع — لآنتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها ؛ قاله كعب . الخامس — سميت سِدْرة المنتهَى لأنها ينتهى إليها أرواح الشهداء ؛ قاله الربيع بن أنس . السادس — لأنه تنتهى(١) إليها أرواح المؤمنين ؛ قاله قتادة . السابع — لأنه ينتهى إليها كل من كان على سنة محمد صلى الله عليه وسلم ومنهاجه ؛ قاله علىّ رضى الله عنه والربيع بن أنس أيضا . الثامن — هى شجرة على رءوس حملة العرش إليها ينتهى علم الخلائق ؛ قاله كعب أيضا .

قلت : يريد — والله أعلم — أن آرتفاعها وأعالى أغصانها قد جاوزت رءوس حملة العرش ؛ ودليله ما تقدّم من أن أصلها فى السماء السادسة وأعلاها فى السماء السابعة ، ثم علت فوق ذلك حتى جاوزت رءوس حملة العرش . والله أعلم . التاسع — سُمِّيت بذلك لأن من رفع إليها فقد آنتهى فى الكرامة . وعن أبى هريرة لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم آنتهى به إلى سِدرة المنتهى فقيل له هذه سِدرة المنتهى ينتهى إليها كل أحد خَلَا من أمتك على سنّتك ؛ فإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسِن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ،

---

(١) فى ب ، ح ، ز ، س ، ه : « لأنه تأوى إليها » .

وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مُصَفًّى ، وإذا هي شجرة يسير الراكب المسرع في ظلّها مائة عام لا يقطعها ، والورقة منها تغطي الأمّة كلها ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ تعريف بموضع جنة المأوى وأنها عند سدرة المنتهى . وقرأ عليّ وأبو هريرة وأنس وأبو سَبرة الجهني وعبد الله بن الزبير ومجاهد « عِنْدَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى » يعني جَنّة المبيت . قال مجاهد : يريد أجنه . والهاء للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال الأخفش : أدركه كما تقول جنه الليل أي ستره وأدركه . وقراءة العامة « جَنَّةُ الْمَأْوَى » قال الحسن : هي التي يصير إليها المتقون . وقيل : إنها الجنة التي يصير إليها أرواح الشهداء؛ قاله ابن عباس . وهي عن يمين العرش . وقيل : هي الجنة التي آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أخرج منها وهي في السماء السابعة (١) . وقيل : إن أزواح المؤمنين كلهم في جنة المأوى . وإنما قيل لها : جنة المأوى لأنها تأوى إليها أرواح المؤمنين وهي تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها . وقيل : لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قال ابن عباس والضحاك وابن مسعود وأصحابه : فراش من ذهب . ورواه مرفوعا ابن مسعود وابن عباس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد تقدّم في صحيح مسلم عن ابن مسعود قوله . وقال الحسن : غشيها نور ربّ العالمين فاستنارت . قال القشيري : وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غشيها؟ قال : "فراش من ذهب". وفي خبر آخر "غشيها نور من الله حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها". وقال الربيع بن أنس : غشيها نور الربّ والملائكة تقع عليها كما يقع الغربان على الشجرة . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت السّدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة مَلَكا قائما يسبّح [الله تعالى] (٢) وذلك قوله : « إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى » " ذكره

(١) في ب ، ح ، ز ، ل : « الرابعة » وكذا هو في حاشية الجمل عن القرطبي .

(٢) ساقطة من ز ، ل ، ه .

المهدوي والثعلبي[1] . وقال أنس بن مالك : « إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى » قال جراد من ذهب وقد رواه مرفوعاً . وقال مجاهد : إنه رَفْرَف أخضر . وعنه عليه السلام : "يغشاها رَفْرَف من طير خضر" . وعن ابن عباس : يغشاها ربُّ العزة ؛ أى أمره كما فى صحيح مسلم مرفوعا : "فلما غشيها من أمر الله ما غشى" . وقيل : هو تعظيم الأمر ؛ كأنه قال : إذ يغشى السِّدرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته . وهكذا قوله تعالى : « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى » « وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى » ومثله : « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ[2] » . وقال الماوردى فى معانى القرآن له : فإن قيل لم اختيرت السِّدرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر ؟ قيل : لأن السِّدرة تختص بثلاثة أوصاف : ظلّ مديد ، وطعم لذيذ ، ورائحة ذكية ؛ فشابهت الإيمان الذى يجمع قولاً وعملاً ونيّةً ؛ فظلُّها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه ، وطعمها بمنزلة النية لكمونه ، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره . وروى أبو داود فى سننه قال : حدّثنا نصر ابن على قال حدّثنا أبو أسامة عن ابن جريج عن عثمان بن أبى سليمان عن سعيد بن محمد ابن جُبَير بن مُطْعِم عن عبد الله بن حبشى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قطع سِدْرةً صَوَّب اللهُ رأسَه فى النار" وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال : هذا الحديث مختصر يعنى من قطع سِدْرة فى فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حقّ يكون له فيها صَوَّب اللهُ رأسَه فى النار .

قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ قال ابن عباس : أى ما عدل يميناً ولا شمالاً ، ولا تجاوز الحدّ الذى رأى . وقيل : ما جاوز ما أُمر به . وقيل : لم يمدّ بصره إلى غير ما رأى

---

(١) بعد هذا نقل الجمل عن القرطبي فى تفسيره ما يأتى : وقيل ملائكة تغشاها كأنهم طيور يرتقون إليها متشوقين متبركين زائرين كما يزور الناس الكعبة ، وروى فى حديث المعراج عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ذهب بى جبريل إلى سدرة المنتهى وأوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كقلال هجر" قال : "فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى قدر أن ينعتها من حسنها فأوحى إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة" وقيل : يغشاها أنوار الله تعالى لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل فظهرت الأنوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل دكا ولم تتحرك الشجرة ، وخر موسى صعقا ولم يتزلزل محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أبهمه تعظيما له . والغشيان يكون بمعنى التغطية .

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٦

من الآيات . وهذا وصف أدب للنبيّ(١) صلى الله عليه وسلم فى ذلك المقام؛ إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالًا .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ قال ٱبن عباس : رأى رَفْرَفًا سدّ الأفق . وذكر البيهقى عن عبد الله قال : « رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » قال ٱبن عباس : رأى رَفْرَفًا أخضرَ سدّ أفق السماء . وعنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فى حُلّة رفرف أخضر ، قد ملأ ما بين السماء والأرض . قال البيهقى : قوله فى الحديث "رأى رَفْرَفًا" يريد جبريل عليه السلام فى صورته فى رفرف، والرفرف البساط . ويقال : فِراش . ويقال : بل هو ثوب كان لباساً له ؛ فقد روى أنه رآه فى حُلّة رفرف .

قلت : خرّجه الترمذى عن عبد الله قال : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَارَأَى » قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريلَ عليه السلام فى حُلّة من رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض. قال : هذا حديث حسن صحيح .

قلت : وقد روى عن ٱبن عباس فى قوله تعالى : « دَنَا فَتَدَلَّى » أنه على التقديم والتأخير؛ أى تدلى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رُفع فدنا من ربه . قال : "فارقنى جبريل وٱنقطعت(٢) عنى الأصوات وسمعت كلام ربّى" فعلى هذا الرَّفْرَفُ ما يُقْعَد ويُجلَس عليه كالبساط وغيره . وهو بالمعنى الأول جبريل . قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بن حيان : رأى جبريلَ عليه السلام فى صورته التى يكون فيها فى السموات ؛ وكذا فى صحيح مسلم عن عبد الله قال : « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » قال رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح. ولا يبعد مع هذا أن يكون فى حُلّة رفرف وعلى رفرف . والله أعلم. وقال الضحاك : رأى سِدْرة المنتهى . وعن ٱبن مسعود : رأى ما غشى السِّدرة من فراش الذهب؛ حكاه الماوردى . وقيل : رأى المعراج . وقيل : هو ما رأى تلك الليلة فى مسراه فى عوده وبدئه ؛ وهو أحسن؛ دليله : «لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا»(٣) و «مِن» يجوز أن تكون للتبعيض، وتكون « الْكُبْرَى » مفعولة لـ « رأى » وهى فى الأصل صفة الآيات ووحدت لرءوس

---

(١) فى ب، ز، ح ، س، ل، وهـ : « أدب النبى » . (٢) فى ب، ح، س : « وارتفعت » .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٤

الآيات . وأيضا يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى؛ كقوله تعالى: «وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى»[1] . وقيل : « الْكُبْرَى » نعت لمحذوف؛ أى رأى من آيات ربه الكبرى . ويجوز أن تكون « من » زائدة؛ أى رأى آيات ربه الكبرى . وقيل : فيه تقديم وتأخير؛ أى رأى الكبرى من آيات ربه .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ لما ذكر الوحى إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، وذكر من آثار قدرته ما ذكر، حاجّ المشركين إذ عبدوا مالا يعقل وقال[2]: أفرأيتم هذه الآلهة التى تعبدونها أَوْحَيْنَ إليكم شيئا كما أوحى إلى محمد . وكانت اللّاتُ لثقيف، والعُزّى لقريش وبنى كِنانة، ومناةُ لبنى هلال[3] . وقال هشام : فكانت مناة لِهُذَيل وخُزَاعة؛ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا رضى الله عنه فهدمها عام الفتح . ثم اتخذوا اللات بالطائف، وهى أحدث من مَنَاة وكانت صخرةً مُربّعة ، وكان سَدَنتها من ثَقِيف، وكانوا قد بنوا عليها بناء، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها . وبها كانت العرب تسمى زيد اللّات وتيمَ اللّات. وكانت فى موضع [منارة][4] مسجد الطائف اليسرى، فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثَقِيف، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار . ثم اتخذوا العُزّى وهى أحدث من اللّات، اتخذها ظالم بن أسعد، وكانت بوادى نَخْلة الشامية فوق ذات عِرْق، فبنوا عليها بيتًا وكانوا يسمعون منها[5] الصوت . قال ابن هشام : وحدثنى أبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: كانت العُزّى شيطانة تأتى ثلاث سَمُرات ببطن نَخْلة، فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، بعث خالد بن الوليد رضى الله عنه فقال :

(١) راجع جـ ١١ ص ١٨٧ (٢) فى ب ، ح ، ز ، س ، ل ، هـ : « وقيل » . (٣) اتفقت نسخ الأصل على القول بأن مناة لبنى هلال ولم نره لغير المؤلف . (٤) الزيادة من كتاب الأصنام لابن الكلبى .
(٥) فى كتاب الأصنام « فيه » بدل « منها » .

"آيت بَطْن نخلة فإنك تجد ثلاث سَمُرات فاَعْضِد الأولى" فأتاها فعضَدها فلما جاء إليه قال : "هل رأيت شيئا" قال : لا . قال : "فاَعِضد الثانية" فأتاها فعضَدها، ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "هل رأيت شيئا" قال : لا . قال : "فاَعِضد الثالثة" فأتاها فإذا هو بحبشيّة نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها تُصَرِّف بأنيابها ، وخلفها دُبَيَّة[1] السُّلَمى وكان سادِنَها فقال :

يا عُزّ كُفْرَانَكِ لا سبْحانَكِ * إنى رَأَيْتُ اللهَ قَــد أهانَكِ

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هى حُمَمَة، ثم عَضَد الشجرة وقتل دُبَيَّة السادن، ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "تلك العُزَّى [ولن تُعبَد أبدا]" وقال آبن جُبير : العُزّى حجر أبيض كانوا يعبدونه . قتادة : نبت[2] كان ببطن نَخْلة . ومَنَاة : صنم لخزاعة . وقيل : إن اللّات فيما ذكر بعض المفسرين أخذه المشركون من لفظ الله[3] ، والعُزّى من العزيز، ومَنَاة من مَنَى الله الشيءَ إذا قدّره . وقرأ آبن عباس وآبن الزبير ومجاهد وحُميد وأبو صالح «اللّاتّ» بتشديد التاء وقالوا : كان رجلا يَلُتّ السَّوِيق للحاجّ — ذكره البخارى عن آبن عباس — فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . آبن عباس : كان يبيع السَّوِيق والسَّمْن عنـد صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثَقِيف تلك الصخرة إعظامًا لصاحب السَّوِيق. أبو صالح : إنمـا كان رجلًا بالطائف فكان يقوم على آلهتهم ويَلُتّ لهم السَّوِيق فلما مات عبدوه. مجاهد : كان رجل فى رأس جبل له غُنَيْمة يَسْلِي[4] منها السَّمْن ويأخذ منها الأَقِط ويجمع رِسْلَها، ثم يتخذ منها حَيْسا[5] فيطعم الحاجّ، وكان ببطن نَخْلة فلما مات عبدوه وهو اللّات. وقال الكلبيّ كان رجلا من ثَقِيف يقال له صِرمة بن غنم . وقيل : إنه عامر بن ظَرِب العَدْوانىّ . قال الشاعر[6] :

لا تَنْصُروا اللّاتَ إنّ اللهَ مُهْلِكُهَا * وكيف يَنْصُرُكُمْ مَنْ ليس يَنْتَصِرُ

---

(١) دبية بالدال المهملة بن حرمس ويروى آبن حرمى ثم السلمىّ . (٢) فى ب، ز، ه ول : «بيت» .
(٣) فى ب، ح، ز، س، ل، ه : «اسم الله» . (٤) يسل : يجمع . الأقط لبن مجفف يابس مستحجر يطبخ به . والرسـل اللبن . (٥) الحيس : الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن .
(٦) هو شداد بن عارض الجشمى قاله فى أبيات حين هدمت اللات وحرقت، ينهى ثقيفا عن العود إليها، والغضب لها .

والقراءة الصحيحة «اللَّاتَ» بالتخفيف آسم صنم والوقوف عليها بالتاء وهو آختيار الفراء.
قال الفرّاء: وقد رأيت الكسائي سأل أبا فَقْعَس الأَسَدي[1] فقال ذاه لذات [ولاه للات] وقرأ «أفرأيتم اللَّاهَ». وكذا قرأ الدُّورِي عن الكسائي والبَزِّي عن آبن كثير «اللَّاه» بالهاء في الوقف، ومن قال: إن «اللَّات» من الله وقف بالهاء أيضا. وقيل: أصلها لاهة مثل شاة [أصلها شاهة] وهي من لَاهَت أي آختفت؛ قال الشاعر:

لَاهَتْ فما عُرِفت يومًا بخارجةٍ * ياليتها خَرجتْ حتّى رأيناها

وفي الصحاح: اللات آسم صنم كان لِثَقيف وكان بالطائف، وبعض العرب يقف عليها بالتاء، وبعضهم بالهاء؛ قال الأخفش: سمعنا من العرب من يقول اللَّاتِ والعُزَّى، ويقول هي اللّاتْ فيجعلها تاء في السّكوت وهي اللّاتِ فاعْلَمَ أنه جُرَّ في موضع الرفع؛ فهذا مثل أمسِ مكسورٌ على كل حال وهو أجودُ منه؛ لأن الألف واللام اللتان في اللّات لا تسقطان وإن كانتا زائدتين؛ وأما ما سمعنا من الأكثر في اللّاتِ والعُزَّى في السّكوت عليها فاللّاهْ لأنها هاء فصارت تاء في الوصل وهي في تلك اللغة مثل كان من الأمر كَيْتِ وكَيْتِ، وكذلك هيهاتِ في لغة من كسرها؛ إلا أنه يجوز في هيهاتِ أن تكون جماعة ولا يجوز ذلك في اللّاتِ؛ لأن التاء لا تزاد في الجماعة إلا مع الألف، وإن جعلت الألف والتاء زائدتين بقي الأسم على حرف واحد.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ قرأ آبن كثير وآبن مُحَيْصن وحُمَيد ومجاهد والسُّلَمي والأعشى عن أبي بكر «وَمَنَاءَةَ» بالمدّ والهمز. والباقون بترك الهمز لغتان. وقيل: سمي بذلك؛ لأنهم كانوا يريقون عنده الدماء يتقربون بذلك إليه. وبذلك سميت مِنًى لكثرة ما يراق فيها من الدماء. وكان الكسائي وآبن كثير وآبن مُحَيْصن يقفون بالهاء على الأصل.

(١) الذي ذكره النحاس في إعراب قوله تعالى: «ولات حين مناص» أن الفراء قال عن الكسائي: أحسبه أنه سأل أبا السمال كيف يقرأ فيقف على «ولات» فوقف عليها بالهاء. وعبارة الفرّاء في هذه السورة من تفسيره: وكان الكسائي يقف عليها بالهاء، وأنا أقف على التاء. اهـ. ولم يذكر أبا فقعس.

الباقون بالتاء اتباعا لخط المصحف . وفى الصحاح : ومناة اسم صنم كان [لهُذَيل وخُزاعة](١) بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء وهى لغة ، والنسبة إليها مَنَوِىّ . وعبدُ مَناةَ ابنُ أُدّ بن طابخة، وزيدُ مناة ابن تميم بن مُرٍّ يُمدّ ويقصر ؛ قال هَوْبَر الحارثى :

أَلَا هل أَتى التَّيمَ بنَ عبدِ مَناءةٍ * على الشَّنْءِ فيما بيننا ابنُ تميمِ

قوله تعالى : ﴿ الْأُخْرَىٰ ﴾ العرب [لا](٢) تقول للثالثة أخرى وإنما الأخرى نعت للثانية ، واختلفوا فى وجهها فقال الخليل : إنما قال ذلك لوفاق رءوس الآى ؛ كقوله : « مَآرِبُ أُخْرَىٰ » ولم يقل أخر . وقال الحسين بن الفضل : فى الآية تقديم وتأخير مجازها أفرأيتم اللّات والعُزّى الأخرى ومَناة الثالثة . وقيل : إنما قال « وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ » لأنها كانت مرتبة عند المشركين فى التعظيم بعد اللّات والعُزّى فالكلام على نسقه . وقد ذكرنا عن [ابن](٣) هشام: أن مَناةَ كانت أوّلا فى التقديم، فلذلك كانت مقدّمة عندهم فى التعظيم ؛ والله أعلم . وفى الآية حذف دل عليه الكلام ؛ أى أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرّت حتى تكون شركاء لله . ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾ ردًّا عليهم قولهم : الملائكة بنات الله، والأصنام بنات الله .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا ﴾ يعنى هذه القسمة ﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ أى جائرة عن العدل، خارجة عن الصواب، مائلة عن الحق . يقال : ضَازَ فى الحكم أى جار، وضَازَ حقّه يَضِيزه ضَيْزًا — عن الأخفش — أى نقصه وبخسه . قال : وقد يهمز فيقال ضأزه يضأَزه ضَأْزًا وأنشد :

فإنْ تَنْأَ عنّا نَنْتَقِصْكَ وإنْ تُقِمْ(٤) * فقِسْمُكَ مَضْئوزٌ وأنفُكَ رَاغِمُ

وقال الكسائى : يقال ضاز يَضِيز ضَيْزًا، وضازَ يَضُوز ضَوْزًا، وضَأَز يَضْأَز ضأْزًا إذا ظلم وتعدّى وبخس وانتقص ؛ قال الشاعر(٥) :

ضَازَتْ بنو أَسَدٍ بِحُكمِهِمُ * إذ يجعلون الرأسَ كالذَّنَبِ

(١) الزيادة من الصحاح واللسان . (٢) زيادة يقتضيها السياق . (٣) من ب ، ح ، ز ، س ، ل هـ .
(٤) فى الأصل « وإن تغب » والتصويب عن اللسان . وروى لحظك بدل فقسمك . (٥) قائله امرؤ القيس .

قوله تعالى : « قِسْمَةٌ ضِيزَى » أى جائرة، وهى فُعْلى مِثل طُوبَى وحُبْلى، وإنما كسروا الضاد لتسلم الياء ؛ لأنه ليس فى الكلام فِعْـلى صفة ، وإنما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى . قال الفراء : وبعض العـرب تقول ضُوْزى وضِئْزى بالهمز . وحكى أبو حاتم عن أبى زيد: أنه سمع العرب تهمز «ضِيزى» . قال غيره : وبها قرأ ابن كثير؛ جعله مصدرا مثل ذِكرى وليس بصفـة ؛ إذ ليس فى الصفات فِعْـلى ولا يكون أصلها فُعْـلى؛ إذ ليس فيهـا ما يوجب القلب ، وهى من قولهم ضأزته أى ظلمته . فالمعنى قسمة ذات ظلم . وقد قيل هما لغتان بمعنًى. وحكى فيها أيضًا سواهما ضَيْزَى وضَأْزى وضُوزَى وضُؤْزى. وقال المؤرِّج: كرهوا ضم الضاد فى ضِيزى، وخافوا انقلاب الياء واوًا وهى من بنات الواو؛ فكسروا الضاد لهذه العلة، كما قالوا فى جمع أبيض بِيضٌ والأصل بُوضٌ؛ مثل حُمْر وصُفْر وخُضْر . فأما من قال : ضاز يَضُوز فالآسم منه ضُوزَى مثل شُورَى .

قوله تعـالى : إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أى ما هى يعنى هذه الأوثان « إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا » يعـنى نحتموها وسميتموها آلهـة . ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ أى قلدتموهـم فى ذلك . ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى ما أنزل الله بها من حجـة ولا برهان . ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ عاد من الخطاب إلى الخبر أى ما يتبع هـؤلاء إلى الظن . ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ أى تميل إليه . وقراءة العامة « يَتَّبِعُونَ » بالياء . وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وآبن السَّمَيْقَع

« تَتَّبِعُونَ » بالتاء على الخطاب . وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس . ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ أى البيان من جهة الرسول أنها ليست بآلهة . ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ أى اشتهى أى ليس ذلك له . وقيل : « لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من البنين ؛ أى يكون له دون البنات . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من غير جزاء ! ليس الأمر كذلك . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من النبوّة أن تكون فيه دون غيره . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من شفاعة الأصنام ؛ نزلت فى النضر بن الحرث . وقيل : فى الوليد بن المغيرة . وقيل : فى سائر الكفار . ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ يعطى من يشاء ويمنع من يشاء لا ما تمنى أحد .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى ، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له . قال الأخفش : الملَك واحد ومعناه جمع ؛ وهو كقوله تعالى : « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ »[1] . وقيل : إنما ذكر ملكًا واحدًا ، لأن كَمْ تدل على الجمع .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ هم الكفار الذين قالوا الملائكة بنات الله والأصنام بنات الله . ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ﴾ أى كتسمية الأنثى ، أى

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٦ .

يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله . ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى إنهم لم يشاهدوا خلقه الملائكة، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم،ولم يروه فى كتاب. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أى ما يتبعونَ ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ فى أن الملائكة إناث . ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ .

قوله تعالى : ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ يعنى القرآن والإيمان . وهذا منسوخ بآية السيف . ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ نزلت فى النضر . وقيل : فى الوليد . ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى إنما يبصرون أمر دنياهم و يجهلون أمر دينهم. قال الفراء: صغرهم وازدرى بهم ؛ أى ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة . وقيل : أن جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله . ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أى حاد عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ فيجازى كُلًّا بأعمالهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى:﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ اللام متعلقة بالمعنى الذى دلّ عليه « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » كأنه قال : هو مالك ذلك يهدى من يشاء ويضل من يشاء ليجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته. وقيل: « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» معترض فى الكلام؛ والمعنى : إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزى . وقيل : هى

لام العاقبــة ، أى ولله ما فى السموات وما فى الأرض ؛ أى وعاقبة أمر الخلق أن يكون فيهم مسىء ومحسن ؛ فللمسىء السوءى وهى جهنم ، وللمحسن الحسنى وهى الجنة .

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ » هذا نعت للمحسنين؛ أى هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشرك؛ لأنه أكبر الآثام. وقرأ الأعمش و يحيى بن وثاب وحمـزة والكسائى « كَبِيرَ » على التوحيـد وفسره ابن عبـاس بالشرك . « وَالْفَوَاحِشَ » الزنى : وقال مقاتل : « كَبَائِرَ الْإِثْمِ » كل ذنب ختم بالنـار . « وَالْفَوَاحِشَ » كل ذنب فيه الحدّ . وقد مضى فى « النساء »(١) القول فى هذا . ثم استثنى استثناءً منقطعًا وهى :

المسألة الثانية ــ فقال : « إِلَّا اللَّمَمَ » وهى الصغائر التى لا يسـلم من الوقوع فيهـا إلا من عصمه(٢) الله وحفظه . وقد اختلف فى معناها؛فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي: « اللَّمَم » كل ما دون الزنى . وذكر مقاتل بن سليمان : أن هــذه الآية نزلت فى رجل كان يسمى نبهان التمار ؛ كان له حانوت يبيع فيــه تمرًا ، فجاءته امرأة تشترى منه تمرا فقال لها : إن داخل الدكان ما هو خير من هــذا ، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت فنــدم نبهان؛ فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ! ما من شىء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع ؛ فقال : "لعلّ(٣) زوجها غازٍ" فنزلت هذه الآية، وقد مضى فى آخر « هود »(٣) وكذا قال ابن مسعود وأبو سعيد الخُدرى وحذيفة ومسروق : إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة . وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: زنى العينين النظر ، وزنى اليدين البطش ، وزنى الرِّجلين المشى ، وإنمـا يصدّق ذلك أو يكذّبه الفرج؛ فإن تقدّم كان زنًى و إن تأخر كان لممـًا . وفى صحيح البخارى ومسلم عن ابن عبـاس قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم ممـا قال أبو هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله كتب

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٥٨ (٢) فى ب : « سلمه الله » .

(٣) راجع جـ ٩ ص ١١١ ، ففيه بيان الإجمال فى هذا الحديث برواية أخرى .

على ابن آدم حظّه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه". والمعنى: أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحدّ فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة هو فى الفرج وغيرهُ له حظّ من الإثم. والله أعلم. وفى رواية أبى صالح [عن أبى هريرة][(١)] عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "كُتِبَ على ابن آدم نصيبه من الزنى مُدْرِكٌ لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرِّجل زناها الخُطَا والقلب يهْوَى ويتمنى ويصدّق ذلك الفرج ويكذّبه". خرجه مسلم. وقد ذكر الثعلبى حديث طاوس عن ابن عباس فذكر فيه الأُذُن واليد والرِّجل، وزاد فيه بعد العينين واللسان: "وزنى الشفتين القُبلة". فهذا قول. وقال ابن عباس أيضًا: هو الرجل يُلِمُّ بذنب ثم يتوب. قال: ألم تسمع النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول:

إن يَغفر اللهُ يغفر جَمّا * وأىُّ عبدٍ لكَ لا ألَمَّا

رواه عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس[(٢)]. قال النحاس: هذا أصح ما قيل فيه وأجلها إسنادًا. وروى شعبة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس فى قول الله عز وجل «إِلَّا اللَّمَمَ» قال: هو أن يلمّ العبد بالذنب ثم لا يعاوده؛ قال الشاعر[(٣)]:

إن تَغفِرِ اللهم تغفر جَمّا * وأىُّ عبدٍ لكَ لا أَلَمَّا

وكذا قال مجاهد والحسن: هو الذى يأتى الذنب ثم لا يعاوده، ونحوه عن الزهرى، قال: اللم أن يزنى ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود. ودليل هذا التأويل قوله تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ»[(٤)] الآية. ثم قال: «أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ»[(٤)] فضمن لهم المغفرة؛ كما قال عقيب اللم:

(١) من ب، ى. (٢) روى هذا الحديث الترمذى بهذا الإسناد وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.
(٣) هو أمية بن الصلت قاله عند احتضاره. (٤) راجع جـ ٤ ص ٢٠٩ وص ٢١٥.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فعلى هذا التأويل يكون «إِلاَّ اللَّمَمَ» استثناء متصل. قال عبد الله ابن عمرو بن العاص: اللمم مادون الشرك. وقيل: اللمم الذنب بين الحدّين وهو مالم يأت عليه حدّ فى الدنيا، ولا تُوعِّد عليـه بعذاب فى الآخرة تكفِّره الصلوات الخمس. قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة. ورواه العوفى والحكم بن عتيبة عن ابن عباس. وقال الكلبي: اللمم على وجهين: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدّا فى الدنيا ولا عذابا فى الآخرة؛ فذلك الذى تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلمّ به الإنسان المرة بعـد المرة فيتوب منه. وعن ابن عباس أيضا وأبى هريرة وزيد بن ثابت: هو ما سلف فى الجاهلية فلا يؤاخذهم به. وذلك أن المشركين قالوا للسلمين: إنما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت وقاله زيد بن أسلم وابنه[(١)]؛ وهو كقوله تعالى: «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ»[(٢)]. وقيـل: اللمم هو أن يأتى بذنب لم يكن له بعادة؛ قاله نفطويه. قال: والعرب تقول ما يأتينا إلّا لِمَـامًا؛ أى فى الحين بعد الحين. قال: ولا يكون أن يلمّ ولا يفعل، لأن العرب لا تقول ألمّ بنا إلا إذا فعل الإنسان لا إذا همّ ولم يفعله. وفى الصحاح: وألمّ الرجل من اللمم وهو صغائر الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة. وأنشد غير الجوهرى:

بِزَيْنَبَ أَلْمِمْ قَبْـلَ أَنْ يَرْحَلَ الرَّكْبُ * وَقُـلْ إِنْ تَمَلِّينَـا فَمَا مَلَّكِ الْقَلْبُ

أى اقرب. وقال عطاء بن أبى رباح: اللمم عادة النفس الحين بعـد الحين. وقال سعيد ابن المسيّب: هو ما ألمّ على القلب؛ أى خطر. وقال محمد بن الحنفية: كلّ ما هممت به من خير أو شر فهو لَمَمٌ. ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام: "إن للشيطان لَمّة وللمَلَك لَمّة" الحديث. وقد مضى فى «البقرة»[(٣)] عند قوله تعالى: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ». وقال أبو إسحق الزجاج: أصل اللّمم والإلمـام ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه

---

(١) فى ا: «وأبوه» وما أثبتناه يوافق ما فى تفسير أبى حيان والطبرى».

(٢) راجع جـ ٥ ص ١١٦ (٣) راجع جـ ٣ ص ٣٢٩

ولا يقيم عليه؛ يقال: ألممت به إذا زرته وآنصرفت عنه، و يقال: مافعلته إلا لَمَمًا و إلمامًا؛ أى الحين بعد الحين . و إنما زيارتك إلمام، ومنه إلمام الخيال؛ قال الأعشى :

أَلَمَّ خَيَالٌ مِن قُتَيلَةَ بَعْدَ مَا * وَهِيَ حَبْلُهَا مِن حَبْلِنَا فَتَصَرَّمَا

وقيل : إلا بمعنى الواو. وأنكرهذا الفرّاء وقال : المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب . وقيل : اللّمم النظرة التى تكون فجأة .

قلت : هـذا فيه بعدٌ إذ هو معفوّ عنه آبتداء غير مؤاخذ به ؛ لأنه يقع من غير قصد وآختيار، وقد مضى فى «النور» (١) بيانه .واللّمم أيضا طرف من الجنون ، ورجل ملموم أى به لَمَمٌ . ويقال أيضا : أصابت فلانا لمّةٌ من الجنّ وهى المسّ والشىء القليل؛ قال الشاعر (٢) :

فإذا وذَلِك يا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ * إلاّ كَلَمَّةِ حالِمٍ بِخَيالِ

الثالثـة ـــ قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » لمن تاب من ذنبه وآستغفر؛ قاله آبن عباس . وقال أبو ميسرة عمرو بن شَرَحْبيل وكان من أفاضل أصحاب آبن مسعود : رأيت فى المنام كأنى دخلت الجنة فإذا قِباب مضروبة ، فقلت : لمن هذه ؟ فقالوا : لذى الكَلَاع وحَوْشَب، وكانا ممن قتل بعضهم بعضًا، فقلت : وكيف ذلك ؟ فقالوا : إنهما لقيا الله فوجداه واسع المغفرة . فقال أبو خالد : بلغنى أن ذا الكَلَاع أعتق آثنى عشر ألف بنت .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ من أنفسكم ﴿ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يعنى أباكم آدم من الطين وخرج اللفظ على الجمع . قال الترمذى-أبو عبد الله : وليس هو كذلك عندنا، بل وقع الإنشاء على التربة التى رفعت من الأرض ، وكنا جميعًا فى تلك التربة وفى تلك الطينة، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذَرْوِ النفوس على آختلاف هيئتها ، ثم آستخرجها من صُلبها على آختلاف الهيئات ؛ منهم كالدرّ يتلألأ ، و بعضهم أنور من بعض، و بعضهم أسود كالحُمَمَة ، و بعضهم أشدّ سوادًا من بعض ؛ فكان الإنشاء واقعًا علينا وعليه . حدّثنا عيسى

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٢٧ .

(٢) هو آبن مقبل . والواو فى « وذلك » زائدة كقول أبى كبير الهذلى :

فإذا وذلك ليس إلا حينه * و إذا مضى شىء كأن لم يفعل

آبن حماد العسقلانى قال: حدثنا بِشر بن بَكرٍ، قال: حدثنا الأوزاعى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عُرِض علىّ الأوّلون والآخرون بين يدى حجرتى هذه الليلة" فقال قائل: يا رسول الله! ومَن مضى من الخلق؟ قال: "نعم عُرِض علىّ آدم فمن دونه فهل كان خُلِق(١) أحد" قالوا: ومن فى أصلاب الرجال وبطون الأمهات؟ قال: "نعم مثلوا فى الطين فعرفتهم كما علم آدم الأسماء كلها".

قلت: وقد تقدّم فى أوّل «الأنعام»(٢) أن كل إنسان يخلق من طين البقعة التى يدفن فيها. ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمع جَنِين وهو الولد ما دام فى البطن، سمى جنينا لآجتنانه وآستتاره. قال عمرو بن كُلثوم:

* هِجانِ اللّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِيناً(٣) *

وقال مكحول: كنا أجنّة فى بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط وكنا فيمن بقى، ثم صرنا رُضّعًا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقى، ثم صرنا يَفَعةً فهلك منا من هلك، وكنا فيمن بقى ثم صرنا شبابًا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقى، ثم صرنا شيوخًا — لا أبالك! — فما بعد هذا ننتظر؟!. وروى آبن لهيعة عن الحرث بن يزيد عن ثابت بن الحرث الأنصارى قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبىّ صغير: هو صِدِّيق؛ فبلغ ذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: "كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد" فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» إلى آخرها. ونحوه عن عائشة: "كان اليهود". بمثله. ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى لا تمدحوها ولا تثنوا عليها، فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ أى أخلص العمل وآتقى عقوبة الله؛ عن الحسن وغيره. قال الحسن: قد علم الله سبحانه كل نفس ما هى عاملة، وما هى صانعة، وإلى ما هى صائرة. وقد مضى فى «النساء» الكلام فى معنى هذه الآية عند قوله

(١) كذا فى ا، ز. وفى ح، ه، س «فهل كان أحد». وفى ب: «فهل كان قبله أحد».

(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٨. (٣) وصدره: * ذراعى حرة أدماء بكر * وهى رواية أبى عبيدة. أى لم تضم فى رحمها ولدا قط.

تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ »[1] فتأمله هناك . وقال ابن عباس : ما من أحد من هذه الأمة أزكيه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ [الآيات[2]] لما بيّن جهل المشركين فى عبادة الأصنام ذكر واحدا منهم معينا بسوء فعله . قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه فعيّره بعض المشركين ، وقال : لِمَ تركتَ دين الأشياخ وضَلَّلتهم[3] و زعمت أنهم فى النار؟ ! قال : إنى خشيت عذاب الله ؛ فضمن له إن هو أعطاه شيئا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ، فأعطى الذى عاتبه بعض ما كان ضمن [له[4]] ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال مقاتل : كان الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل : « وَأَعْطَى قَلِيلًا » أى من الخير بلسانه « وَأَكْدَى » أى قطع ذلك وأمسك عنه . وعنه أنه أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد الإيمان ثم تولى فنزلت : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى » الآية . وقال ابن عباس والسُّدى والكلبي والمسيّب بن شريك : نزلت فى عثمان بن عفان رضى الله عنه كان يتصدّق وينفق فى الخير ، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبى سَرْح : ما هذا الذى تصنع ؟ يوشك ألّا يبقى لك شىء . فقال عثمان : إن لى ذنوبًا وخطايا ، وإنى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه ! فقال له عبد الله : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها . فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن بعض ما كان يصنع [من الصدقة[4]] فأنزل الله تعالى : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله . ذكر ذلك الواحدىّ والثعلبىّ . وقال السّدىّ أيضا : نزلت فى العاص بن وائل السّهمىّ ، وذلك أنه

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦ .　(٢) من ب و ل .　(٣) فى ب و س و هـ : « مللهم » .
(٤) الزيادة من أسباب النزول للواحدى .

كان ربما يوافق النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال محمد بن كعب القرظيّ : نزلت فى أبى جهل ٱبن هشام ، قال : والله ما يأمر محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق ؛ فذلك قوله تعالى : « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » . وقال الضحاك : هو النَّضْر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين ٱرتد عن دينه ، وضمن له أن يتحمل عنه مأثم رجوعه . وأصل « أَكْدَى » من الكُدْية يقال لمن حَفَر بئرًا ثم بلغ إلى حجر لا يتهيأ له فيه حَفْر : قد أَكْدَى ، ثم ٱستعملته العرب لمن أعطى ولم يُتمِّم ، ولمن طلب شيئًا ولم يبلغ آخره . وقال الحُطَيْئة :

فأعطى قليــلًا ثم أَكْدَى عطاءَه * ومن يَبْذُلِ المعروفَ فى الناسِ يُحْمَدِ

قال الكسائيّ وغيره : أَكْدَى الحافرُ وأَجْبل إذا بلغ فى حَفْره كُدْية أو جبــلًا فلا يمكنه أن يحفِر . وحفر فأَكْدَى إذا بلغ إلى الصُّلْب . ويقال : كَدِيت أصابعه إذا كَلَّتْ(١) من الحفر . وكَدِيت يدهُ(٢) إذا كَلَّتْ فلم تعمل شيئًا . وأَكْدَى النَّبتُ إذا قلّ رَيْعه ، وكَدَتِ الأرض تَكْدُو كَدْوًا [وكُدُوًّا] فهى كادِيةٌ إذا أبطأ نباتها ؛ عن أبى زيد . وأَكْدَيْتُ الرجلَ عن الشيء رددته عنه . وأَكْدَى الرجلُ إذا قلّ خيره . وقوله : « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » أى قطع القليل .

قوله تعالى : ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ أى أعند هذا المكدِى علمُ ما غاب عنه من أمر العذاب؟ . « فَهُوَ يَرَى » أى يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة ، وما يكون من أمره حتى يضمن حمل العذاب عن غيره ، وكفى بهــذا جهلًا وحمقًا . وهــذه الرؤية هى المتعدية إلى مفعولين والمفعولان محذوفان ؛ كأنه قال : فهو يرى الغيبَ مثلَ الشهادة .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾

(١) فى ب ، ح ، ز ، س ، هـ : « إذا محلت » .
(٢) فى النسخ السابقة : « وكدت يده » .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ أى صحف ﴿ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ كما فى سورة « الأعلى »[1] « صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » أى لا تؤخذ نفس بدلًا عن أخرى؛ كما قال : ﴿ أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وخصّ صحف إبراهيم وموسى بالذكر؛ لأنه كان مابين نوح و إبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة[2] أخيه وآبنه وأبيه؛ قاله الهذيل بن شرحبيل . « وأنْ » هذه المخففة من الثقيلة وموضعها جرٌّ بدلًا من « ما » أو يكون فى موضع رفع على إضمار هو . وقرأ سعيد بن جبير وقتـادة « وَفَى » خفيفة ومعناها صدق فى قوله وعمله، وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة « وَفَّى » بالتشديد أى قام بجميع مافرض عليه فلم يَخْرِم منه شيئا . وقد مضى فى « البقرة »[3] عند قوله تعالى : « وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » والتوفية الإتمام . وقال أبو بكر الوراق : قام بشرط ما آدعى؛ وذلك أن الله تعالى قال له : « أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »[3] فطالبه الله بصحة دعواه، فابتلاه فى ماله وولده ونفسه فوجده وافيا[4] بذلك؛ فذلك قوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » أى آدّعى الإسلام ثم صحح دعواه . وقيل : وفّى عمله كل يوم بأربع ركعات فى صدر النهار؛ رواه الهيثم عن أبى أمامة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وروى سهل بن سعد الساعدى عن أبيه "أَلَا أخبركم لم سَمَّى الله تعالى خليله إبراهيمَ «الَّذِي وَفَّى» لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ »[5]" الآية . ورواه سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وفّى » أى وَفَّى ما أرسل به ، وهو قوله : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » قال آبن عباس : كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره ، ويأخذون الولىَّ بالولىِّ فى القتل والجراحة؛ فيقتل الرجل بأبيــه وآبنه وأخيه وعمه وخاله وآبن عمه وقريبــه وزوجته وزوجها وعبده ، فبلغهم إبراهيم عليه السلام عن الله تعـالى : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . وقال الحسن وقتـادة وسعيد بن جبير فى قوله تعـالى « وَفَّى » : عمل بمـا أمر به وبلّغ رسالات ربه . وهــذا أحسن ؛ لأنه عام . وكذا قال مجاهد : « وَفَّى » بمـا فرض عليه . وقال أبو مالك

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣ . (٢) فى ل : « بجريمة » . (٣) راجع جـ ٢ ص ٩٨ وص ١٣٤
(٤) فى ز ، ل : « فوجده وافيا » . (٥) راجع جـ ١٤ ص ١٤ .

الغفاري قوله تعالى: « أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » إلى قوله: « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى » في صحف إبراهيم وموسى، وقد مضى في آخر « الأنعام »[1] القول في « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ روى عن ابن عباس أنها منسوخة بقوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »[2] فيحصل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه، ويشفّع الله تعالى الآباء في الأبناء والأبناء في الآباء ؛ يدل على ذلك قوله تعالى : « آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا »[3] . وقال أكثر أهل التأويل : هي محكمة ولا ينفع أحدًا عملُ أحدٍ ، وأجمعوا أنه لا يصلّى أحد عن أحد . ولم يُجز مالك الصيام والحج والصدقة عن الميت، إلا أنه قال : إن أوصى بالحج ومات جاز أن يحج عنه . وأجاز الشافعي وغيره الحج التطوع عن الميّت . وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها آعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه . وروى أن سعد بن عبادة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أمّى توفيت أفأتصدق عنها ؟ قال : " نعم " قال : فأى الصدقة أفضل ؟ قال : " سقى المـاء " . وقد مضى جميع هذا مستوفًى في « البقرة »[4] و « آل عمران »[5] « والأعراف »[6] . وقد قيل : إن الله عز وجل إنمـا قال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » ولام الخفض معناها في العربية الملك والإيجاب فلم يجب[7] للإنسان إلا ما سعى ، فإذا تصدّق عنه غيره فليس يجب له شيء إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له ، كما يتفضل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل. وقال الربيع بن أنس : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » يعنى الكافر وأما المؤمن فله ما سَعَى وما سُعِى له غيره .

قلت : وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول ، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره، وقد تقدّم كثير منهـا لمن تأملها، وليس في الصدقة آختلاف، كما في صدر

(١) راجع ج ٧ ص ١٥٧ وص ٢١٥ . (٢) راجع ص ٦٦ من هذا الجزء .
(٣) راجع ج ٥ ص ٧٤ . (٤) راجع ج ٣ ص ٤٢٨ .
(٥) راجع ج ٤ ص ١٥١ . (٦) هكذا في الأصول ولم نعثر على هذا المعنى في السورة المذكورة .
(٧) في ب ، ح ، ز ، س ، ل ، ه : « فليس يجب » .

كتاب مسلم عن عبد الله بن المبارك . وفى الصحيح : " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث " وفيه " أو ولد صالح يدعو له " وهذا كله تفضل من الله عز وجل، كما أن زيادة الأضعاف فضل منه ، كتب لهم بالحسنة الواحدة عشرًا إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة؛ كما قيل لأبى هريرة : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة " فقال سمعته يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة " فهذا تفضل . وطريق العدل « أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » خاص فى السيئة ؛ بدليل ما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله عز وجل إذا همّ عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئة واحدة " . وقال أبو بكر الوراق : « إِلَّا مَا سَعَى » إلا ما نوى ؛ بيانه قوله صلى الله عليه وسلم : " يُبعث الناس يوم القيامة على نياتهم " .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ أى يُريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ أى يجزى به ﴿ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ . قال الأخفش : يقال جزيته الجزاء، وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما ؛ قال الشاعر :

إنْ أَجزِ عَلقَمَهَ بنَ سَعْدٍ سَعْيَه * لم أَجزِهِ ببَلاءِ يَوْمٍ واحِدِ

فجمع بين اللغتين .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ أى المرجع والمردّ والمصير فيعاقب ويثيب . وقيل : منه ابتداء المِنّة وإليه انتهاء الأمان . وعن أُبىّ بن كعب قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » قال : " لا فكرة فى الربّ " . وعن أنس : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إذا ذكر الله تعالى فانته " .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : " يأتى الشيطان أحدَكم فيقول من خَلَق كذا وكذا حتى يقول له من خَلَق ربَّك فإذا بلغ ذلك فليستعِذْ بالله ولْيَنْته " وقد تقـدّم فى آخر « الأعراف »(١) . ولقد أحسن من قال :

ولا تُفكِرنْ فى ذِى العُلَا عَزّ وجهُهُ(٢) * فإنّكَ تُردَى إنْ فعلتَ وتُخـذَلُ
ودونَك مصنوعَاتِه فاعتَـبِرْ بِهـا * وقُـلْ مِثل ما قال الخلِيـلُ المبَجَّلُ

قوله تعـالى : وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ ذهبت الوسائط و بقيت الحقائق لله سبحانه وتعـالى فلا فاعل إلا هو؛ وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : لا والله ، ما قال رسول الله قطُّ إنّ الميِّت يعذَّب ببكاء أحدٍ، ولكنه قال : " إنّ الكافرَ يزيدهُ الله ببكاء أهله عذابًا و إنّ الله لهو أضحك وأبكى وما تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى " . وعنها قالت : مَرَّ النبىُّ صلى الله عليه وسلم على قوم من أصحابه وهم يضحكون، فقال : " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " فنزل عليه جبريل فقال : يا محمد ! إن الله يقول لك : «وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ» . فرجع إليهم فقـال : " ما خطوت أربعين خطوة حتى أتانى جبريل فقال آيتِ هؤلاء فقل لهم إن الله تعالى يقول : « هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ » أى قضى أسباب الضحك والبكاء . وقال عطاء ابن أبى مسلم : يعنى أفرح وأحزن؛ لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء . وقيل لعمر : هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون ؟ قال : نعم ! والإيمان والله أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى . وقد تقدّم هذا المعنى فى « النمل »(٣) و « براءة »(٤) . قال الحسن :

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٨ .
(٢) من أفكر لغة فى فكر بالتضعيف .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ١٧٥ .
(٤) راجع جـ ٨ ص ٢١٧ .

أضحك الله أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار . وقيل : أضحك من شاء فى الدنيا بأن سَرّه وأبكى من شاء بأن غَمّه . الضحاك : أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر . وقيل : أضحك الأشجار بالنّوّار ، وأبكى السحاب بالأمطار . وقال ذو النون : أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته ، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته . وقال سهل بن عبد الله : أضحك الله المطيعين بالرحمة وأبكى العاصين بالسخط . وقال محمد ابن على الترمذى : أضحك المؤمن فى الآخرة وأبكاه فى الدنيا . وقال بسام بن عبد الله : أضحك الله أسنانهم وأبكى قلوبهم . وأنشد :

السِّنُّ تَضحكُ والأحشاءُ تحترِقُ * وإنما ضِحْكُها زُورٌ ومُختلَقُ

يارُبَّ باكٍ بِعَيْنٍ لادمـوعَ لهـا * ورُبَّ ضاحِكِ سِنٍّ مابِهِ رَمَـقُ

وقيل : إن الله تعالى خصّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان ، وليس فى سائر الحيوان من يضحك ويبكى غير الإنسان . وقد قيل : إن القرد وحده يضحك ولا يبكى ، وإن الإبل وحدها تبكى ولا تضحك . وقال يوسف بن الحسين : سئل طاهر المقدسى أتضحك الملائكة ؟ فقال : ماضحكوا ولا كلّ من دون العرش منذ خلقت جهنم . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أى قضى أسباب الموت والحياة . وقيل : خلق الموت والحياة كما قال : « الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ »(١) قاله ابن بحر . وقيل : أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالإيمان ؛ قال الله تعالى : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ »(٢) الآية . وقال : « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ »(٢) على ما تقدم ، وإليه يرجع قول عطاء : أمات بعدله وأحيا بفضله . وقول من قال : أمات بالمنع والبخل وأحيا بالجود والبذل . وقيل : أمات النطفة وأحيا النَّسَمة . وقيل : أمات الآباء وأحيا الأبناء . وقيل : يريد بالحياة الخصب وبالموت الجدب . وقيل : أنام وأيقظ . وقيل : أمات فى الدنيا وأحيا للبعث . ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ أى من أولاد آدم ولم يرد آدم وحوّاء بأنهما خلقا من نُطْفة .

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٦ (٢) راجع جـ ٧ ص ٧٨ وجـ ٦ ص ٤١٨

والنطفة الماء القليل، مشتق من نطف الماءُ إذا قَطَر. (تُمْنَى) تُصبّ في الرحم وتراق؛ قاله الكلبي والضحاك وعطاء بن أبي رباح. يقال: مَنَى الرجل وأَمْنى من المَنِيّ، وسميت مِنًى بهذا الاسم لما يُمْنَى فيها من الدماء أي يُراق. وقيل: «تُمْنَى» تُقدّر؛ قاله أبو عبيدة. يقال: مَنَيت الشيء إذا قدّرته، ومُنِي له أي قُدِّر له؛ قال الشاعر:(١)

* حتّى تُلاقِيَ ما يَمْنِي لكَ المَانِي *

أي مايقدر لك القادر.

قوله تعالى: وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى: (وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى) أي إعادة الأرواح في الأشباح للبعث. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين والمد؛ أي وعد ذلك ووعده صدق. (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى) قال ابن زيد: أغنى من شاء وأفقر من شاء؛ ثم قرأ «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ»(٢) وقرأ «يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ»(٣) واختاره الطبري. وعن ابن زيد أيضا ومجاهد وقتادة والحسن: «أَغْنَى» موّل «وأَقْنَى» أخدم. وقيل: «أَقْنَى» جعل

---

(١) قائله أبو قلابة الهذلي. وصدره: * ولا تقولن لشيء سوف أفعله * وقيل هو لسويد بن عامر المصطلق. وقبلـــه:

لاتأمن الموت في حل وفي حرم * إن المنايا توافي كل إنسان
واسلك طريقك فيها غير محتشم * حتى الخ ... ...

(٢) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٧ (٣) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧

لكم قِنْية تقتنونها ، وهو معنى أخدم أيضًا . وقيـل : معناه أرضى بمـا أعطى أى أغنـاه ثم رضّاه بما أعطاه ؛ قاله ٱبن عباس . وقال الجوهرى : قَنِيَ الرجل يقْنَى قِنًى؛ مثل غَنِيَ يغْنَى غِنًى ، وأقناه الله أى أعطاه الله مايُقْتنى من القِنْية والنَّشَب . وأقناه[الله]أيضًا أى رضّاه . والقِنَى الرضا ، عن أبى زيد؛ قال وتقول العرب : من أُعطِى مائةً من المعز فقد أعطِى القِنَى، ومن أُعطِى مائةً من الضأن فقد أُعطِىَ الغِنى ، ومن أُعطِىَ مائة من الإبل فقد أُعطى المُنَى . ويقال : أغناه الله وأقناه أى أعطاه مايسكن إليه . وقيل : « أغنى وأقْنَى » أى أغْنَى نفسه وأفقر خلقه إليه ؛ قاله سليمان التيمى . وقال سفيان : أغنى بالقناعة وأقنى بالرضـا . وقال الأخفش : أقنى أفقر . قال ٱبن كيسان : أولد . وهذا راجع لمـا تقدّم . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ « الشِّعْرَى » الكوكب المضىء الذى يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه فى شدّة الحرّ ، وهما الشّعريان العَبُور التى فى الجوزاء والشِّعرى الغُمَيْصَاءُ التى فى الذراع ؛ وتزعم العرب أنهما أختا سُهَيل . وإنما ذكر أنه رَبُّ الشِّعْرى وإن كان ربًّا لغيره ؛ لأن العرب كانت تعبده ؛ فأعلمهم الله جل وعز أنّ الشِّعْرى مربوب وليس بربّ . وٱختلف فيمن كان يعبده ؛ فقال السدى : كانت تعبده حِمْـير وخُزَاعة . وقال غيره : أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبيّ صلى الله عليه وسـلم ٱبن أبى كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهـم ؛ وقالوا : ما لقينـا من ٱبن أبى كبشة ! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقـد وقف فى بعض المضايق وعساكر رسول الله صلى الله عليه وسـلم تمرّ عليه : لقد أَمِرَ أَمْرُ ٱبنِ أبى كبشة . وقد كان من لايعبد الشِّعْرى من العرب يعظّمها ويعتقد تأثيرها فى العالم ، قال الشاعر :

مضَى أَيْلُولُ وٱرتفـعَ الحَـرُورُ * وأَخْبَتْ نارَها الشِّعرى العَبُـورُ

وقيل : إن العرب تقول فى خرافاتها : إن سُهيلاً والشِّعرى كانا زوجين، فانحدر سُهَيل فصار يمـانيا، فاتبعته الشِّعرى العَبُور فعبرت المجرة فسميت العبـور ، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت

لفقد سُهَيل حتى غَمِصت عيناه، فسمِّيت غميصاء لأنها أخفى من الأخرى . ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾(١) سماها الأولى لأنهم كانوا مِن قبل ثمود . وقيل : إن ثمود مِن قبل عاد . وقال آبن زيد : قيل لها عاد الأولى لأنها أول أمة أهلكت بعد نوح عليه السلام. وقال آبن إسحق : هما عادان فالأولى أهلكت بالريح الصّرصر، ثم كانت الأخرى فأهلكت بالصيحة . وقيل: عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وعاد الثانية من ولد عاد الأولى؛ والمعنى متقارب . وقيل : إن عاد الآخرة الجبارون وهم قوم هود . وقراءة العامة « عَادًا الْأُولَى » ببيان التنوين والهمز . وقرأ نافع وآبن مُحَيصن وأبو عمرو « عَادًا الُّولَى » بنقل حركة الهمزة إلى اللام و إدغام التنوين فيها ، إلا أنّ قالون والسوسى يظهران الهمزة الساكنة . وقلبها الباقون واوًا على أصلها؛ والعرب تقلب هذا القلب فتقول: قُم الّان عنّا وضُمّ لِثْنَين أى قم الآن وضم الآثنين ﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾(٢) ثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة . قرئ « ثَمُودًا » « وَثَمُود » وقد تقدّم . وآنتصب على العطف على عاد . ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ وذلك لطول مدّة نوح فيهم، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد آبنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول : آحذر هذا فإنه كذّاب ، و إن أبى قد مشى بى إلى هذا وقال لى مثل ماقلت لك ؛ فيموت الكبير على الكفر، و ينشأ الصغير على وصية أبيه . وقيل: إن الكناية ترجع إلى كلّ مَن ذُكر من عاد وثمود وقوم نوح؛ أى كانوا أكفر من مشركى العرب وأطغى . فيكون فيه تسلية وتعزية للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فكأنه يقول له : فآصبر أنت أيضًا فالعاقبة الحميدة لك . ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ يعنى مدائن قوم لوط عليه السلام آئتفكت بهم ، أى انقلبت وصار عاليها سافلها . يقال : أَفَكْته أى قلبته وصرفته . « أَهْوَى » أى خسف بهم بعد رفعها إلى السماء ؛ رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض . وقال المبرّد : جعلها تهوِى . ويقال : هَوَى بالفتح يَهْوِى هُوِيًّا أى سقط

(١) فى ب ، ح س و هـ : « من نسل عاد » .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨ .

و « أَهْوَى » أى أسقط . ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ أى ألبسها ما ألبسها من الحجـارة ؛ قال الله تعـالى : « فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ »(١) وقيل : إن الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم ؛ أى غَشَّاها من العذاب ما غشاهم ، وأبهم لأن كُلًّا منهم أهلِك بضرب غير ما أُهلِك به الآخر . وقيل : هــذا تعظيم الأمر . ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ أى فبأى نِعَم ربّك تشـكّ . والمخاطبة للإنسان المكذب . والآلاء النعـم واحدها أَلًى وإِلًى وإِلْيٌ . وقرأ يعقوب « تَّمَارَى » بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى والتشديد .

قوله تعـالى : هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ قال ابن جُرَيج ومحمـد بن كعب : يريد أن محمدًا صلى الله عليه وسـلم نذير بالحق الذى أنذر به الأنبياء قبـله ، فإن أطعتموه أفلحتم ، وإلّا حلّ بكم ما حلّ بمكذّبى الرسل السالفة . وقال قتادة : يريد القرآن ، وأنه نذير بما أُنذرت به الكتب الأولى . وقيل : أى هذا الذى أخبرنا به من أخبار الأمم المـاضية الذين هلكوا تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر أى مثل النذر ؛ والنذر فى قول العرب بمعنى الإنذار كالنُّكُر بمعنى الإنكار ؛ أى هذا إنذار لكم . وقال أبو مالك : هذا الذى أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هــو فى صحف إبراهيم وموسى . وقال السدى أخبرنى أبو صالح قال : هذه الحروف التى ذكر الله تعالى من قوله تعالى : « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَـا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ » إلى قوله : « هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى » كل هذه فى صحف إبراهيم وموسى .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٢ .

قوله تعـالى : ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ أى قربت الساعة ودنت القيامة . وسماها آزفة لقرب قيامها عنده ؛ كما قال : « يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا »(١) . وقيل : سماها آزفة لدنوها من الناس وقربها منهم ليستعدّوا لها ؛ لأن كل ما هو آت قريب . قال :

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غيرَ أنّ رِكَابَنَا * لمَّا تَزَلْ بِرِحالنا وكَأَنْ قَـدِ

وفى الصحاح : أَزِف الترحل يَأْزَف أَزَفًا أى دنا وأَفِد ؛ ومنه قوله تعـالى : « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ » يعنى القيامة ، وأزِف الرجل أى عَجِـل فهو آزِف على فاعل ، والمتآزِف القصير وهو المتدانى . قال أبو زيد : قلت لأعرابى ما المُحْبَنْطِئُ؟ قال : المتكأْكِئُ . قلت : ما المُـتَكأْكِئُ؟ قال : المتآزِف . قلت : ما المتآزف؟ قال : أنت أحمق وتركنى ومرّ . ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أى ليس لها من دون الله من يؤخرها أو يقدّمها . وقيل : كاشفة أى آنكشاف أى لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله ؛ فالكاشفة آسم بمعنى المصدر والهاء فيه كالهاء فى العاقبة والعافية والداهية والباقية ؛ كقولهم : ما لفلان من باقية أى من بقاء . وقيل : أى لا أحد يردّ ذلك ؛ أى إن القيامة إذا قامت لا يكشفها أحد من آلهتهم ولا يُنجيهم غير الله تعـالى . وقد سميت القيامة غاشية ، فإذا كانت غاشية كان ردّها كشفًا ، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف ؛ أى نفس كاشفة أو فرقة كاشفة أو حال كاشفة . وقيل : إن « كاشفة » بمعنى كاشف والهاء للبالغة مثل راوية وداهية .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَمِنْ هَـذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن . وهذا آستفهام توبيخ ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ تكذيبًا به ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ آنزجاراً وخوفاً من الوعيد . وروى أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم ما رؤى بعد نزول هـذه الآية ضاحكًا إلا تبسّمًا . وقال أبو هريرة : لمـا نزلت « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ » قال أهل الصفة : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُـونَ » ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلمـا سمع النبىّ صلى الله عليـه وسلم بكاءهم بكى معهم فبكينا لبكائه ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لا يلِج النارَ مَن بكى من

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٤ .

خشية الله ولا يدخل الجنة مُصِرٌّ على معصــية الله ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقــوم يذنبون فيغفر لهم ويرحمهم إنه هو الغفور الرحيم " . وقال أبو حازم : نزل جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعنده رجل يبكى ، فقال له : من هــذا ؟ قال : هــذا فلان ؛ فقال جبريل : إنا نزِن أعمال بنى آدم كلها إلا البكاء ، فإن الله تعالى ليطفئ بالدمعة الواحدة بحورا من جهنم .

قوله تعـالى : ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ أى لا هون معرضون . عن ابن عباس ؛ رواه الوالبيّ والعوفيّ عنه . وقال عكرمة عنه : هو الغناء بلغة حِمْيَر ؛ يقال : سَمَّد لنا أى غنِّ لنا ، فكانوا إذا سمعــوا القرآن يتلى تغنوا ولعبــوا حتى لا يسمعوا . وقال الضحاك : سامدون شامخــون متكبرون . وفى الصحاح : سَمَدَ سُمُوداً رفع رأسه تكبُّراً وكل رافع رأسه فهو سامد ؛ قال[1] :

* سَوَامِدُ اللَّيْلِ خِفَافُ الأَزْوَادْ *

يقــول : ليس فى بطونها علف . وقال ابن الأعرابى : سَمَدت سُمُودا علوت . وسَمَدَت الإبلُ فى ســيرها جدّت . والسُّمُود اللهو ، والسامد اللاهى ؛ يقـال للقَيْنة : أَسْمِدينا ؛ أى ألهينا بالغناء. وتسميد الأرض أن يجعل فيها السماد وهو سِرْجين ورَماد. وتسميد الرأس استئصال شعره، لغة فى التسبيد . واسمأدّ الرجل بالهمز اسمئدادًا أى وَرِم غضباً. وروى عن علىّ رضى الله عنه أن معــنى « سَامِدُونَ » أن يجلســوا غير مصلّين ولا منتظرين الصــلاة . وقال الحسن : واقفون للصلاة قبــل وقوف الإمام؛ ومنه ما روى عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم أنه خرج والناس ينتظرونه قياماً فقال : " مالى أراكم سامدين " حكاه المــاوردى . وذكره المهــدوى عن علىّ ، وأنه خرج إلى الصلاة فرأى الناس قياماً [ينتظرونه] فقال : " مالكم سامدون " قاله المهدوى . والمعروف فى اللغة : سَمَد يَسْمُد سُمُوداً إذا لَهَا وأعرض . وقال المبرّد : سامدون خامدون ؛ قال الشاعر :

أَتَى الحِــدْثَانُ نِسوةَ آلِ حَرْبٍ　*　بِمَقْــدورٍ سَمَــدْنَ له سُمُــودَا

(١) قائله رؤبة بن العجاج يصف إبلا .

وقال صالح أبو الخليل : لمـا قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ. وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ » لم يُرَ ضاحكاً إلا مبتسماً حتى مات صلى الله عليه وسلم . ذكره النحاس .

قوله تعـالى : ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ قيـل : المراد به سجود تلاوة القـرآن . وهو قول ابن مسعود . وبه قال أبو حنيفة والشافعي . وقد تقـدّم أوّل السورة من حديث ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم سجد فيها وسجد معه المشركون . وقيل : إنمـا سجد معه المشركون لأنهم سمعوا أصوات الشياطين فى أثناء قراءة رسول الله صلى الله عليه وسـلم عند قوله : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى » وأنه قال : تلك الغَرانيقُ العُـلا وشفاعتهنّ تُرْتَجَى . كذا فى رواية سـعيد بن جُبير ترتجى . وفى رواية أبى العاليـة وشفاعتهنّ ترتضى، ومثلهنّ لا يُنْسَى . ففرح المشركون وظنوا أنه من قول محمد صلى الله عليه وسـلم على ما تقدّم بيانه فى « الحج »[1] . فلما بلغ الخبر بالحبشة مَن كان بها من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم رجعوا ظنًّا منهم أنّ أهل مكة آمنوا ؛ فكان أهل مكة أشدّ عليهم وأخذوا فى تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهـم . وقيل : المراد سجود الفرض فى الصلاة وهو قول ابن عمر ؛ كان لا يراها من عزائم السجود . وبه قال مالك . وروى أبيّ بن كعب رضى الله عنـه : كان آخر فعل النبيّ صلى الله عليه وسـلم ترك السجود فى المفصّل . والأوّل أصح وقد مضى القول فيه آخر « الأعراف »[2] مبينًا والحمد لله رب العالمين . تم تفسير سورة « والنجم » .

---

(١) هذه الأخبار من المفتريات على المعصوم سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ، ولا يمكن أن ينطق بما هو نقيض القرآن ، ولا يمكن أن ينطق على لسانه الشيطان . وكل ما كان من هذا المعنى فهو باطل وضعته الملاحدة للدخول به إلى الطعن فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسـلم أو فى الوحى أو فى القرآن وهو الذى لا ينطق عن الهوى . راجع ما كتبه المصنف عن هذا الحديث فى جـ ١٢ ص ٨٠ .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ .

سورة القمر

مكية كلها في قول الجمهور . وقال مقاتل : إلا ثلاث آيات من قوله تعالى : «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ» إلى قوله : «وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» ولا يصح على ما يأتي. وهي خمس وخمسون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ «ٱقْتَرَبَتِ» أي قربت مثل «أَزِفَتِ الْآزِفَةُ»[(١)] على ما بيناه . فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة؛ لأنه قد مضى أكثر الدنيا كما روى قتادة عن أنس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كادت الشمس تغيب فقال : "ما بقي من دنيا كم فيما مضى إلا مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى" وما نرى من الشمس إلا يسيرا . وقال كعب ووهب : الدنيا ستة آلاف سنة. قال وهب : قد مضى منها خمسة آلاف سنة وستمائة سنة . ذكره النحاس .

ثم قال تعالى : «وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ» أي وقد انشق القمر . وكذا قرأ حذيفة «ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَقَدِ ٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ» بزيادة «قد» وعلى هذا الجمهور من العلماء؛ ثبت ذلك في صحيح

---

(١) راجع ص ١٢٢ من هذا الجزء .

البخاري وغيره من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وجبير بن مُطْعِم وابن عباس رضي الله عنهم . وعن أنس قال : سأل أهل مكة النبيّ صلى الله عليه وسلم آية، فانشقّ القمر بمكة مرتين فنزلت : «ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ» إلى قوله : «سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ» يقول ذاهب قال أبو عيسى الترمذيّ : هذا حديث حسن صحيح . ولفظ البخاريّ عن أنس قال : انشق القمر فرقتين . وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعدُ وهو منتظر ؛ أي اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر ؛ وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره . وكذا قال القشيري . وذكر الماورديّ : أن هذا قول الجمهور ، وقال : لأنه إذا انشق ما بقي أحد إلا رآه ؛ لأنه آية والناس في الآيات سواء . وقال الحسن : اقتربت الساعة فإذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية . وقيل : «وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ» أي وضح الأمر وظهر ؛ والعرب تضرب بالقمر مثلا فيما وضح ؛ قال :

أقيمُوا بَني أمي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ * فإني إلى حَيٍّ سواكم لَأَمْيَلُ
فقد حُمّت الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ * وشُدّت لِطيّاتٍ مَطايا وأرْحُلُ

وقيل : انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة[1] عنه بطلوعه في أثنائها ، كما يسمى الصبح فلقاً ؛ لانفلاق الظلمة عنه . وقد يعبر عن انفلاقه بانشقاقه كما قال النابغة :

فلمّا أدبَرُوا ولَهُمْ دَوِيٌّ * دعانا عِند شَقِّ الصُّبح داعِ

قلت : وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة ، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها ؛ لأنها كانت آية ليلية ؛ وأنها كانت باستدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم من الله تعالى عند التحدّي . فروى أنّ حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضباً من سبّ أبي جهل الرسول صلى الله عليه وسلم طلب أن يريه آية يزداد بها يقينا في إيمانه . وقد تقدّم في الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر فلقتين كما في حديث ابن مسعود وغيره . وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت ، وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : هو على

(١) في تفسير الجمل نقلا عن القرطبي : « زوال الظلمة » .

التقديم والتأخير، وتقديره آنشق القمـر وآقتربت الساعة؛ قاله آبن كيسان. وقد مرّ عن الفـراء أن الفعلـين إذا كانا متقاربي المعنى فلك أن تقدّم وتؤخر عنـد قوله تعـالى: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» [1].

قوله تعـالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ هذا يدل على أنهم رأوا آنشقاق القمر. قال آبن عباس: آجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إن كنت صادقًا فآشقق لنـا القمر فرقتين، نصف على أبي قُبَيس ونصف على قُعَيْقعَان؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن فعلت تؤمنون" قالوا: نعم؟ وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّه أن يعطيه ما قالوا؛ فانشق القمر فرقتين، ورسول الله صلى الله عليه يناديِ المشركين: "يا فلان يافلان آشهدوا". وفي حديث آبن مسعود: آنشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت قريش: هذا من سحر آبن أبي كبشة، سَحَرَكم فآسألوا السُّفَّار؛ فسألوهم فقالوا: قد رأينا القمر آنشق فنزلت: «آقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَآنْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُـوا» أي إن يروا آية تدل على صدق محمد صلى الله عليـه وسلم أعرضوا عن الإيمـان ﴿وَيَقُولُوا سِحْـرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ أي ذاهب؛ من قـولهم: مَرَّ الشيءُ وآستمـر إذا ذهب؛ قاله أنس وقتـادة ومجاهد والفراء والكسائي وأبو عبيدة، وآختاره النحاس. وقال أبو العالية والضحاك: محكَم قويّ شديد، وهو من المِرّة وهي القوّة؛ كما قال لقيط:

حتى آستمرّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ * مُرُّ العَزِيمَةِ لَا [قَحْمًا] [2] ولا ضَرَعًا

وقال الأخفش: هـو مأخوذ من إمرار الحبل وهو شـدّة فتله. وقيـل: معناه مُرٌّ من المرارة. يقال: أَمَرَّ الشيء صار مُرًّا، وكذلك مَرَّ الشيءُ [يَمَرُّ] بالفتح مرارة فهو مُرٌّ، وأمَرّه غيره ومَرَّه. وقال الربيع: مستمر نافذ. يمان: ماض. أبو عبيدة: باطل. وقيل: دائم. قال [3]:

* وليس على شيء قـويم بمُسْتَمِرّ *

(١) راجع ص ٨٩ من هذا الجزء. (٢) راجع هامش ص ٨٦ من هذا الجزء في شرح البيت.

(٣) البيت لآمرئ القيس وصدره: * ألا إنما الدنيا ليال وأعصر *

أى بدائم . وقيل : يشبه بعضه بعضا؛ أى قد آستمرت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتى بشىء له حقيقة بل الجميع تخييلات. وقيل: معناه قد مر من الأرض إلى السماء. ﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ نبيّنا ﴿ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى ضلالاتهم وآختياراتهم. ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أى يستقر بكل عامل عمله ، فالخير مستقر بأهله فى الجنة ، والشر مستقر بأهله فى النار .

وقرأ شيبة « مُسْتَقَر » بفتح القاف؛ أى لكل شىء وقت يقع فيه من غير تقدّم وتأخر . وقد روى عن أبى جعفر بن القَعْقَاع «وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍّ» بكسر القاف والراء جعله نعتا لأمر و « كُلُّ » على هذا يجوز أن يرتفع بالابتداء والخبر محذوف، كأنه قال: وكل أمر مستقر فى أم الكتاب كائن . ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة ؛ المعنى : آقتربت الساعة وكل أمرٍ مستقر ؛ أى آقترب آستقرار الأمور يوم القيامة . ومن رفعه جعله خبرًا عن « كلّ » .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ ٱلْأَنْبَاءِ﴾ أى من بعض الأنباء؛ فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنهم يحتاجون إليه ، وأن لهم فيه شفاء . وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك، وإنما آقتص علينا ما علم أن بنا إليه حاجة وسكت عما سوى ذلك ؛ وذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ ٱلْأَنْبَاءِ » أى جاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أى ما يزجرهم عن الكفر لو قبلوه. وأصله مُزْتَجَر فقلبت التاء دالا؛ لأن التاء حرف مهموس والزاى حرف مجهور ، فأبدل من التاء دالًا توافقها فى المخرج وتوافق الزاى فى الجهر . و « مُزْدَجَر » من الزجر وهو الانتهاء ، يقال : زجره وآزدجره فآنزجر وآزدجر ، وزجرته أنا فانزجر أى كففته فكف ، كما قال :

فأصبحَ ما يطلبُ الغانيا * تُ مُزْدَجَرًا عن هواه آزدجارا

وقرئ « مُزَّجَرٌ » بقلب تاء الافتعال زايا و إدغام الزاى فيها ؛ حكاه الزمخشرى .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ يعنى القرآن وهو بدل من « ما » من قوله : « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » . ويجوز أن يكون خبر آبتداء محذوف ؛ أى هو حكمة . ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾

إذا كذبوا وخالفوا كما قال الله تعالى : « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ »[١] فـ « مَا » نفى أى ليست تغنى عنهم النذر . ويجــوز أن يكون ٱستفهاما بمعنى التوبيخ ؛ أى فأى شىء تغنى النذر عنهم وهم معرضون عنها . و « النُّذُرُ » يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم . قيل : هــذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو تمام الكلام . ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ العامل فى « يَوْمَ » « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أو « خُشَّعًا » أو فعل مضمر تقديره وٱذكر يوم . وقيل : على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر ، تقديره : فتولّ عنهم فإن لهم يوم يدعو الداعى . وقيل : تولَّ عنهم يا محمد فقد أقمت الحجــة وأبصرهم يوم يدعو الداعى . وقيــل : أى أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم ، فإنهــم يدعون ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ وينالهم عذاب شديد . وهو كما تقول : لا تسأل عما جرى على فلان إذا أخبرته بأمر عظيم . وقيــل : أى وكلّ أمر مستقر يوم يدعــو الداعى . وقــرأ ٱبن كثير « نُكْرٍ » بإسكان الكاف ، وضمهــا الباقون وهما لغتان كعُسْر وعُسُر وشُغْل وشُغُل ، ومعناه الأمر الفظيع العظيم وهو يوم القيامة . والداعى هو إسرافيل عليه السلام . وقد روى عن مجاهد وقتادة أنهما قرآ « إِلَىٰ شَيْءٍ نُكِرَ » بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول . ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ الخشوع فى البصر الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العزّ والذّل يتبين فى ناظر الإنسان ؛ قال الله تعالى : « أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ »[٢] وقال تعالى : « خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ »[٣] . ويقال : خَشَع وٱختَشَع إذا ذلّ . وخَشَع ببصره أى غضّه . وقرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو « خَاشِعًا » بالألف ويجوز فى أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد، نحو : « خَاشِعًا أَبْصَارُهُمْ » والتأنيث نحو : « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ »[٤] ويجوز الجمع نحو: « خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ » قال[٥] :

وَشَبَابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُـــمْ ✽ مِنْ إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَــدْ

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٦ (٢) راجع جـ ٩، ص ١٩٤ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٤٥ .
(٤) راجع جـ ١٨ ص ٢٤٨ (٥) هو الحارث بن دوس الإيادى، ويروى لأبى دؤاد الإيادى .

و « خُشَّعًا » جمع خاشع والنصب فيه على الحال من الهاء والميم فى « عَنْهُمْ » فيقبح الوقف على هذا التقدير على « عَنْهُمْ » . ويجوز أن يكون حالا من المضمر فى « يَخْرُجُونَ » فيوقف على « عَنْهُمْ » . وقرئ « خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ » على الابتـداء والخبر، ومحل الجملة النصب على الحال، كقوله :

* [وجدته][1] حَاضِرَاه الجودُ والكَرَمُ *

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أى القبور واحدها جدث . ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ . وقال فى موضـع آخر : « يَوْمَ يَكُونُ النَّـاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ »[2] فهما صفتان فى وقتين مختلفين؛ أحدهما ـــ عند الخروج من القبور، يخرجون فزِعين لايهتدون أين يتوجهون ، فيدخل بعضهم فى بعض ؛ فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه فى بعض لا جهة له يقصدها [الثانى][3] ـــ فإذا سمعوا المنادى قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر ؛ لأن الجراد له جهـة يقصدها . و « مُهْطِعِينَ » معناه مسرعيـــن ؛ قاله أبو عبيدة . ومنـه قول الشـاعر :

بِدِجْلَةَ دَارُهُمْ[4] ولقـد أراهم * بِدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّماعِ

الضحاك : مقبلين . قتادة : عامدين . ابن عباس : ناظرين . عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت . والمعنى متقارب . يقال : هَطَعَ الرجلُ يَهْطَعُ هُطُوعا إذا أقبـل على الشىء ببصره لايقلع عنه ؛ وأهطع إذا مدّ عنقه وصوّب رأسه . قال الشاعر[5] :

تَعَبَّدَنِى نِمْرُ بْنُ سَعْدٍ وقد أُرَى * ونِمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِى مُطِيعٌ ومُهْطِعُ

وبعير مُهْطِع : فى عنقه تصويبٌ خِلْقـةً . وأهطع فى عَدْوه أى أسرع . ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ يعنى يوم القيامة لمـا ينالهم فيه من الشدّة .

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للسمين .
(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٦٥ .
(٣) الزيادة من مفصل إعراب القرآن وغيره .
(٤) فى اللسان : « أهلها » .
(٥) قائله تبع .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ
بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ
قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً
لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكر جملا من وقائع الأمم الماضية تأنيسا للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتعزية له . « قَبْلَهُمْ » أى قبل قومك . ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ يعنى نوحا . الزَّمَخْشَرِيّ : فإن قلت ما معنى قوله : « فَكَذَّبُوا » بعد قوله : « كَذَّبَتْ » ؟ قلت : معناه كذّبوا فكذّبوا عبدنا ؛ أى كذّبوه تكذيبا على عقب تكذيب ؛ كلما مضى منهم قَرْن مكذِّب تبعه قَرْن مكذّب ، أو كذّبت قوم نوح الرسل فكذّبوا عبدنا ؛ أى لما كانوا مكذّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأسا كذّبوا نوحا لأنه من جملة الرسل . ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ أى هو مجنون ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ أى زجر عن دعوى النبوة بالسبّ والوعيد بالقتل . وقيل إنما قال : « وَازْدُجِرَ » بلفظ مالم يسم فاعله لأنه رأس آية . ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ أى دعا عليهم حينئذ نوح وقال : رَبِّ ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ ﴾ أى غلبونى بتمردهم ﴿ فَانْتَصِرْ ﴾ أى فانتصر لى . وقيل : إن الأنبياء كانوا لايدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجل لهم فيه . ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ أى فأجبنا دعاءه وأمرناه باتخاذ السفينة وفتحنا أبواب السماء ﴿ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ أى كثير ؛ قاله السدّى . قال الشاعر :

أعينيَّ جُودَا بالدُّموعِ الهَوَامِرِ * على خيرِ بادٍ من مَعَدٍّ وحاضِرِ

وقيل : إنه المنصبّ المتدفّق ؛ ومنه قول آمرئ القيس يصف غيثا :

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثم ٱنْتَحَى * فيه شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِر[1]

الهَمْر الصبّ ؛ وقد هَمَر المــاءَ والدّمعَ يَهمِرُ هَمْرا. وهَمَر أيضا إذا أكثر الكلام وأسرع . وهَمَر له من ماله أى أعطاه. قال ٱبن عباس: ففتحنا أبواب السماء بماء [مُنْهَمِرٍ][2] من غير سحاب لم يقلع أربعين يوما . وقرأ ٱبن عامر ويعقوب : « فَفَتَّحْنَا » مشدّدة على التكثير . الباقون « فَفَتَحْنَا » مخففا . ثم قيل : إنه فتح رتاجها وسعة مسالكها . وقيل: إنه المجرّة وهى شَرَج السماء ومنها فتحت بماء منهمر ؛ قاله علىّ رضى الله عنه . ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ قال عُبَيد ابن عُمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجّرت بالعيون، وإن عيناً تأخرت فغضب عليها فجعل ماءها مُرّا أُجاجًا إلى يوم القيامة . ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ أى ماء السماء وماء الأرض ﴿ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أى على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ؛ حكاه ٱبن قتيبة . أى كان ماء السماء والأرض سواء . وقيل : « قُدِرَ » بمعنى قضى عليهم . قال قتادة : قدر لهم إذا كفروا أن يُغرَقُوا . وقال محمد بن كعب : كانت الأقوات قبل الأجساد ، وكان القدر قبل البلاء؛ وتلا هذه الآية . وقال : « الْتَقَى الْمَاءُ » والالتقاء إنما يكون فى ٱثنين فصاعدا ؛ لأن المــاء يكون جمعا وواحدا . وقيل : لأنهما لمــا ٱجتمعا صارا ماء واحدا. وقرأ الجحدرى : « فَالْتَقَى الْمَاءَانِ » . وقــرأ الحسن : « فَالْتَــقَى الْمَــاوَانِ » وهمــا خلاف المرســوم . القُشيرى : وفى بعض المصاحف « فَالْتَقَى الْمَــاوَانِ » وهى لغة طيّئ . وقيل : كان ماء السماء باردًا مثل الثلج وماء الأرض حارا مثل الحميم . ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أى على سفينة ذات ألواح . ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ قال قتادة : يعنى المسامير التى دُسِرت بهــا السفينة أى شُــدّت ؛ وقاله القُرظىّ وٱبن زيد وٱبن جبير، ورواه الوالبى عن ٱبن عباس . وقال الحسن وشَهْــر بن حَوْشَب وعكرمة : هى صدر السفينة التى تضرب بها الموج سُمّيت بذلك لأنها تَدْسُر المــاء أى تدفعه، والدّسْرُ الدفع والمخر ؛ ورواه العوفى عن ٱبن عباس قال : الدّسْر كَلْكَلُ[3] السفينة .

---

(١) راح : أى عاد فى الرواح ؛ كأن المطر كان فى أول النهار ثم عاد فى آخره . وتمريه : تستدرّه ، وأصله من مرى الضرع وهو مسحه ليدرّ . والشؤبوب : الدفعة من المطر . وخص الصبا لأنهم يمطرون بها .

(٢) الزيادة من ط . (٣) الكلكل : الصدر .

وقال الليث : الدِّسار خيط من ليف تُشد به ألواح السفينة . وفى الصحاح : الدِّسار واحد الدُّسر وهى خيوط تشدّ بها ألواح السفينة ، ويقال : هى المسامير ، وقال تعالى : « عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ » . ودُسْر أيضا مثل عُسُر وعُسْر . والدَّسْر الدفع ؛ قال ابن عباس فى العنبر : إنما هو شيء يَدْسُره البحر دَسْرًا أى يدفعه . ودَسَره بالرمح . ورجل مِدْسر . ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أى بمرأى منّا . وقيل : بأمرنا . وقيل : بحفظ منّا وكِلَاءة : وقد مضى فى « هود »[(١)] . ومنه قول الناس للمودَّع : عين الله عليك ؛ أى حفظه وكِلاءته . وقيـــل : بِوَحينا . وقيل : أى بالأعين النابعة من الأرض . وقيل : بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها ، وكل ماخلق الله تعـالى يمكن أن يضاف إليه . وقيل : أى تجرى بأوليائنا ، كما فى الخبر : مرض عين من عيوننا فلم تعده . ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ أى جعلنا ذلك ثوابا وجزاء لنوح على صبره على أذى قومه وهو المكفور به ؛ فاللام فى « لِمَنْ » لام المفعول له ؛ وقيـــل : « كُفِرَ » أى جحد ؛ فـ « ـمن » كناية عن نوح . وقيل : كناية عن الله والجزاء بمعنى العقاب ؛ أى عقابا لكفرهم بالله تعالى . وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد « جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ » بفتح الكاف والفاء بمعنى : كان الغـــرق جزاءً وعقاباً لمن كفر بالله ، وما نجا من الغرق غير عوج بن عنق[(٢)] ؛ كان المـــاء إلى حُجْزته . وسبب نجاته أن نوحا احتاج إلى خشبة الساج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها ، فحمل عُوجٌ تلك الخشبة إليه من الشام فشكر الله له ذلك ، ونجّاه من الغرق . ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ يريد هذه الفعلة عبرةً . وقيل : أراد السفينة تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذّبون الرسل . قال قتادة : أبقاها الله بِبَاقِرْدَى من أرض الجزيرة عبرة وآية ، حتى نظرت إليها أوائل هـــذه الأمة ، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رمادا . ﴿ فَهَـلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ مُتَّعظ خائف ، وأصله مُذْتَكِر مُفْتَعِل من الذكر ، فثقلت على الألسنة فقلبت التاء دالاً لتوافق الذال فى الجهر وأدغمت الذال فيهـا . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أى إنذارى ؛

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٠ .

(٢) عوج بن عنق هو المشهور والذى صوبه صاحب القاموس هو ابن عوق لاعنق .

قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران . وقيل : « نُذُر » جمع نذير ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ أى سهلناه للحفظ وأعنّا عليه من أراد حفظه ؛ فهل من طالب لحفظه فيعان عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيّأناه للذكر [مأخوذ](١) من يَسّر ناقته للسَّفر : إذا رَحَلها ، ويَسّر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه ؛ قال :

وقُمْتُ إليه باللِّجام مُيَسِّرًا * هُنَالِكَ يَجْزِيني الذى كنتُ أَصْنَعُ

وقال سعيد بن جبير : ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهرا إلا القرآن ؛ وقال غيره : ولم يكن هذا لبنى إسرائيل ، ولم يكونوا يقرءون التوراة إلا نظرًا ، غير موسى وهرون ويوشع ابن نون وعزير صلوات الله عليهم ، ومن أجل ذلك افتتنوا بعزير لما كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت ؛ على ماتقدّم بيانه فى سورة « براءة »(٢) فيسرّ الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذّكّروا مافيه ؛ أى يفتعلوا الذّكر ، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم . ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ قارئ يقرؤه . وقال أبو بكر الوراق وابن شَوْذب : فهل من طالب خير وعلم فيعانَ عليه ، وكرّر فى هذه السورة للتنبيه والإفهام . وقيل : إن الله تعالى اقتص فى هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبي أمورهم وأمور المرسلين(٣) ؛ فكان فى كل قصة ونبأ ذكر للستمع أن لو ادّكر ، وإنما كرّر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله : « فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » لأن « هَلْ » كلمة استفهام تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم وجعلها حجة عليهم ؛ فاللام من « هَلْ » للاستعراض(٤) والهاء للاستخراج .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

(١) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبي . (٢) راجع جـ ٨ ص ١١٧ .
(٣) فى ط ، ل : المسلمين ، وما أثبتناه فى ا و ب و جـ و هـ . (٤) فى ى : « للاستغراق » .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ هم قوم هـود . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ وقعت « نُذُر » في هذه السورة في ستة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف ، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين ، وورش في الوصل لا غير ، وحذف الباقون . ولا خلاف في حذف الياء من قوله : « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ » والواو من قوله : « يَدْعُ » فأما الياء من « الدَّاعِ » الأول فأثبتها في الحالين ٱبن مُحيصن ويعقوب وحُميد والبَزّي ، وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل ، وحذف الباقون . وأما « الدَّاعِ » الثانية فأثبتها يعقوب وٱبن مُحَيْصن وٱبن كثير في الحالين ، وأثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل، وحذفها الباقون . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ أي شديدة البرد ؛ قاله قتادة والضحاك . وقيل : شديدة الصوت . وقد مضى في « حم السجدة »(١) . ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ أي في يوم كان مشئوما عليهم . وقال ٱبن عباس : أي في يوم كانوا يتشاءمون به . الزجاج : قيل في يوم أربعاء . ٱبن عباس : كان آخر أربعاء في الشهر أفنى صغيرهم وكبيرهم . وقرأ هرون الأعور « نَحِسٍ » بكسر الحاء وقد مضى القول فيه في حم السجدة « فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ » . و « فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ » أي دائم الشؤم ٱستمر عليهم بنحوسه، وٱستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك . وقيل : ٱستمر بهم إلى نار جهنم . وقال الضحاك : كان مُرًّا عليهم . وكذا حكى الكسائي أن قوما قالوا هو من المرارة ؛ يقال : مُرّ الشيء وأَمَرّ أي كان كالشيء المر تكرهه النفوس . وقد قال: «فَذُوقُوا » والذي يذاق قد يكون مُرًّا . وقد قيل : هو من المِرّة بمعنى القوّة . أي في يوم نحس مستمر مستحكم الشؤم كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه . فإن قيل : فإذا كان يوم الأربعاء يوم نحس مستمر فكيف يستجاب فيه الدعاء ؟ وقد جاء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ٱستجيب له فيه فيما بين الظهر والعصر . وقد مضى في « البقرة »(٢) حديث جابر بذلك . فالجواب — والله أعلم — ماجاء في خبر يرويه مسروق عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتاني جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد وقال يوم الأربعاء يوم نحس مستمر "

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٧ .
(٢) راجع جـ ٢ ص ٣١٣ .

ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على الصالحين[1] ، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين؛ كما كانت الأيام النحسات المذكورة فى القرآن ، نحسات على الكفار من قوم عاد لا على نبيهم والمؤمنين به منهم ، و إذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أول يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس ، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة ٱستجيب دعاء المظلوم عليه ، فكان اليوم نحسا على الظالم ،ودعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما كان على الكفار ، وقول جابر فى حديثه «لم ينزل بى أمر غليظ » إشارة إلى هذا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ فى موضع الصفة للريح أى تَقْلَعهم من مواضعهم . قيل : قلعتهم من تحت أقدامهم ٱقتلاع النخلة من أصلها . وقال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض ، فترمى بهم على رءوسهم فتندقّ أعناقهم وتَبِين رءوسهم عن أجسادهم . وقيل : تنزع الناس من البيوت . وقال محمد بن كعب عن أبيه قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ٱنتزعت الريح النـاس من قبورهم" . وقيـل : حفروا حُفَـرًا ودخلوها فكانت الريح تنزعهم منهـا وتكسرهم ، وتبقى تلك الحفر كأنها أصول نخل [قد[2]] هلك ما كان فيها فتبقى مواضعها منقعرة . و يروى أن سبعة منهم حفروا حفرًا وقاموا فيها ليردُّوا الريح . قال ٱبن إسحق : لـما هاجت الريح قام نفر سبعة من عاد سمى لنـا منهم ستة من أشد عاد وأجسمها منهم عمـرو بن الحلى والحرث بن شداد والهِلْقام وٱبنا تِقْن وخلجان بن سعد فأوْلجوا العيال فى شِعب بين جبلين ، ثم ٱصطفوا على باب الشِّعب ليردّوا الريح عمن فى الشِّعب من العيال ، فجعلت الريح تَجْعفهم[3] رجلًا رجلًا ، فقالت ٱمرأة من عاد :

ذهبَ الدهرُ بعمرو بـ * ـن حـلىٍّ والمنيّـات
ثم بالحـرث والهِلْـ * ـقامِ طَلَّاعِ الثنيّـات
والذى سـدّ مهبّ الر * يح أيـام البـليّـات

---

(١) فى ى : « المصلحين » . (٢) زيادة من ى .
(٣) جعفه : صرعه وضرب به الأرض .

الطبري : في الكلام حذف ، والمعنى تنزع النـاس فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر ؛ فالكاف في موضع نصب بالمحذوف . الزجاج : الكاف في موضع نصب على الحال ، والمعنى تنزع الناس مشبهين بأعجاز نخل . والتشبيه قيل إنه للحُفَر التي كانوا فيها . والأعجاز جمع عَجُز وهو مؤخر الشيء ، وكانت عاد موصوفين بطول القـامة ، فشُبِّهوا بالنخل انكبت لوجوهها . وقال : « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » للفظ النخل وهو من الجمع الذي يذكّر و يؤنّث . والمنقعر : المنقلع من أصله ؛ قعرت الشجرة قعرًا قلعتها من أصلها فانقعرت . الكسائي : قعرت البئر أي نزلت حتى انتهيت إلى قعرها ، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيـه حتى انتهيت إلى قعره . وأقعرت البئر جعلت لهـا قعرًا . وقال أبو بكر بن الأنباري : سئل المبرِّد بحضرة إسماعيل القاضي عن ألف مسألة هذه من جملتها ، فقيل له : ما الفرق بين قوله تعالى: «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً»(1) و « جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ »(2) ، وقوله : « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ »(3) و « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » ؟ فقال : كلما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرًا ، أو إلى المعنى تأنيثًا . وقيـل : إن النخل والنخيل بمعنًى يذكّر و يؤنث كما ذكرنا . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [تقدّم](4) .

قوله تعـالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ هم قوم صالح كذبوا الرسل ونبيهم ، أو كذّبوا بالآيات التي هي النذر ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ﴾ ونذع جماعة . وقرأ أبو الأشهب وابن السَّمَيْقَع وأبو السَّمَّال العدوي « أَبَشَرٌ » بالرفع « وَاحِدٌ » كذلك رفع بالابتـداء والخبر « نَتَّبِعُـهُ » . الباقون بالنصب على معنى أنتبع بشرًا منا واحدًا نتبعه . وقـرأ أبو السَّمَّال(5) :

(1) راجع جـ ١١ ص ٣٢١ . (2) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ . (3) راجع جـ ١٨ ص ٢٦١ .
(4) من ب ، ى . (5) هذه رواية أخرى عن أبي السمال كما في « روح المعاني » وغيره . وفي ب ، ز ، ل « أبو السماك » بالكاف وليس بصحيح .

« أَبَشَرٌ » بالرفع « مِنّا واحِدًا » بالنصب، رفع « أَبَشَرٌ » بإضمار فعل يدل عليه « أَؤُلْقِيَ » كأنه قال : أينبأ بشر منا، وقوله : « وَاحِدًا » يجوز أن يكون حالا من المضمر فى « مِنَّا » والناصب له الظرف، والتقدير أينبأ بشر كائن منّا منفردًا؛ و يجوز أن يكون حالًا من الضمير فى « نَتَّبِعُهُ » منفردا لا ناصر له . ﴿إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ﴾ أى ذهاب عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ أى جنون، من قولهم : ناقة مسعورة، أى كأنها من شدة نشاطها مجنونة، ذكره آبن عباس. قال الشاعر يصف ناقته :

تَخالُ بها سُعْرًا إذا السَّفْرُ هَزَّهَا * ذَمِيلٌ و إيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ

[الذميل(١) ضرب من سير الإبل. قال أبو عبيد: إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلا فهو التزيُّد، فإذا آرتفع عن ذلك فهو الذميل، ثم الرَّسِيم؛ يقال: ذَمَل يَذْمُل ويَذمِل ذميلا. قال الأصمعى: ولا يَذمُل بعير يومًا وليلةً إلا مَهْرِىٌّ قاله ج] . وقال آبن عباس أيضا : السُّعر العذاب، وقاله الفراء . مجاهد : بعد الحق . السدىّ : فى آحتراق . قال(٢) :

أصحوتَ اليـومَ أَمْ شَاقَتْكَ هِرّ * ومنَ الحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ

أى متقد ومحترق . أبو عبيدة : هو جمع سعير وهو لهيب النار . والبعير(٣) المجنون يذهب كذا وكذا لمـا يتلهب به من الحدّة . ومعنى الآية : إنا إذًا لفى شقاء وعناء مما يلزمنا .

قوله تعالى : ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أى خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا ؟ ! وهو استفهام معناه الإنكار . ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أى ليس كما يدّعيه، و إنما يريد أن يتعاظم و يلتمس التكبر علينا من غير آستحقاق . والأَشَر المَرَح والتّجبّر والنّشاط . يقال : فرس أَشِر إذا كان مرحا نشيطا؛ قال آمرؤ القيس يصف كلبا :

فيدركنا فَغِـمٌ داجِنٌ * سميعٌ بصِـيرٌ طَـلُوبٌ نَـكِرْ(٤)
أَلَصُّ(٥) الضُّرُوسِ حَنِيُّ الضُّلُوعِ * تَبُـوعٌ أَرِيبٌ نَشِـيطٌ أَشِرْ

(١) زيادة من ب، ه . (٢) هو طرفة . (٣) فى ا ، ز، ل : السعير.
(٤) الفغم : المولع بالصيد الحريص عليه . داجن : ألوف للصيد . ونكر أى منكر عالم . وقيل نكر أى كريه الصورة .
(٥) الألص الذى التصقت أسنانه بعضها إلى بعض .

وقيل: «أَشِرٌ» بَطِر. والأَشَر البَطَر؛ قال الشاعر:

أَشِـرْتُمْ بلُبْس الخـزِّ لمّا لَبِسْتُمُ * ومِن قبلُ ما تَدْرونَ مَنْ فَتَحَ القُرَى

وقد أَشِر بالكسر يأشَر أَشَرًا فهو أَشِر وأَشْران، وقوم أَشارى مثل سَكْران وسُكَارى؛ قال الشاعر (١):

وخَلَّتْ وُعُـولًا أُشَارَى بها * وقـد أَزْهَفَ الطَّعْنُ أبطالَهَا

وقيل: إنه المتعدى إلى منزلة لا يستحقها؛ والمعنى واحد. وقال آبن زيد وعبد الرحمن آبن حماد: الأَشِر الذى لا يبالى ما قال. وقرأ أبو جعفر وأبو قِلابة «أَشَرّ» بفتح الشين وتشديد الراء يعنى به أشرنا وأخبثنا. ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ أى سيرون العذاب يوم القيامة، أو فى حال نزول العذاب بهم فى الدنيا. وقرأ آبن عامر وحمزة بالتاء على أنه من قول صالح لهم على الخطاب. الباقون بالياء إخبار من الله تعالى لصالح عنهم. وقوله: «غَدًا» على التقريب على عادة الناس فى قولهم للعواقب: إن مع اليوم غدا؛ قال:

للمـوتِ فيها سِهامٌ غير مُخْطِئَـةٍ * مَنْ لم يكن مَيِّتًا فى اليومِ ماتَ غَدَا

وقال الطِرِمّاح:

أَلَا عَلِّلَانِى قبـل نَوْحِ النَّـوَائِحِ * وقَبْلَ آضْطِرَابِ النَّفْسِ بينَ الجَوَانِحِ
وقبلَ غَـدٍ يا لَهْفَ نفسِى على غَدٍ * إذا رَاحَ أصحـابى ولستُ برائِحِ

إنما أراد وقت الموت ولم يرد غدا بعينه. ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ وقرأ أبو قِلابة «الْأَشَرّ» بفتح الشين وتشديد الراء جاء به على الأصل. قال أبو حاتم: لا تكاد العرب تتكلم بالأَشَرّ والأَخْيَر إلا فى ضرورة الشعر؛ كقول رؤبة:

* بِلَالُ خَيْرُ الناسِ وآبنُ الأَخْيَرِ *

---

(١) هى مية بنت ضرار الضبي ترثى أخاها. وأزهف الطعن أبطالها أى صرعها. وقبل البيت:

تراه على الخيل ذا قدمة * إذا سربل الدم أكفالها

و إنما يقولون هو خير قومه، وهو شر الناس؛ قال الله تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»[(١)]
وقال: «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا»[(٢)]. وعن أبي حيوة بفتح الشين وتخفيف الراء.
وعن مجاهد وسعيد بن جُبير ضم الشين والراء والتخفيف، قال النحاس: وهو معنى «الأشر»
ومثله رجل حَذِر وحَذُر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ أي مخرجوها من الهضبة التي سألوها، فروى أن صالحا صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها، فخرجت ناقة عُشَراء [وبراء][(٣)].
﴿فِتْنَةً لَهُمْ﴾ أي اختبارا وهو مفعول له. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي انتظر ما يصنعون. ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ أي اصبر على أذاهم، وأصل الطاء في اصطبر تاء فتحوّلت طاء لتكون موافقة للصاد في الإطباق. ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: أي أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين آل ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما قال تعالى: «لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ»[(٤)].
قال ابن عباس: كان يوم شِربهم لا تشرب الناقة شيئا من الماء وتسقيهم لبناً وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كلّه فلم تُبق لهم شيئاً. وإنما قال: «بَيْنَهُمْ» لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلّبوا بني آدم. وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحِجْر في مغزى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبُوك، قال: "أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عز وجل

(١) راجع جـ ٤ ص ١٧٠. (٢) راجع جـ ١١ ص ١٤٤.
(٣) في الأصول جرداء، والذي في قصص الأنبياء للثعلبي وغيره من كتب التفسير «وبراء» فلذا أثبتناه.
(٤) راجع جـ ١٣ ص ١٢٧.

إليهم الناقة فكانت تَرِد من ذلك الفجّ فتشرب ماءهم يوم وردها ويحلبون منها مثل الذى كانوا يشربون يوم غِبّها " وهو معنى قوله تعالى : « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ » . ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ الشِّرْب — بالكسر — الحَظ من الماء؛ وفى المثل: (آخرها أقلّها شِرْبًا) وأصله فى سقى الإبل ، لأن آخرها يرد وقد نزِف الحوضُ . ومعنى « مُحْتَضَرٌ » أى يحضُره مَن هو له ؛ فالناقة تَحضُر الماء يوم وِردها ، وتغيب عنهم يوم وِردهم ؛ قاله مقاتل . وقال مجاهد : إن ثمود يحضرون الماء يوم غبّها فيشربون ، ويحضرون اللبن يوم وِردها فيحتلبون .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ يعنى بالحضّ على عَقْرها ﴿ فَتَعَاطَى ﴾ عقرها ﴿ فَعَقَرَ ﴾ ها ومعنى تعاطى تناول الفعل ، من قولهم : عَطَوتُ أى تناولت ؛ ومنه قول حسان :

كلْتَاهُمَا حَلَبُ العَصِيرِ فعَاطِنِي * بزجاجةٍ أرخاهما للمِفْصَلِ

قال محمد بن إسحق : فكمِن لها فى أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فانتظم به عَضَلة ساقها ، ثم شدّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبها ، فخرّت ورَغت رُغاءةً واحدة تَحَدّر سَقْبها من بطنها ثم نَحرها ، وانطلق سَقْبها حتى أتى صخرة فى رأس جبل فرغا ثم لاذ بها ، فأتاهم صالح عليه السلام ؛ فلما رأى الناقة قد عُقِرت بكى وقال : قد ٱنتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله . وقد مضى فى «الأعراف»(١) بيان هذا المعنى . قال ٱبن عباس : وكان الذى عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أقفى . ويقال فى ٱسمه قُدَار بن سالف . وقال الأفوه الأَوْدى :

أو قَبْلَه(٢) كقُدَارٍ حين تَابَعَهُ * على الغِوَايةِ أقوامٌ فقد بادُوا

والعرب تسمّى الجزّار قُدَارًا تشبيهًا بقُدَار بن سالف مشئوم آل ثمود ؛ قال مُهلِهل :

إنّا لنَضْرِبُ بالسُّيُوفِ رُءوسَهمْ * ضَرْبَ القُدَارِ نقِيعةَ القُدّامِ(٣)

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤١ . (٢) الذى فى شعراء النصرانية : « أو بعده » .

(٣) القدار : الجزار . والنقيعة : ما ينحر للضيافة . والقدام : القادمون من سفر جمع قادم . وقيل : القدام الملك . ويروى :

* إنا لنضرب بالصوارم هامهم *

وذكره زهير فقال :

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ * كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ (١)

يريد الحرب؛ فكنّى عن ثمود بعاد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يريد صيحة جبريل عليه السلام ، وقد مضى فى « هود » (٢) . ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية « المحتظَر » بفتح الظاء أرادوا الحظيرة . الباقون بالكسر أرادوا صاحب الحظيرة . وفى الصحاح : والمحتظِر الذى يعمل الحظيرة . وقرئ « كهشيم المحتظِر » فمن كسره جعله الفاعل ومن فتحه جعله المفعول به . ويقال للرجل القليل الخير : إنّه لنَكِدُ الحَظِيرَة . قال أبو عبيد : أراه سمى أمواله حظيرة لأنه حظرها عنده ومنعها ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة . المهدوى : من فتح الظاء من « المحتظر » فهو مصدر، والمعنى كهشيم الاحتظار . ويجوز أن يكون « المحتظَر » هو الشجر المتخذ منه الحظيرة . قال ابن عباس : « المحتظِر » هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك ؛ فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم . قال :

أثَرْنَ عَجَاجةً كدخانِ نارٍ * تشبّ بغَرْقَدٍ بالٍ هَشِيمِ

وعنه : كحشيش تأكله الغنم . وعنه أيضا : كالعظام النخرة المحترقة، وهو قول قتادة . وقال سعيد بن جُبير : هو التراب المتناثر من الحيطان فى يوم ريح . وقال سفيان الثورى : هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا، وهو فعيل بمعنى مفعول . وقال ابن زيد : العرب تسمّى كل شىء كان رطبا فيبس هشيما . والحظْر المنع ، والمحتظر المفتعل يقال منه : احتظر على إبله وحظر أى جمع الشجر و وضع بعضه فوق بعض ليمنع برد الريح والسباع عن إبله ؛ قال الشاعر :

تَرَى جِيَفَ المَطِىّ بجانبيه * كأنّ عظامَها خَشَبُ الهَشِيمِ

(١) تنتج لكم يعنى الحرب . « غلمان أشأم » فى معنى غلمان شؤم أو كلهم فى الشؤم كأحمر عاد . « ثم ترضع فتفطم » يريد أنه يتم أمر الحرب ، كالمرأة إذا أرضعت ثم فطمت فقد تمت .

(٢) راجع جـ ٩ ص ٦١ .

وعن ٱبن عباس : أنهم كانوا مثل القمح الذى ديس وهشم ؛ فالمحتظر على هـذا الذى يتخـذ حظيرة على زرعه ، والهشيم فُتات السنبلة والتبن . ﴿ وَلَقَـدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ أخبر عن قوم لوط أيضا لما كذّبوا لوطا . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ أى ريحا ترميهم بالحصباء وهى الحصى ؛ قال النّضر : الحاصب الحصباء فى الريح . وقال أبو عبيدة : الحاصب الحجارة . وفى الصحاح : والحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصباء وكذلك الحَصِبة ؛ قال لَبِيد :

جَرَّتْ عليها أَنْ خَوَتْ مِن أهلها　*　أذيالَها كُلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ

عصفت الريح أى ٱشتدّت فهى ريح عاصفٌ وعَصُوف . وقال الفرزدق :

مستقبلين شمالَ الشامِ تضربُنا　*　بحاصبٍ كنَديفِ القُطْنِ منثورِ

﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ يعنى من تبعه على دينه ولم يكن إلا بنتاه ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ قال الأخفش : إنما أجراه لأنه نكرة ، ولو أراد سَحَر يوم بعينه لما أجراه ، ونظيره : «ٱهْبِطُوا مِصْرًا»(١) لما نكّره ، فلما عرّفه فى قوله : « ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ »(٢) لم يُجْـرِه ، وكذا قال الزجاج : « سحر » إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يصرف ، تقول أتيتـه سحرًا ، فإذا أردت سحر يومك

(١) راجع جـ ١ ص ٤٢٩ .　(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٦٣ .

لم تصرفه، تقول : أتيته سَحَريا هذا، وأتيته بسحر . والسَّحَرُ : هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر ، وهو فى كلام العرب آختلاط سواد الليل ببياض أول النهار ؛ لأن فى هـذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار. ﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ إنعاماً منّا على لوط وآبنتيه؛ فهو نصْب لأنه مفعول به . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ شَكَرَ ﴾ أى من آمن بالله وأطاعه . ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ ﴾ يعنى لوطًا خوّفهم ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ عقوبتنا وأخْذنا إياهم بالعذاب ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ أى شَكُّوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدّقوه ، وهو تفاعل من المِرْية . ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ أى أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة فى هيئة الأضياف طلباً للفاحشة على ماتقدّم[1] . يقال : راوَدْته على كذا مُرَاوَدةً ورِوَادًا أى أردتُه . وراد الكلأ يروده رَوْدًا ورِيادًا ، وآرْتاده آرتيادًا بمعنًى أى طلبه ؛ وفى الحديث : " إذا بال أحدكم فلْيرْتَدْ لِبوله " أى يطلب مكاناً ليناً أو منحدراً . ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ يروى أن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فعَمُوا . وقيل : صارت أعينهم كسائر الوجه لايرى لها شقّ ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب . وقيل : لا ، بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم . قال الضحاك : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل ؛ فقالوا : لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا ؟ فرجعوا ولم يروهم . ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ أى فقلنا لهم ذوقوا ، والمراد من هذا الأمر الخبر ؛ أى فأذقتهم عذابى الذى أنذرهم به لوط . ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أى دائم عام آستقر فيهم حتى يفضى بهم إلى عذاب الآخرة . وذلك العذاب قَلْب قريتهم عليهم وجعل أعلاها أسفلها . و « بُكْرَةً » هنا نكرة فلذلك صرفت . ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ العذاب الذى نزل بهم من طمس الأعين غيرالعذاب الذى أهلكوا به فلذلك حسن التكرير[2] . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [تقدم]

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٧٣ . (٢) زيادة من ى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ يعني القبط و « النُّذُرُ » موسى وهرون . وقـد يطلق لفظ الجمع على الاثنين . ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ معجزاتنا الدالة على توحيـدنا ونبوة أنبيائنا ؛ وهي العصا ، واليـد ، والسّنون ، والطمسة ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم . وقيل : « النُّذُرُ » الرسل ؛ فقـد جاءهم يوسف و بنوه إلى أن جاءهم موسى . وقيـل : « النُّذُرُ » الإنذار . ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ أي غالب في انتقـامه ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ أي قادر على ما أراد .

قوله تعـالى : أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ خاطب العرب. وقيل : أراد كفار أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : استفهام ، وهو استفهام إنكار ومعناه النفي ؛ أي ليس كفاركم خيرًا من كفار من تقـدّم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم . ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي في الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة . وقال ابن عباس: أم لكم في اللوح المحفوظ براءة من العـذاب . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ أي جماعة لا تطاق لكثرة عددهم وقوتهم ، ولم يقل منتصرين اتباعا لرءوس الآى ؛ فردّ الله عليهم فقال: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ أي جمع كفار مكة ، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره . وقراءة العامة « سَـيُهْزَمُ » بالياء على ما لم يسم فاعله « الْجَمْعُ » بالرفع . وقرأ رُوَيس عن يعقوب « سَنَهْزِمُ » بالنون وكسر الزاى « الْجَمْعَ » نصبًا . ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر عنهم . وقرأ عيسى وابن إسحق ورُوَيس عن يعقوب « وَتُوَلُّون » بالتـاء على الخطاب . و « الدُّبُرَ » اسم جنس كالدرهم

والدينار فوحّد والمراد الجمع لأجل رءوس الآى . وقال مقاتل : ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فتقـدّم من الصّف وقال : نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحـابه ؛ فأنزل الله تعـالى : «نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ».وقال سعيد بن جبير قال سعد بن أبى وقّاص: لمـا نزل قوله تعالى : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » كنت لا أدرى أى الجمع ينهزم، فلما كان يوم بَدْر رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم يَثِب فى الدرع و يقول: اللهم إن قريشًا جاءتك تُحَادُّك وتُحادُّ رسولَك بفخرها و [خُيَلَائِها](١) فأخنهم الغداةَ ـــ ثم قال ـــ «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» فعرفت تأويلها . وهذا من معجزاتِ النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر . أخنى عليه الدهر : أى أتى عليه وأهلكه ، ومنه قول النابغة :

* أَخْنَى عليه الذى أَخْنَى على لُبَدِ *

وأخنيت عليه : أفسدت . قال آبن عباس : كان بين نزول هذه الآية و بين بدر سبع سنين ؛ فالآية على هـذا مكية . وفى البخارى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة و إنى لجارية ألعب : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » . وعن آبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال وهو فى قبة له يوم بدر : " أَنْشُدُكَ عهدَكَ ووعدَكَ اللّهم إن شئت لم تُعبدْ بعدَ اليوم أبدًا " فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك ؛ وهو فى الدّرْع فخرج وهو يقول : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » يريد القيامة . « وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » أى أدهى وأمرّ ممـا لحقهم يوم بدر . و « أَدْهَى » من الداهية وهى الأمر العظيم ؛ يقال : دهاه أمر كذا أى أصابه دهوًا ودهيًا . وقال آبن السكيت : دهته داهية دهواء ودهياء وهى توكيد لهـا .

---

(١) فى الأصول : « بخيلها » وهو تحريف والتصويب من سيرة آبن هشام .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ » أى فى حَيْدة عن الحق و « سُعُرٍ » أى احتراق . وقيل : جنون على ما تقدّم فى هذه السورة . « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القَدَر فنزلت : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ خرجه الترمذى أيضا وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن طاوس قال : أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : كل شىء بقَدَر . قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "كلّ شىء بقَدَر حتى العَجْز والكَيْس — أو — الكَيْس والعَجْز" وهذا إبطال لمذهب القَدَرية . « ذُوقُوا » أى يقال لهم ذوقوا ، ومسّها ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها . و « سَقَرَ » اسم من أسماء جهنم لا ينصرف ؛ لأنه اسم مؤنث معرفة ، وكذا لَظَى وجهنم . وقال عطاء : « سَقَر » الطبق السادس من جهنم . وقال قُطْرب : « سَقَر » من سَقَرته الشمسُ وصَقَرته لَوَحَتْه . ويوم مُسْمَقِرٌ ومُصْمَقِرٌ : شديدُ الحرّ .

الثانيــة — قوله تعالى : « إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ » قراءة العامة « كُلَّ » بالنصب . وقرأ أبو السَّمَّال « كُلُّ » بالرفع على الابتداء . ومن نصب فبإضمار فعل وهو اختيار الكوفيين ؛ لأن إنّ تطلب الفعل فهى به أولى ، والنصب أدلّ على العموم فى المخلوقات لله تعالى ؛ لأنك لو حذفت «خَلَقْنَاهُ» المفسِّر وأظهرت الأوّل لصار إنا خلقنا كلّ شىء بقدر . ولا يصح كون خلقناه صفة لشىء ؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف ، ولا تكون تفسيرًا لما يعمل فيما قبله .

الثالثــة — الذى عليــه أهل السنة أن الله سبحانه قدر الأشياء ؛ أى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبــل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق فى علمه أنه يوجده على نحو ما سبق فى علمه ، فلا يحدث حدث فى العالم العلوىّ والسفلىّ إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه ، وأن الخــلق ليس لهم فيها إلا نوع ٱكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة ، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى و بقدرته وتوفيقه و إلهامه ، سبحانه لا إله إلا هو ، ولا خالق غيره ؛ كما نص عليه القرآن والسنة ، لا كما قالت القدَريّة وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا . قال أبو ذرّ رضى الله عنه : قدم وفد نجران على رســول الله صــلى الله عليه وســلم فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيــد غيرنا ؛ فنزلت هــذه الآيات إلى قوله : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَــدَرٍ » فقالوا : يا محمد يكتب علينا الذنب و يعــذبنا ؟ فقال : " أنتم خصماء الله يوم القيامة " .

الرابعــة — روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنــه قال: قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " إن مجوس هذه الأمة المكذّبون بأقدار الله إن مرِضوا فلا تعودوهم و إن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلّموا عليهم " . خرجه ٱبن ماجه فى ســننه . وخرج أيضا عن ٱبن عباس وجابر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صنفان من أمتى ليس لهم فى الإسلام نصيب أهل الإرجاء والقَــدَر " . وأسند النحاس : وحدّثنا إبراهيم بن شريك الكوفى قال حدّثنا عقبة بن مكرم الضّبى قال حدّثنا يونس بن بكير عن سعيد بن ميسرة عن أنس قال : قال رسول الله صــلى الله عليه وســلم : "القدَريّة الذين يقولون الخير والشر بأيدينا ليس لهم فى شفاعتى نصيب ولا أنا منهم ولا هم منّى " وفى صحيح مســلم أن ٱبن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر، ثم أكد هذا بقوله : والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منــه حتى يؤمن بالقَدَر . وهذا مثل قوله تعالى فى المنافقين : « وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ »(١) وهذا واضح . وقال أبو هريرة : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن " .

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٣ .

قوله تعالى : وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ أى إلا مرةً واحدة . ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ أى قضائى فى خلق أسرع من لَمْح البصر . واللَّمح النظر بالعَجَلة ؛ يقال : لَمَح البرق ببصره . وفى الصحاح : لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف ، والاسم اللمحة ، ولَمَح البرقُ والنجمُ لَمْحًا أى لَمَع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أى أشباهكم فى الكفر من الأمم الخالية . وقيل : أتباعكم وأعوانكم . ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أى من يتذكر .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أى جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير أو شر كان مكتوباً عليهم ؛ وهذا بيان قوله : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » . « فى الزُّبُرِ » أى فى اللوح المحفوظ . وقيل : فى كتب الحفظة . وقيل : فى أم الكتاب . ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ أى كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به، (١) ومكتوب إذا فعله ؛ سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً كَتَب ؛ واستطَر مثله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ لما وصف الكفار وصف المؤمنين أيضًا . « وَنَهَرٍ » يعنى أنهار الماء والخمر والعسل واللبن ؛ قاله ابن جريج . ووحد لأنه رأس الآية، ثم الواحد قد ينبيء عن الجميع . وقيل : فى « نَهَرٍ » فى ضياء وسَعة؛ ومنه النهار لضيائه، ومنه أنهرت الجرح ؛ قال الشاعر (٢) :

مَلكتُ بها كَفى فأنهرتُ فتقَها * يَرى قائمٌ من دونها ما وراءها

(١) فى ب ، ح ، س ، ه : « قبل أن يفعلوه ليجازوا ومكتوب إذا فعلوه » .
(٢) هو قيس بن الخطيم يصف طعنة . وملكت أى شددت وقويت .

وقرأ أبو مجلز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرف وقتادة « وَنُهُرٍ » بضمتين كأنه جمع نهار لا ليل لهم ؛ كسحاب وسُحُب . قال الفراء : أنشدنى بعض العرب :

إنْ تَكُ ليليًّا فإنّى نَهِرُ * مَتَى أرى الصُّبحَ فلا أنتَظِرُ

أى صاحب النهار . وقال آخر :

لَولا الثَّرِيدَانِ هَلَكْنا بالضُّمُرْ * ثَرِيدُ لَيْلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُرْ

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أى مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أى يقدر على ما يشاء . و « عِنْدَ » هاهنا عندية القُربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة . قال الصادق : مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق . وقرأ عثمان البَتّى « فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ » بالجمع ؛ والمقاعد مواضع قعود الناس فى الأسواق وغيرها . قال عبد الله بن بريدة : إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار تبارك وتعالى ، فيقرءون القرآن على ربهم تبارك وتعالى ، وقد جلس كل إنسان مجلسه الذى هو مجلسه ، على منابر من الدر والياقوت والزبرجد والذهب والفضّة بقدر أعمالهم ، فلا تقَرّ أعينهم بشىء قط كما تَقَرّ بذلك ، ولم يسمعوا شيئاً أعظم ولا أحسن منه ، ثم ينصرفون إلى منازلهم ، قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد . وقال ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون : يا أولياء الله آنطلقوا ؛ فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ؛ فيقول المؤمنون : إنكم تذهبون بنا إلى غير بُغيتنا . فيقولون : فما بغيتكم ؟ فيقولون : مقعد صدق عند مليك مقتدر . وقد روى هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى ؛ ففى الخبر : أن طائفة من العقلاء بالله عز وجل تزفها الملائكة إلى الجنة والناس فى الحساب ، فيقولون للملائكة : إلى أين تحملوننا ؟ فيقولون إلى الجنة . فيقولون : إنكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا ؛ فيقولون : وما بغيتكم ؟ فيقولون : المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر « فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ » . والله أعلم .

تم تفسير سورة « القمر » والحمد لله .

سورة الرحمن [عز وجل][1]

مكية كلها في قول الحسن وعُرْوة بن الزبير وعِكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : إلا آية منها هي قوله تعالى : «يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» الآية . وهي ست وسبعون آية . وقال ابن مسعود ومقاتل : هي مدنية كلها . والقول الأول أصح لما روى عُرْوة بن الزبير قال : أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ؛ وذلك أن الصحابة قالوا : ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال ابن مسعود : أنا ؛ فقالوا : إنا نخشى عليك ، وإنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه ، فأبى ثم قام عند المقام فقال : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ » ثم تمادى رافعاً بها صوته وقريش في أنديتها ، فتأملوا وقالوا : ما يقول ابن أمّ عَبْد ؟ قالوا : هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه ، ثم ضربوه حتى أثّروا في وجهه . وصح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قام يصلّي الصبح بنخلة ، فقرأ سورة « الرَّحْمَنُ » ومرّ النفر من الجنّ فآمنوا به . وفي الترمذي عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة « الرَّحْمَنُ » من أولها إلى آخرها فسكتوا ؛ فقال : " لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ فكانوا أحسن مردودا منكم كنت كلما أتيت على قوله : «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» قالوا لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد " قال : هذا حديث غريب . وفي هذا دليل على أنها مكية والله أعلم . وروى أن قيس بن عاصم المِنْقري قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : اتل عليّ مما أنزل عليك ، فقرأ عليه سورة « الرَّحْمَنُ » فقال : أعدها ؛ فأعادها ثلاثاً ؛ فقال : والله إنّ له لطَلاوة ، وإن عليه لحَلَاوة ، وأسفله لَمُغْدِق ، وأعلاه مثمر ، وما يقول هذا بشر ، وأنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله . وروى عن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لكل شيء عَروس وعَروس القرآن سورة الرحمٰن " .

---

(١) في ز .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ
ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾
وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾
وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ
ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشّعبي: «الرَّحْمَٰنُ» فاتحة ثلاث سور إذا جُمعن كن اسماً من أسماء الله تعالى « الـر » و «حـم» و « نٓ » فيكون مجموع هذه « الرَّحْمَٰنُ » . « عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى علّمه نبيّه صلى الله عليه وسلم حتى أدّاه إلى جميع الناس . وأنزلت حين قالوا : وَمَا الرَّحْمَٰنُ؟ وقيل : نزلت جوابا لأهل مكة حين قالوا : إنما يعلّمه بشر وهو رحمٰن اليمامة ؛ يعنون مسيلمة الكذّاب، فأنزل الله تعالى : «الرَّحْمَٰنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ» . وقال الزجاج ؛ معنى «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» أى سهّله لأن يُذكر ويُقرأ كما قال : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ » . وقيـل : جعله علامة لمـا تعبد الناس به . ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ قال ابن عبـاس وقتادة والحسن يعنى آدم عليه السلام . ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ أسماء كل شيء . وقيل : علمه اللغات كلها . وعن ابن عباس أيضا وابن كيسان : الإنسان هاهنا يراد به محمد صلى الله عليه وسلم، والبيان بيان الحلال من الحرام ، والهـدى من الضـلال . وقيل : ما كان وما يكون؛ لأنه بيّن عن الأوّلين والآخرين ويوم الدّين . وقال الضحاك : « البيان » الخـير والشر . وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه وما يضره ؛ وقاله قتادة . وقيل : « الْإِنْسَانَ » يراد به جميع الناس فهو اسم للجنس و « الْبَيَانَ » على هـذا الكلامُ والفهم ، وهو مما فُضّل به الإنسان على

سائر الحيوان . وقال السدى : علّم كل قوم لسانهم الذى يتكلمون به . وقال يمان : الكتابة والخط بالقلم . نظيره : « عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[1] . ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أى يجريان بحساب معلوم فأضمر الخبر . قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك : أى يجريان بحساب فى منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها . وقال ابن زيد وابن كيسان : يعنى أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يَحسُب شيئا لو كان الدهر كله ليلا أو نهارا . وقال السدى : «بِحُسْبَانٍ» تقدير آجالهما أى تجرى بآجال كآجال الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا ؛ نظيره : « كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى »[2] . وقال الضحاك : بقدر . مجاهد : « بِحُسْبَانٍ » كحسبان الرَّحَى يعنى قطبها يدوران فى مثل القطب . والحُسْبان قد يكون مصدر حَسَبته أحْسُبُه بالضم حَسْبا وحُسْبانا ، مثل الغُفْران والكُفْران والرُّجحان ، وحِسابة أيضا أى عددته . وقال الأخفش : ويكون جماعة الحساب مثل شِهاب وشُهبان . والحُسْبان أيضا بالضم العذاب والسهام القصار ، وقد مضى فى « الكهف »[3] الواحدة حُسْبانة ، والحُسْبانة أيضا الوسادة الصغيرة ؛ تقول منه : حَسَّبْتُه إذا وسَّدته ؛ قال[4] :

* ... لَثَوَيْتَ غيرَ مُحَسَّبِ *

أى غير موسَّد يعنى غير مكرَّم ولا مكفَّن ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : النجم مالا ساق له والشجر ماله ساق ، وأنشد ابن عباس قول صفوان بن أسد التميمى :

لَقَد أَنْجَمَ الْقَاعُ الكَبِيرُ عِضَاهَهُ * وتَمَّ بِهِ حَيًّا تَمِيمٍ ووائِلِ

وقال زهير بن أبى سُلْمى :

مُكَلَّلٌ بأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ * رِيحُ الجَنُوبِ لِضاحِى مائِهِ حُبُكُ

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٠ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٩ . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٨ .

(٤) هو نهيك الفزارى يخاطب عامر بن الطفيل ، والبيت بتمامه :

لتقيت بالوجعاء طعنة مرهف * مران أو لثويت غير محسب

الوجعاء الأست . يقول : لو طعنتك لوليتنى دبرك واتقيت طعنتى بوجعائك ، ولثويت هالكا غير مكرم .

واشتقاق النجم من نَجَم الشيءُ يَنجُم بالضم نجومًا ظهر وطلع ، وسجودهما بسجود ظلالهما [(١)] ؛ قاله الضحاك . وقال الفرّاء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ثم يميلان معهما حتى ينكسر الفيء . وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما ، كما قال تعالى : « يتفيّأ ظِلَالُهُ [(٢)] » . وقال الحسن ومجاهد : النجم نجم السماء ، وسجوده فى قول مجاهد دوران ظله ، وهو آختيار الطبرى ، حكاه المهدوى . وقيل : سجود النجم أفوله ، وسجود الشجر إمكان الاجتناء لثمرها ، حكاه الماوردى . وقيل : إن جميع ذلك مسخر لله ، فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم من الصابئين النجوم ، وعبد كثير من العجم الشجر . والسجود الخضوع ، والمعنيّ به آثار الحدوث ، حكاه القشيرى . النحاس : أصل السجود فى اللغة الاستسلام والانقياد لله عز وجل ، فهو من الموات كلها آستسلامها لأمر الله عز وجل وآنقيادها له ، ومن الحيوان كذلك ويكون من سجود الصلاة ، وأنشد محمد بن يزيد فى النجم بمعنى النجوم قال [(٣)] :

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجمَ فى مُسْتَحيرة * سَرِيعٍ بأَيْدِى الآكِلينَ جُمُودُهَا

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ وقرأ أبو السمّال « والسَّماءُ » بالرفع على الابتـداء وآختار ذلك لمـا عطف على الجمـلة التى هى : « وَالنَّجْـمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » فجعـل المعطوف مركبًا من مبتدإ وخبر كالمعطوف عليه . الباقون بالنصب على إضمار فعل يدل عليه ما بعده . ﴿ وَوَضَعَ الْمِـيزَانَ ﴾ أى العدل؛ عن مجاهد وقتادة والسدى ، أى وضع فى الأرض العدل الذى أمر به ، يقال : وضع الله الشريعة . ووضع فلان كذا أى ألقاه ؛ وقيل : على هذا الميزان القرآن ، لأن فيـه بيان ما يحتاج إليه وهو قول الحسين بن الفضل . وقال الحسن وقتادة — أيضا — والضحاك : هو الميزان ذو اللسان الذى يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض ، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل ، يدل عليه قوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » والقسط العـدل . وقيل : هو الحكم . وقيل : أراد وضع الميزان فى الآخرة لوزن الأعمال . وأصل مِيزان مِوزان وقد مضى فى « الأعراف » [(٤)] القول فيه . ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ موضع « أَنْ » يجوز أن يكون نصباً

(١) فى ب ، ح ، س ، هـ : « وسجودهما سجود . . . » . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١١ .
(٣) قائله الراعى . (٤) راجع جـ ٧ ص ١٦٦ .

على تقدير حذف حرف الجر كأنه قال : لئلا تطغوا ؛ كقوله تعالى : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »(١) . ويجوز ألا يكون لـ« أن » موضع من الإعراب فتكون بمعنى أى و « تَطْغَوْا » على هذا التقدير مجزومًا ، كقوله تعالى : « وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا »(٢) [أى امشوا](٣) . والطغيان مجاوزة الحدّ . فمن قال : الميزان العدل قال طغيانه الجور . ومن قال : إنه الميزان الذى يوزن به قال طغيانه البخس . قال ابن عباس : أى لا تخونوا من وزنتم له . وعنه أنه قال : يا معشر الموالى ! وليتم أمرين بهما هلك الناس : المكيال والميزان . ومن قال إنه الحُكْم قال : طغيانه التحريف . وقيل : فيه إضمار ؛ أى وضع الميزان وأمركم ألا تطغوا فيه . ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ أى افعلوه مستقيًا بالعدل . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل . وقال ابن عيينة(٤) : الإقامة باليد والقسط بالقلب . وقال مجاهد : القسط العدل بالرومية . وقيل : هو كقولك أقام الصلاة أى أتى بها فى وقتها ، وأقام الناس أسواقهم أى أتوها لوقتها . أى لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل. ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ ولا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن، وهذا كقوله : « وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ »(٥) . وقال قتادة فى هذه الآية : اعدل يابن آدم كما تحبّ أن يُعدَل لك ، وأوف كما تحبّ أن يُوفَى لك ؛ فإن العدل صلاح الناس . وقيل : المعنى ولا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة فيكون ذلك حسرة عليكم . وكرر الميزان لحال رءوس الآى . وقيل : التكرير للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيه . وقراءة العامة « تُخْسِرُوا » بضم التاء وكسر السين . وقرأ بلال بن أبى بُرْدة وأبان عن عثمان « تَخْسَرُوا » بفتح التاء والسين وهما لغتان ، يقال : أخسرت الميزان وخسرته كأجبرته وجبرته . وقيل : « تَخْسَرُوا » بفتح التاء والسين محمول على تقدير حذف حرف الجر ؛ والمعنى ولا تخسروا فى الميزان . ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ الأنام الناس ؛ عن ابن عباس . الحسن : الجنّ والإنس . الضحاك : كل ما دبّ على وجه الأرض ، وهذا عام . ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أى كل

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٩ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٥١ . (٣) الزيادة من ب ، ح ، س ، هـ .
(٤) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى « أبو عبيدة » بدل ابن عيينة . (٥) راجع جـ ٩ ص ٨٥ .

ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار . ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ الأكمام جمع كِمّ بالكسر. قال الجوهرى : والكِمّة بالكسر والكِمامة وعاء الطلع وغِطاء النَّوْر والجمع كِمام وأَكِمّة وأكمام والأكاميم أيضا . وكُمّ الفصيلُ إذا أُشفق عليه فسُتِر حتى يَقْوَى؛ قال العجاج :

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ النَّاسَ إِذْ تُكُمُّوا * بِغُمَّةٍ لَوْ لَمْ تُفَرَّجْ غُمُّوا

وتُكُمُّوا أى أغمى عليهم وغُطُّوا . وأَكَمّت [النّخلةُ][1] وكَمّمت أى أخرجت أكمامها . والكِمام بالكسر والكِمامة أيضا ما يُكَمّ به فمُ البعير لئلا يعَضّ؛ تقول منه : بعير مكموم أى مَحْجوم . وكَمّمت الشيء غطّيته . والكُمّ ماستر شيئا وغطّاه ؛ ومنه كُمّ القميص بالضم والجمع أكمام وكِمَمة، مثل حُبّ وحِبَبة . والكُمّة القَلَنْسوة المدوّرة؛ لأنها تغطّى الرأس . قال :

فقلتُ لهمْ كِيلُو بكُمّةِ بعضِكُمْ * دَرَاهِمَكُمْ إنّى كذلك أَكْيَلُ

قال الحسن : « ذَاتُ الْأَكْمَامِ » أى ذات الليف فإن النخلة قد تُكَمّم بالليف، وكِمامها ليفها الذى فى أعناقها . آبن زيد : ذات الطلع قبل أن يتفتق . وقال عكرمة : ذات الأحمال . ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ الحبّ الحِنطة والشعير ونحوهما؛ والعصف التِّبْن؛ عن الحسن وغيره . مجاهد : ورق الشجر والزرع . آبن عباس : تِبْن الزرع وورقه الذى تَعصِفه الرياح . سعيد بن جبير : بَقْل الزرع أى أوّل ما ينبت منه؛ وقاله الفرّاء . والعرب تقول : خرجنا نَعصِف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يُدرِك . وكذا فى الصحاح : وعَصَفْتُ الزَّرْعَ أى جززته قبل أن يَدرِك . وعن آبن عباس أيضا : العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع رءوسه ويبس؛ نظيره : « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ »[2] . الجوهرى : وقد أَعصف الزرعُ، ومكان مُعْصِف أى كثير الزرع . قال أبو قيس بن الأَسْلت الأنصارى :

إذا جُمَادَى منعتْ قَطْرَهَا * زَانَ جَنَابِى عَطَنٌ مُعْصِفُ

---

(١) الزيادة من الصحاح للجوهرى . (٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٩٩ .

والعَصْف أيضا الكَسْب ؛ ومنه قول الراجز[(١)] :

* بغيرِ ما عَصْفٍ ولا ٱصْطِرَافِ *

وكذلك الاعتصاف . والعَصِيفة الورق المجتمع الذى يكون فيه السُّنْبل . وقال الهروى : والعصف والعَصِيفة ورق السُّنْبل . وحكى الثعلبي : وقال ٱبن السِّكِّيت تقول العرب لورق الزرع العصف والعَصِيفة والجِلّ بكسر الجيم . قال عَلْقَمة بن عَبَدة :

تَسْقِي مَذَانِبَ قد مَالتْ عَصِيفَتُهَا * حُدُورُها من أَتِيِّ المَاءِ مَطْمُومُ

وفى الصحاح : والجِلُّ بالكسر قصب الزرع إذا حُصِد . والريحان الرزق؛ عن ٱبن عباس ومجاهد . الضحاك : هى لغة حِمْير . وعن ٱبن عباس أيضا والضحاك وقتادة : أنه الريحان الذى يشم ، وقاله ٱبن زيد . وعن ٱبن عباس أيضا : أنه خضرة الزرع . وقال سعيد ٱبن جبير : هو ما قام على ساق . وقال الفراء : العصف المأكول من الزرع ، والريحان ما لا يؤكل. وقال الكلبي : إن العصف الورق الذى لا يؤكل، والريحان هو الحبّ المأكول. وقيل : الريحان كل بقلة طيبة الريح سميت رَيْحانا ؛ لأن الإنسان يَرَاحُ لها رائحةً طيبة . أى يشم فهو فَعْلان رَوْحان من الرائحة ؛ وأصل الياء فى الكلمة واو قلب ياء للفرق بينه وبين الرُّوحانى وهو كل شىء له رُوح . قال ٱبن الأعرابى : يقال شىء رُوحانى ورُيحانى أى له روح . ويجوز أن يكون على وزن فَيْعَلان فأصله رَيْوَحان فأبدل من الواو ياء وأدغم كهَيِّن ولَيِّن، ثم ألزم التخفيف لطوله ولحاق الزائدتين الألف والنون، والأصل فيما يتركب من الراء والواو والحاء الاهتزاز والحركة . وفى الصحاح : والرَّيْحان نبت معروف ؛ والريحان الرزق؛ تقول : خرجت أبتغى رَيْحَانَ اللهِ ؛ قال النَّمِرُ بن تَوْلَب :

سَلامُ الإلٰهِ ورَيْحَانُهُ * ورَحْمَتُهُ وسَمَاءٌ دِرَرْ

وفى الحديث : " الولد من ريحان الله " . وقولهم : سبحانَ الله وريحانه ، نصبوهما على المصدر يريدون تنزيها له وٱسترزاقا . وأما قوله : «وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ» فالعصف

(١) قائله العجاج . وصدر البيت : * قد يكسب المال الهدان الجافى * والهدان الأحمق .

ساق الزرع، والريحان ورقه؛ عن الفـراء . وقراءة العامة « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ » بالرفع فيهـا كلها على العطف على الفاكهة . ونصبها كلها آبن عامر وأبو حيوة والمغيرة عطفًا على الأرض . وقيل : بإضمار فعل، أى وخلق الحبّ ذا العصف والريحان؛ فمن هذا الوجه يحسن الوقف على « ذَاتُ الْأَكْمَامِ » . وجرّ حمزة والكسائى « الريحان » عطفًا على العصف؛ أى فيهـا الحب ذو العصفِ والريحانِ ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعـل الريحان الرزق، فيكون كأنه قال : والحب ذو الرزق . والرزق من حيث كان العصف رزقًا؛ لأن العصف رزق للبهائم، والريحان رزق للناس، ولا شبهة فيه فى قول من قال إنه الريحان المشموم .

قوله تعـالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ خطاب للإنس والجنّ ؛ لأن الأنام واقع عليهما . وهذا قول الجمهور، يدل عليه حديث جابر المذكور أول السورة ، وخرجه الترمذى وفيه "وَلَلْجِنُّ أحسنُ منكم ردًّا" (١) . وقيل : لمـا قال : «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» و «خَلَقَ الْجَانَّ» دل ذلك على أن ما تقدّم وما تأخر لهما . وأيضا قال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ » وهو خطاب للإنس والجنّ وقد قال فى هذه السورة : «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ» . وقال الجرجانى : خاطب الجنّ مع الإنس وإن لم يتقدّم للجنّ ذكر؛ كقوله تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » (٢) . وقد سبق ذكر الجنّ فيما سبق نزوله من القرآن ، والقرآن كالسورة الواحدة ؛ فإذا ثبت أنهم مكلّفون كالإنس خوطب الجنسان بهذه الآيات . وقيل : الخطاب للإنس على عادة العرب فى الخطاب للواحد بلفظ التثنية ؛ حسب ما تقدّم من القول فى « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ » (٣) . وكذلك قـوله :

* قِفَـا نَبْكِ (٤) ... *

و * خَلِيـلَيَّ مُرَّا بِي (٥) ... *

(١) رواية الترمذى المتقدّمة تخالف هذه الرواية فى اللفظ وهذه رواية الحاكم .

(٢) راجع ج ١٥ ص ١٩٥ . (٣) راجع ص ١٦ من هذا الجزء .

(٤) البيت مطلع معلقة امرئ القيس وتمامه :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٥) البيت مطلع قصيدة لامرئ القيس أيضا والبيت بتمامه :

خليلى مرا بى على أم جندب * نقض لبانات الفؤاد المعذب

فأما ما بعد « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » و « خَلَقَ الْجَانَّ » فإنه خطاب للإنس والجن ، والصحيح قول الجمهور لقوله تعالى : « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » والآلاء النعم، وهو قول جميع المفسرين ، واحدها إِلًى وَأَلًى مثل مِعًى وعصًا ، وإِلْيٌ وأَلْيٌ أربع لغات حكاها النحاس قال : وفي واحد « آنَاءِ اللَّيْلِ » ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف المسكنة اللام ، وقد مضى في « الأعراف »(١) و « النجم »(٢) . وقال ابن زيد : إنها القدرة، وتقدير الكلام فبأيّ قدرة ربكما تكذبان؛ وقاله الكلبي واختاره الترمذيّ محمد بن علي، وقال : هذه السورة من بين السور عَلَمُ القرآن ، والعَلَم إمام الجند والجند تتبعه ، وإنما صارت عَلَمًا لأنها سورة صفة الملك والقدرة؛ فقال : « الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ » فافتتح السورة باسم الرحمن من بين الأسماء ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال : « الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ » ثم ذكر الإنسان فقال : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » ثم ذكر ما صنع به وما منّ عليه به ، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجود الأشياء مما نَجَمَ وشَجَر ، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل ، ووضع الأرض للأنام ؛ فخاطب هذين الثقلين الجنّ والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك ، فأشركوا به الأوثان وكل معبود اتخذوه من دونه ، وجحدوا الرحمة التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم ، فقال سائلا لهم : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي بأيّ قدرة ربكما تكذبان ، فإنما كان تكذيبهم أنهم جعلوا له في هذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته شريكا يملك معه ويقدر معه، فذلك تكذيبهم . ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال ، وذكر خلق الجانّ من مارج من نار ، ثم سألهم فقال : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» أي بأيّ قدرة ربكما تكذبان؛ فإن له في كل خلق بعد خلق قدرة بعد قدرة؛ فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير ، واتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلقٍ خلقٍ . وقال القتبيّ : إن الله تعالى عدّد في هذه السورة نعماءه ، وذكّر خلقه آلاءه ، ثم أتبع

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٧ . (٢) راجع ص ١٢١ من هذا الجزء .

كل خَلّة وصفها ونعمة وضعها بهذه، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها؛ كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: ألم تكن فقيرًا فأغنيتك أفتنكر هذا؟! ألم تكن خاملًا فعززتك أفتنكر هذا؟! ألم تكن صَرُورة[1] فحججت بك أفتنكر هذا!؟ ألم تكن راجلًا فحملتك أفتنكر هذا؟! والتكرير حَسن فى مثل هذا. قال:

* كَمْ نِعْمَةٍ كانتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وكَمْ *

وقال:

لا تَقْتُلِي مُسْلِمًا إنْ كنتِ مُسْلِمَةً * إيَّاكِ مِنْ دَمِهِ إيَّاكِ إيَّاكِ

وقال آخر:

لا تَقطعنَّ الصديقَ ما طَرَفتْ * عيناكَ من قول كاشح أَشِرِ
ولا تَمَلَّنَّ من زيارته زُرْهُ * وزُرْهُ وزُرْ وزُرْ وزُرِ

وقال الحسين بن الفضل: التكرير طردا للغفلة، وتأكيدًا للحجة.

قوله تعالى: خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير من السماء والأرض، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» باتفاق من أهل التأويل يعنى آدم. ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ الصلصال الطين اليابس الذى يسمع له صلصلة، شبهه بالفَخَّار الذى طبخ. وقيل: هو طين خلط برمل. وقيل: هو الطين المنتن من صَلَّ اللحمُ وأَصَلَّ إذا أنتن؛ وقد مضى فى «الحجر»[2]. وقال هنا: «مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ» وقال هناك: «مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ». وقال: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ

---

(١) الصرورة: الذى لم يحج قط. (٢) راجع ج١٠ ص ٢١.

لَازِبٍ» . وقال : «كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ»[2] وذلك متفق المعنى؛ وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طينا ، ثم انتقل فصار كالحمإ المسنون ، ثم انتقل فصار صلصالا كالفخّار . ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ قال الحسن : الجانّ إبليس وهو أبو الجنّ . وقيل : الجانّ واحد الجنّ ، والمارج اللهب ؛ عن ابن عباس ، وقال : خلق الله الجانّ من خالص النار . وعنه أيضا من لسانها الذى يكون فى طرفها إذا التهبت . وقال الليث : المارج الشُّعْلة الساطعة ذات اللهب الشديد . وعن ابن عباس أنه اللهب الذى يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر ، ونحوه عن مجاهد ، وكله متقارب المعنى . وقيل : المارج كل أمر مرسل غير ممنوع ، ونحوه قول المبرد ؛ قال المبرد : المارج النار المرسلة التى لا تمنع . وقال أبو عبيدة والحسن : المارج خلط النار ، وأصله من مرج إذا اضطرب واختلط ؛ ويروى أن الله تعالى خلق نارين فمرج إحداهما بالأخرى ، فأكلت إحداهما الأخرى وهى نار السموم فخلق منها إبليس . قال القُشَيْرِىّ : والمارج فى اللغة المرسل أو المختلط وهو فاعل بمعنى مفعول ؛ كقوله : « مَاءٍ دَافِقٍ »[3] و « عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ »[4] والمعنى ذو مرج ؛ قال الجوهرى فى الصحاح : و « مَارِجٍ مِنْ نَارٍ » نار لا دخان لها خلق منها الجان . ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أى هو رب المشرقين . وفى الصافات « وَرَبُّ الْمَشَارِقِ »[1] وقد مضى الكلام فى ذلك هنالك .

قوله تعالى : مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾

---

(١) راجع ج ١٥ ص ٦٣ وص ٦٨ . (٢) راجع ج ٤ ص ١٠٢ .
(٣) راجع ج ٢٠ ص ٤ . (٤) راجع ج ١٨ ص ٢٧٠ .

قوله تعـالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ «مَرَجَ» أى خَلَّى وأرسل وأهمل ؛ يقال : مرج السلطان الناس إذا أهملهم . وأصل المَرَج الإهمال كما تُمْرَج الدابّةُ فى المرعى . ويقـال : مَرَجَ خَلَطَ . وقال الأخفش ؛ ويقـول قوم أَمْرَج البحرين مثل مَرَج ، فَعَل وأَفْعَل بمعنًى . « الْبَحْرَيْنِ » قال ٱبن عباس : بحر السماء وبحر الأرض ؛ وقاله مجاهد وسعيد بن جبير . « يَلْتَقِيَانِ » فى كل عام . وقيل : يلتقى طرفاهما . وقال الحسن وقتادة : بحر فارس والروم . وقال ٱبن جريج : إنه البحر المـالح والأنهار العذبة . وقيل : بحر المشرق والمغرب يلتقى طرفاهما . وقيل : بحر اللؤلؤ والمرجان . «بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ» أى حاجز فعلى القول الأوّل ما بين السماء والأرض ؛ قاله الضحاك . وعلى القول الثـانى الأرض التى بينهما وهى الحجاز ؛ قاله الحسن وقتادة . وعلى غيرهما من الأقوال القدرة الإلٰهية على ما تقدّم فى « الفرقان »(١) . وفى الخبر عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " أن الله تعالى كلّم الناحية الغربيـة فقال : إنى جاعل فيك عبادًا لى يُسبّحونى ويُكبّرونى ويهلّلونى ويُمجّدونى فكيف أنت لهـم ؟ فقالت : أُغرِقُهم ياربّ . قال : إنى أحملهـم على يدى ، وأجعـل بأسـك فى نواحيك . ثم كلّم الناحية الشرقيـة فقال : إنى جاعل فيـك عبادًا لى يُسبّحونى ويكبّرونى ويهلّلونى ويمجّدونى فكيف أنت لهم ؟ قالت : أسـبّحكَ معهم إذا سـبّحوكَ ، وأكبّرك معهم إذا كبروك ، وأُهلّلك معهم إذا هلّلوكَ ، وأُمَجّدُك معهم إذا مجّدوك ؛ فأثابها الله الحِلْية وجعـل بينهما برزخًا ، وتحوّل أحدهما مِلحًا أُجاجًا ، وبقى الآخر على حالتـه عذبًا فُرَاتًا " ذكر هذا الخبر الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله قال : حدّثنا صالح بن محمد ، حدّثنا القاسم العمريّ عن سهل عن أبيه عن أبى هريرة : « لَا يَبْغِيَانِ » قال قتادة : لا يبغيان على الناس فيغرقانهم ؛ جعل بينهما و بين الناس يبسًا(٢) . وعنه أيضا ومجاهد : لا يبغى أحدهما على صاحبه فيغلبه . ٱبن زيد : المعنى « لَا يَبْغِيَانِ » أن يلتقيا ، وتقدير الكلام : مرج البحرين يلتقيان ، لولا البرزخ الذى بينهما لا يبغيان أن يلتقيا . وقيل : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ؛ أى بينهما مدّة قدرها الله وهى مدّة الدنيا فهما لا يبغيان ؛ فإذا أذن الله فى ٱنقضاء الدنيا صار البحران

(١) راجع جـ ١٣ ص ٥٨ . (٢) فى ب ، ج ، ز ، س ، ل ، هـ : «اليبس» .

شيئًا واحدًا، وهو كقوله تعالى : « وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ »[1] . وقال سهل بن عبدالله : البحران طريق الخير والشر ، والبرزخ الذى بينهما التوفيق والعصمة .

قوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [أى يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان][2]، كما يخرج من التراب الحبّ والعصف والريحان . وقرأ نافع وأبو عمرو « يُخْرَجُ » بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول . الباقون « يَخْرُجُ » بفتح الياء وضم الراء على أن اللؤلؤ هو الفاعل . وقال : «مِنْهُمَا» وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما؛ كقوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ »[3] وإنما الرسل من الإنس دون الجن ؛ قاله الكلبي وغيره . قال الزجاج : قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما ؛ وهو كقوله تعالى : «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا »[4] والقمر فى سماء الدنيا ولكن أجمل ذكر السبع فكأن ما فى إحداهنّ فيهنّ . وقال أبو عليّ الفارسيّ : هذا من باب حذف المضاف؛ أى من أحدهما ؛ كقوله : «عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[5] أى من إحدى القريتين. وقال الأخفش سعيد : زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب . وقيل : هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان . آبن عباس : هما بحرا السماء والأرض . فإذا وقع ماء السماء فى صدف البحر آنعقد لؤلؤًا فصار خارجًا منهما ؛ وقاله الطبرى . قال الثعلبيّ : ولقد ذُكر لى أن نواة كانت فى جوف صدفة ، فأصابت القطرةُ بعض النواة ولم تُصب البعض ، فكان حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة وسائرها نواة . وقيل : إن العذب والملح قد يلتقيان ، فيكون العذب كاللقاح للملح، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى ؛ لذلك قيل : إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقى فيه العذب والملح . وقيل : المرجان عظام اللؤلؤ وكباره ؛ قاله على وآبن عباس رضى الله عنهما . واللؤلؤ صغاره . وعنهما أيضا بالعكس : إن اللؤلؤ كبار اللؤلؤ والمرجان صغاره ؛ وقاله الضحاك وقتادة . وقال آبن مسعود وأبو مالك : المرجان الخرز الأحمر .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٢ (٢) ما بين المربعين ساقط من ز ، ل . (٣) راجع جـ ٧ ص ٨٥
(٤) راجع جـ ١٨ ص ٣٠٤ (٥) راجع جـ ١٦ ص ٨٢

قوله تعالى : وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ ﴾ يعنى السفن . ﴿ الْمُنْشَآتُ ﴾ قراءة العامة « الْمُنْشَئَاتُ » بفتح الشين ؛ قال قتادة : أى المخلوقات للجرى مأخوذ من الإنشاء . وقال مجاهد : هى السفن التى رُفع قِلْعها ؛ قال : و إذا لم يُرفَع قِلْعها فليست بمنشَئات . وقال الأخفش : إنها المجريات . وفى الحديث : أن عليًّا رضى الله عنه رأى سفنًا مُقْلعة ، فقال : وربِّ هذه الجوارِى المنشآت ما قتلت عثمان ولا مالأت فى قتله . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم باختلاف عنه « الْمُنشِئَاتُ » بكسر الشين أى المنشِئات السير ؛ أضيف الفعل إليها على التجوز والاتساع . وقيل : الرافعات الشُّرُع أى القُلُع . ومن فتح الشين قال : المرفوعات الشُّرع . ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أى كالجبال، والعَلَم الجبل الطويل ، قال :(١)

* إذا قطعْنَ عَلَمًا بدَا عَلَمْ *

فالسفن فى البحر كالجبال فى البر، وقد مضى فى «الشورى»(٢) بيانه . وقرأ يعقوب «الجَوَارِى» بياء فى الوقف، وحذف الباقون .

قوله تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الضمير فى « عَلَيْهَا » للأرض ، وقد جرى ذكرها فى أول السورة فى قوله تعالى : « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » وقد يقال : هو أكرم مَنْ عليها ،

---

(١) قائله جرير ؛ وتمام البيت :

* حتى تناهين بنا إلى الحكم *

وبعده : خليفة الحجاج غير المتهم * فى ضنضئ المجد وبؤبؤ الكرم

(٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٣

يعنون الأرض وإن لم يجر لها ذكر . وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فنزلت : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »(١) فأيقنت الملائكة بالهلاك ؛ وقاله مقاتل . ووجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت ، ومع الموت تستوى الأقدام. وقيل : وجه النعمة أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب . ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي ويبقى الله ؛ فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه ؛ قال الشاعر :

قَضَى على خَلْقِه المنايا * فكلُّ شيء سواه فانِى

وهذا الذي ارتضاه المحققون من علمائنا : ابن فورك وأبو المعالي وغيرهم . وقال ابن عباس : الوجه عبارة عنه كما قال : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وقال أبو المعالي : وأما الوجه فالمراد به عند معظم أئمتنا وجود الباري تعالى ، وهو الذي ارتضاه شيخنا . ومن الدليل على ذلك قوله تعالى : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ » والموصوف بالبقاء عند تعرض الخلق للفناء وجود الباري تعالى . وقد مضى في « البقرة »(٢) القول في هذا عند قوله تعالى : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى مستوفى . قال القشيري : قال قوم هو صفة زائدة على الذات لا تُكَيف ، يحصل بها الإقبال على من أراد الربّ تخصيصه بالإكرام . والصحيح أن يقال : وجهه وجوده وذاته ، يقال : هذا وجه الأمر ووجه الصواب وعين الصواب . وقيل : أي يبقى الظاهر بأدلته كظهور الإنسان بوجهه . وقيل : وتبقى الجهة التي يتقرب بها إلى الله . ﴿ ذُو الْجَلَالِ ﴾ الجلال عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح ؛ يقال : جَلَّ الشيءُ أي عَظُم وأجللته أي عظّمته ، والجلال اسم من جلّ . ﴿ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أي هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك ؛ كما تقول : أنا أكرمك عن هذا ؛ ومنه إكرام الأنبياء والأولياء . وقد أتينا على هذين الاسمين لغةً ومعنًى في الكتاب الأسنى مستوفًى . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أَلِظُّوا بياذا الجلالِ والإكرام " . وروى أنه من قول ابن مسعود ؛ ومعناه : الزموا ذلك في الدعاء . قال أبو عبيد :

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٢ . (٢) راجع جـ ٢ ص ٨٣ .

الإلظاظ لزوم الشيء والمثابرة عليه. ويقال : الإلظاظ الإلحاح. وعن سعيد المقبري : أن رجلاً أَلَحّ يجعل يقول : اللّهم ياذا الجلال والإكرام ! اللّهم ياذا الجلال والإكرام ! فنودى : إني قد سمعت فما حاجتك ؟

قوله تعالى : يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قيل : المعنى يسأله من في السموات الرحمة ، ومن في الأرض الرزق . وقال ابن عباس وأبو صالح : أهل السموات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونهما جميعا . وقال ابن جريج : وتسأل الملائكة الرزق لأهل الأرض، فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض. وفي الحديث : «إن من الملائكة ملكاً له أربعة أوجه [وجه][1] كوجه الإنسان وهو يسأل الله الرزق لبني آدم ووجه كوجه الأسد وهو يسأل الله الرزق للسباع ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله الرزق للبهائم ووجه كوجه النّسر وهو يسأل الله الرزق للطير" . وقال ابن عطاء : إنهم سألوه القوّة على العبادة . ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ هذا كلام مبتدأ . وانتصب « كُلَّ يَوْمٍ » ظرفًا ، لقوله : « فِي شَأْنٍ » أو ظرفًا للسؤال ؛ ثم يبتدئ « هُوَ فِي شَأْنٍ » . وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » قال : " من شأنه أن يغفر ذنبًا ويفرّج كربًا ويرفع قوما[2] ويضع آخرين". وعن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » قال : " يغفر ذنبا ويكشف كربًا ويجيب داعيا" . وقيل : من شأنه أن يحيي ويميت ، ويُعِزّ ويذل ، ويرزق ويمنع . وقيل : أراد شأنه في يومي الدنيا والآخرة . قال ابن بحر : الدهر كله يومان ، أحدهما مدة أيام الدنيا ، والآخر يوم القيامة ، فشأنه سبحانه وتعالى في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع ، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب ،

(١) الزيادة من ب ، ح ز ، س ، ل ، هـ . (٢) في ب ، ح ، ز ، س ، ل ، هـ : « أقواما » .

والثواب والعقاب . وقيل : المراد بذلك الإخبار عن شأنه فى كل يوم من أيام الدنيا وهو الظاهر . والشأن فى اللغة الخطب العظيم والجمع الشئون والمراد بالشأن هاهنا الجمع كقوله تعالى : « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا »(١) . وقال الكلبي : شأنه سوق المقادير إلى المواقيت . وقال عمرو ابن ميمون فى قوله تعالى : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » من شأنه أن يميت حيًّا ، ويُقِرّ فى الأرحام ماشاء ، ويُعزّ ذليلاً ، ويُذلّ عزيزاً . وسأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فلم يعرف معناها ، واستمهله إلى الغد فانصرف كئيباً إلى منزله فقال له غلام له أسود : ماشأنك ؟ فأخبره . فقال له : عد إلى الأمير فإنى أفسرها له ، فدعاه فقال : أيها الأمير! شأنه أن يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحيّ من الميّت ، ويخرج الميّت من الحيّ ، ويَشفى سقيماً ، ويُسقم سليماً ، ويَبتلى معافًى ، ويعافى مبتلًى ، ويُعزّ ذليلاً ، ويذل عزيزاً ، ويُفقر غنياً ، ويغنى فقيراً ؛ فقال له : فرّجت عنى فرّج الله عنك ، ثم أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام ؛ فقال : يامولاى ! هذا من شأن الله تعالى . وعن عبد الله ابن طاهر : أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت علىّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لى : قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ »(٢) وقد صح أن الندم توبة . وقوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » وقد صح أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة . وقوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »(٣) فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز ألا يكون الندم توبة فى تلك الأمة ، ويكون توبة فى هذه الأمة ؛ لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم . وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله . وأما قوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فإنها شئون يبديها لا شئون يبتديها . وأما قوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » فمعناه : ليس له إلا ما سعى عدلًا ولى أن أجزيه بواحدة ألفًا فضلا . فقام عبد الله وقبل رأسه وسوغ خراجه .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٠ (٢) راجع جـ ٦ ص ١٤٣ (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٤٤

قوله تعالى : سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ
أَقْطَارِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ
فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ يقال : فَرَغت من الشغل أفرغُ فُروغاً وفَراغاً وتفرّغت لكذا واستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه ، إنما المعنى سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم ، وهذا وعيد وتهديد لهم كما يقول القائل لمن يريد تهديده : إذاً أتفرغ لك أى أقصدك . وفرغ بمعنى قصد، وأنشد ابن الأنبارى فى مثل هذا لجرير :

الآن وقد فَرَغتُ إلى نُمَيْرٍ * فهذا حينَ كُنتُ لها عَذابا

يريد وقد قصدت . وقال أيضاً[1] وأنشده النحاس :

* فَرغْتُ إلى العَبْدِ المقيَّدِ فى الحِجْلِ *

وفى الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما بايع الأنصار ليلة العقبة ، صاح الشيطان : ياأهل الجُبَاجب[2] ! هذا مُذَمَّم يبايع بنى قَيْلة على حربكم ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هذا أَزَبُّ[3] العَقَبة أَمَا والله ياعدوّ الله لأتفرغن لك " أى أقصد إلى إبطال أمرك . وهذا اختيار القتبي والكسائي وغيرهما . وقيل : إن الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور ، ثم قال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » مما وعدناكم ونوصل كُلًّا إلى ماوعدناه ؛ أى أقسم ذلك وأتفرغ منه . قاله الحسن ومقاتل وابن زيد . وقرأ عبد الله وأبيّ « سَنفرُغُ إلَيْكُمْ » وقرأ الأعمش وإبراهيم

(١) أى جرير . (٢) الجباجب : منازل منى (٣) الإزب : ضبطه الحلبى فى سيرته بكسر الهمزة وإسكان الزاى ، وهو هنا اسم شيطان .

« سَيُفْرَغُ لَكُمْ » بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله . وقرأ ابن شهاب والأعرج « سَنَفْرَغُ لَكُمْ » بفتح النون والراء ؛ قال الكسائي : هي لغة تميم يقولون فَرِغ يفرَغ ، وحكى أيضا فَرَغ يَفرَغ ورواهما هُبيرة عن حفص عن عاصم . وروى الجُعْفي عن أبي عمرو «سَيَفْرَغُ» بفتح الياء والراء ، ورويت عن ابن هُرْمز . وروى عن عيسى الثقفي « سَنِفْرَغُ لَكُمْ » بكسر النون وفتح الراء، وقرأ حمزة والكسائي «سَيَفْرُغُ لَكُمْ» بالياء . الباقون بالنون وهي لغة تهامة . والثّقلان الجنّ والإنس؛ سُمّيا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف . وقيل : سمّوا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياءً وأمواتاً ؛ قال الله تعالى : «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا»(١) ومنه قولهم : أعطه ثقله أي وزنه . وقال بعض أهل المعاني : كل شئ له قدر ووزن يُنافَس فيه فهو ثقل . ومنه قيل لبيض النعام ثقل ؛ لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به . وقال جعفر الصادق : سمّيا ثقلين ؛ لأنهما مثقلان بالذنوب . وقال: « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » بجمع ، ثم قال : « أَيُّهَ الثَّقَلَانِ » لأنهما فريقان وكل فريق جمع ، وكذا قوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ » ولم يقل إن استطعتما ؛ لأنهما فريقان في حال الجمع ، كقوله تعالى : «فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ»(٢) و « هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ »(٣) ولو قال : سنفرغ لكما ، وقال : إن استطعتما لجاز(٤) . وقرأ أهل الشام « أَيُّهُ الثَّقَلَانِ » بضم الهاء . الباقون بفتحها وقد تقدّم(٣) .

مسألة — هذه السورة و « الْأَحْقَاف » و « قُلْ أُوحِيَ » دليل على أن الجنّ مخاطبون مكلّفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالإنس سواء ، مؤمنُهم كمؤمنهم ، وكافرُهم ككافرهم ، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ الآية . ذكر ابن المبارك : وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها ، فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الربّ ، فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر الله السماء التي تليها

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٧ .
(٢) راجع جـ ١٣ ص ٢١٤ .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٥ وص ٢٣٨ و جـ ١٦ ص ٩٧
(٤) أي في غير القرآن .

كذلك فينزلون فيكونون صفًّا من خلف[1] ذلك الصف ، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة ؛ فينزل الملَك الأعلى فى بهائه وملكه ومجنّبته اليسرى جهنم ، فيسمعون زفيرها وشهيقها ، فلا يأتون قُطرًا من أقطارها إلا وجدوا صفوفًا من الملائكة ، فذلك قوله تعالى : « يَآ مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » والسلطان العذر. وقال الضحاك أيضا : بينما الناس فى أسواقهم ٱنفتحت السماء، ونزلت الملائكة، فتهرب الجنّ والإنس، فتحدق بهم الملائكة، فذلك قوله تعالى : « لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » ذكره النحاس .

قلت . فعلى هـذا يكون فى الدنيا ، وعلى ما ذكر ٱبن المبارك يكون فى الآخرة . وعن الضحاك أيضًا : إن ٱستطعتم أن تهربوا من الموت فٱهربوا . وقال ٱبن عباس : إن ٱستطعتم أن تعلموا ما فى السموات وما فى الأرض فٱعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان أى ببينة من الله تعالى . وعنه أيضًا أن معنى : « لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » لا تخرجون من سلطانى وقدرتى عليكم . قتادة : لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك . وقيل : لا تنفذون إلا إلى سلطان[2]، الباء بمعنى إلى ؛ كقوله تعالى : « وَقَدْ أَحْسَنَ بِى[3] » أى إلىّ . قال الشاعر[4] :

أَسِيئِى بِنا أو أحسِنِى لا ملولةٌ * لدَيْنا ولا مَقْلِيّةٌ إن تَقَلَّتِ

وقوله : « فَٱنفُذُوا » أمر تعجيز.

قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ أى لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار ، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ . وقيل : ليس هـذا متعلقًا بالنفوذ بل أخبر أنه يعاقب العصاة عذابًا بالنار . وقيل : أى بآلاءِ ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس عقوبة على ذلك التكذيب . وقيل : يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون « يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ » ، فتلك النار قوله : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِن نَّارٍ »

---

(١) فى ب ، ز ، ح ، س ، د : « فى جوف ذلك الصف » . (٢) فى ب : « إلى سلطانى » .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٢٦٧ . (٤) هو كثير عزة .

والشواظ في قول ابن عباس وغيره اللهب الذي لا دخان له . والنحاس : الدخان الذي لا لهب فيه ؛ ومنه قول أمية بن أبي الصلت يهجو حسان بن ثابت رضي الله عنه ، كذا وقع في تفسير الثعلبي والماوردي بن أبي الصلت ، وفي « الصحاح » و « الوقف والابتداء » لابن الأنباري : أمية بن خلف قال :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ حَسَّانَ عَنِّي * مُغَلْغَلَةً تَدُبُّ إلى عُكَاظِ
أَلَيْس أبوكَ فينا كان قَيْنًا * لَدَى القَيْنَاتِ فَسْلًا في الحِفَاظِ
يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيرًا * ويَنْفُخُ دَائِبًا لَهَبَ الشُّوَاظِ

فأجابه حسان رضي الله عنه فقال :

هَجَوْتُكَ فَاخْتَضَعْتَ لها بِذُلٍّ * بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ (١)

وقال رُؤبة :

إنّ لهم من وَقْعِنَا أَقْيَاظَا * ونارَ حربٍ تُسْعِرُ الشُّوَاظَا

وقال مجاهد : الشّواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار . الضحاك : هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب . وقاله سعيد بن جبير . وقد قيل : إن الشواظ النار والدخان جميعاً ؛ قاله أبو عمرو وحكاه الأخفش عن بعض العرب . وقرأ ابن كثير «شِواظ» بكسر الشين . الباقون بالضم وهما لغتان ؛ مثل صُوَار وصِوار لقطيع البقر . ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قراءة العامة « وَنُحَاسٌ » بالرفع عطف على « شُوَاظ » . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو « ونُحَاسٍ » بالخفض عطفا على النار . قال المهدوي : من قال إن الشّواظ النارُ والدخان جميعا فالجر في « نُحَاس » على هذا بيّن . فأما الجر على قول من جعل الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنه قال : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا

(١) وفي التاج بدل هذا البيت :

مجللة تعممه شنارا * مضرمة تأجج كالشواظ

والفسل من الرجال : الرذل الذي لا مروءة له ولا جلد . والمفسول مثله .

شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ » وشيء من نحاس؛ فشيء معطوف على شواظ، ومن نحاس جملة هي صفة لشيء، وحذف شيء، وحذفت مِن لتقدم ذكرها في « مِنْ نَارٍ » كما حذفت على من قولهم: على من تنزل أنزل [أى][1] عليه. فيكون « نُحَاس » على هـذا مجروراً بمن المحذوفـة. وعن مجاهـد وحُميد وعكرمة وأبى العـالية « ونِحاسٍ » بكسر النون لغتـان كالشِّواظ والشُّواظ. والنِّحاس بالكسر أيضًا الطبيعة والأصل؛ يقال: فلان كريم النِّحاس والنُّحاس أيضًا بالضم أى كريم النِّجار[2]. وعن مسلم بن جُنْدَب « ونَحْسٌ » بالرفع. وعن حنظلة بن مرّة بن النعمان الأنصارى « ونَحْسٍ » بالجـر عطف على نار. ويجـوز أن يكون « ونِحاسٍ » بالكسر جمع نَحْسٍ كصَعْب وصِعاب « ونَحْسٌ » بالرفع عطف على « شـواظ » وعن الحسن « ونُحُسٍ » بالضم [فيهما][3] جمع نَحْس. ويجوز أن يكون أصله ونُحُوس فقصر بحذف واوه حسب ما تقدّم عند قوله: « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »[4]. وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة « ونَحُسُّ » بفتح النون وضم الحاء وتشديد السين من حَسَّ يَحُسُّ حَسًّا إذا آستأصل؛ ومنه قوله تعالى: « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ »[5] والمعنى ونقتل بالعذاب. وعلى القراءة الأولى « ونُحَاسٌ » فهو الصُّفْر المذاب يُصَبُّ على رءوسهم؛ قاله مجاهد وقتادة، وروى عن آبن عباس. وعن آبن عبـاس أيضًا وسعيد آبن جُبير أن النحاس الدخان الذى لا لهب فيـه؛ وهو معنى قول الخليل؛ وهو معروف فى كلام العرب بهذا المعنى؛ قال نابغة بنى جَعْدة:

يُضىءُ كضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيـ * ـطِ لم يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحَـاسَا

قال الأصمعى: سمعت أعرابيًا يقـول السَّليط دهن السِّمسم بالشام ولا دخان فيـه. وقال مقاتل: هى خمسة أنهار من صُفْر مُذَاب، تجرى من تحت العرش على رءوس أهل النار؛ ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار. وقال آبن مسعود: النُّحَاس المُهْـل. وقال الضحاك: هو دُرْدِىّ الزّيت المغلىّ. وقال الكسائى: هو النار التى لها ريح شديدة.

﴿ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ أى لا ينصر بعضكم بعضا يعنى الجن والإنس.

(١) زيادة يقتضيها السياق. (٢) النجار — بكسر النون وضمها — الأصل والحسب.
(٣) الذى فى الأصول: « بالضم فيهن » وما أثبتناه هو ما عليه كتب التفسير أى بضمتين وكسر السين.
(٤) راجع جـ ١٠ ص ٩١. (٥) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣.

قوله تعالى : فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ أى ٱنصدعت يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ الدِّهانُ الدهن ؛ عن مجاهد والضحاك وغيرهما . والمعنى أنها صارت فى صفاء الدهن ؛ والدهان على هذا جمع دُهْن . وقال سعيد بن جُبير وقتادة : المعنى فكانت حمراء . وقيل : المعنى تصير فى حمرة الورد وجريان الدهن ؛ أى تذوب مع الآنشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم ، وتصير مثل الدُّهن لرقتها وذوبانها . وقيل : الدّهان الجلد الأحمر الصّرف ؛ ذكره أبو عبيد والفراء . أى تصير السماء حمراء كالأديم لشدة حَرِّ النار . آبن عباس : المعنى فكانت كالفرس الْوَرْد ؛ يقال للكُمَيت : وَرْدٌ إذا كان يتلون بألوان مختلفة . قال آبن عباس : الفرس الوَرْد ؛ فى الربيع كميت أصفر ، وفى أوّل الشتاء كُمَيت أحمر ، فإذا آشتد الشتاء كان كُمَيْتًا أغبر . وقال الفراء : أراد الفرس الوَرْدِيّة ، تكون فى الربيع وَرْدةً إلى الصفرة ، فإذا آشتد البرد كانت وَرْدةً حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت وَرْدةً إلى الغُبرة ، فشبه تلون السماء بتلون الوَرْد من الخيل . وقال الحسن : « كَالدِّهَانِ » أى كصبّ الدُّهْن فإنك إذا صببته ترى فيه ألواناً . وقال زيد آبن أسلم : المعنى أنها تصير كعَكَر الزيت ، وقيل : المعنى أنها تمر وتجىء . قال الزجاج : أصل الواو والراء والدال للمجىء والإتيان . وهذا قريب مما قدمناه من أن الفرس الوَرْدة تتغير ألوانها . وقال قتادة : إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر ؛ حكاه الثعلبي . وقال الماوردىّ : وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة ، وأنها لكثرة الحوائل وبُعد المسافة تُرى بهذا اللون الأزرق ، وشبهوا ذلك بعروق البدن ، وهى حمراء كحمرة الدم وتُرى بالحائل زرقاء ؛ فإن كان هذا صحيحا فإن السماء لقربها من النواظر يوم القيامة وآرتفاع الحواجز ترى حمراء ، لأنه أصل لونها . والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ هذا مثل قوله تعالى: «وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ»[1] وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم؛ فيسأل فى بعض ولا يسأل فى بعض، وهذا قول عكرمة. وقيل: المعنى لا يسألون إذا آستقروا فى النار. وقال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم؛ لأن الله حفظها عليهم، وكتبتها عليهم الملائكة. رواه العوفى عن آبن عباس. وعن الحسن ومجاهد أيضا: المعنى لا تسأل الملائكة عنهم؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم؛ دليله ما بعده. وقاله مجاهد عن آبن عباس. وعنه أيضا فى قوله تعالى: «فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»[2] وقوله: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ» وقال: لا يسألهم ليعرف ذلك منهم؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ. وقال أبو العالية: لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم. وقال قتادة: كانت المسألة قبل؛ ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم. وفى حديث أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وفيه قال: "فَيَلْقَى العبدَ فيقول أى فُلْ[3] ألم أُكْرِمك وأُسوِّدك وأُزوِّجْك وأُسخِّر لك الخيلَ والإبلَ وأذرْك ترأَس وتربَع فيقول بلى فيقول أفظننتَ أنك مُلاقىّ فيقول لا فيقول إنى أنساك كما نسيتنى ثم يلقى الثانى فيقول له مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يارب آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصلّيت وصمت وتصدّقت ويثنى بخير ما آستطاع فيقول ها هنا إذًا ثمّ يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك فيفتكر فى نفسه مَن هذا الذى يشهد علىّ فيُختَم على فِيهِ ويقال لفخذه ولحمه وعظامه آنطقى فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله وذلك ليعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يسخط الله عليه" وقد مضى هذا الحديث فى «حم السجدة» وغيرها[4].

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣١٦ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٥٩

(٣) أى فل: معناه يا فلان وليس ترخيما له، وإنما هى صيغة آرتجلت فى النداء، ولا تقال إلا بسكون اللام. وقال قوم: إنه ترخيم فلان.

(٤) راجع جـ ١٥ ص ٤٨ وص ٣٥٠

قوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ قال الحسن : بسواد الوجه وزرقة الأعين ، قال الله تعالى : « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا »[1] وقال تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ »[2] . ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ أى تأخذ الملائكة بنواصيهم ؛ أى بشعور مقدم رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم فى النار . والنواصى جمع ناصية . وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره . وعنه : يؤخذ برجلى الرجل فيجمع بينهما و بين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقى فى النار . وقيل : يفعل ذلك به ليكون أشدّ لعذابه وأكثر لتشويهه . وقيل : تسحبهم الملائكة إلى النار ؛ تارةً تأخذ بناصيته وتجره على وجهه ، وتارةً تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه .

قوله تعالى : ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أى يقال لهم هذه النار التى أخبرتم بها فكذبتم . ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ قال قتادة : يطوفون مرةً بين الحميم ومرةً بين الجحيم ، والجحيم النار ، والحميم الشراب . وفى قوله تعالى : « آنٍ » ثلاثة أوجه ، أحدها أنه الذى انتهى حَرُّه وحميه . قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير والسّدى ؛ ومنه قول النابغة الذُّبْيانى :

وتُخضَبْ لِحيَةٌ غَدرتْ وخَانتْ * بأحمَرَ من نجيعِ الجوفِ آنِ[3]

قال قتادة : « آنٍ » طبخ منذ خلق الله السموات والأرض ؛ يقول : إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم ذلك . وقال كعب : « آن » واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٤٤ . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٦٦ .

(٣) نجيع الجوف : يعنى الدم الخالص . وقبل البيت :

فإن يقدر عليك أبو قبيس * تحط بك المعيشة فى هوان

النار فيغمسون بأغلالهم فيــه حتى تنخلع أوصالهم ، ثم يخرجون منها وقــد أحدث الله لهم خلقًا جديدًا فيلقون فى النار ، فذلك قوله تعالى : « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . وعن كعب أيضا : أنه الحاضر . وقال مجاهد : إنه الذى قد آن شربه وبلغ غايته . والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما فى ذلك من الزجر عن المعاصى والترغيب فى الطاعات . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أتى على شاب فى الليل يقرأ « فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » فوقف الشاب وخنقته العَبْرة وجعل يقول : وَيْحِى من يوم تنشق فيه السماء وَيْحِى ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وَيْحَك يافتى مثلها فو الذى نفسى بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك[1] " .

قوله تعالى : وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — لما ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعدّ للأبرار . والمعنى خاف مقامه بين يدى ربه للحساب فترك المعصية . فـ « مَقَامَ » مصدر بمعنى القيام . وقيل : خاف قيام ربه عليه أى إشرافه وآطلاعه عليه؛ بيانه قوله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ[2] » . وقال مجاهد وإبراهيم النخعى : هو الرجل يَهُمّ بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه .

الثانيــة — هذه الآية دليل على أن من قال لزوجه : إن لم أكن من أهل الجنه فأنت طالق أنه لا يحنث إن كان هَمَّ بالمعصية وتركها خوفًا من الله وحياءً منه . وقال به سفيان الثورىّ وأفتى به . وقال محمد بن علىّ الترمذىّ : جنةٌ لخوفه من ربه ، وجنةٌ لتركه شهوته . وقال آبن عباس : من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض . وقيل : المقام الموضع؛ أى خاف مقامه بين يدى ربه للحساب كما تقدّم . ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله ، وهــو كالأجل فى قــوله : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ[3] » وقــوله فى موضع آخر :

(١) فى ب ، ح ، ز ، س ، ل ، هـ : « من بكائك » . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٢٢ .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٠٢ .

«إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ»(١) . ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أي لمن خاف جنتان على حدة؛ فلكل خائف جنتان . وقيل : جنتان لجميع الخائفين؛ والأول أظهر . وروى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الجنتان بستانان في عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام في وسط كل بستان دار من نور(٢) وليس منها شيء إلا يهتز نغمة وخضرة، قرارها ثابت وشجرها ثابت " ذكره المهدوي والثعلبي أيضا من حديث أبي هريرة . وقيل : إن الجنتين جنته التي خلقت له وجنة ورثها . وقيل : إحدى الجنتين منزله والأخرى منزل أزواجه كما يفعله رؤساء الدنيا . وقيل : إن إحدى الجنتين مسكنه والأخرى بستانه . وقيل : إن إحدى الجنتين أسافل القصور والأخرى أعاليها . وقال مقاتل : هما جنة عدن وجنة النعيم . وقال الفراء : إنما هي جنة واحدة؛ فثنى لرءوس الآي . وأنكر القتبي هذا وقال : لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون وإنما قال تسعة عشر لمراعاة رءوس الآي . وأيضا قال : «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» . وقال أبو جعفر النحاس: قال الفراء قد تكون جنة فَتُثَنَّى في الشعر؛ وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عز وجل، يقول الله عز وجل : «جَنَّتَانِ» ويصفهما بقوله : «فِيهِمَا» فيدع الظاهر ويقول : يجوز أن تكون جنة ويحتج بالشعر ! وقيل : إنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة . وقيل : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه خاصةً حين ذكر ذات يوم الجنة حين أُزْلِفَت والنار حين بُرِّزَت؛ قاله عطاء وابن شَوْذَب . وقال الضحاك : بل شرب ذات يوم لبنا على ظمإ فأعجبه، فسأل عنه فأخبر أنه من غير حِلّ فاستقاءه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه؛ فقال : " رحمك الله لقد أنزلت فيك آية " وتلا عليه هذه الآية .

قوله تعالى : ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٩٩ (٢) في ز، ل : «نور على نور» .

قوله تعـالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : أى ذواتا ألوان من الفاكهة الواحد فنّ . وقال مجاهـد : الأفنان الأغصان واحدها فنن ؛ قال النابغة :

بكاء حمامـــةٍ تَدْعـو هَـديلاً * مُفَجَّعَـــةٍ عـلى فَـنَنٍ تُغَـنِّى (١)

وقال آخر يصف طائرين :

باتا على غُصْنِ بَانٍ فى ذُرَى فَنَنٍ * يُرَدِّدانِ لُحُـونًا ذاتَ أَلْوَانِ

أراد باللحون اللغات . وقال آخر :

ما هاجَ شَوْقَكَ مِن هَـدِيلِ حمامةٍ * تَدْعو على فَـنَنِ الغُصـونِ حَمَامَا
تدعو أبا فَـرْخَيْنِ صادفَ ضارِيًا * ذا مِخْلَبَيْنِ مِن الصُّـقورِ قَطَامَا

والفنن جمعه أفنان ثم الأفانين ؛ وقال يصف رَحًى :

* لهـا زِمامٌ مِن أفانِينِ الشَّجَرْ *

وشجرة فَنَّاء أى ذات أفنان وفنواء أيضا على غير قياس . وفى الحديث : " أن أهل الجنة مُرْدٌ مكحّلون أولو أفانين " . يد أولو فَنَن وهو جمع أفنان، وأفنان جمع فننٍ [وهو الخُصْلَة (٢)] من الشعر شبّه بالغصن . ذكره الهروى . وقيل : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » أى ذواتا سعة وفضل على ما سواهما ؛ قاله قتـادة . وعن مجـاهد أيضا وعكرمة : إن الأفنـان ظل الأغصـان على الحيطان .

قوله تعـالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أى فى كل واحدة منهما عين جارية . قال ابن عباس : تجريان ماءً بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة . وعن ابن عباس أيضا والحسن : تجريان بالمـاء الزّلال؛ إحدى العينين التسنيم والأخرى السلسبيل . وعنه أيضا :

(١) قبل هذا البيت :

أسائلها وقد سفحت دموعى * كأن مفيضهن غروب شنّ

(٢) الزيادة من النهاية لابن الأثير .

عينان مثل الدنيا أضعافًا مضاعفةً ، حصباؤهما الياقوت الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر ، وترابهما الكافور ، وحمأتهما المسك الأذفر ، وحافتاهما الزعفران . وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين . وقيل : تجريان من جبل من مسك . وقال أبو بكر الورّاق : فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أي صنفان وكلاهما حلوٌ يستلذ به . قال ابن عباس : ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو. وقيل : ضربان رطب ويابس لا يقصر هـذا عن ذلك في الفضل والطِّيب . وقيل : أراد تفضيل هاتين الجنتين على الجنتين اللتين دونهما ، فإنه ذكرها هنا عينين جاريتين ، وذكر ثَمَّ عينين تَنْضخان بالماء والنَّضخ دون الجري ؛ فكأنه قال : في تَيْنك الجنتين من كل فاكهة نوع ، وفي هذه الجنة من كل فاكهة نوعان .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ ﴾ هو نصب على الحال . والفُرُش جمع فراش . وقرأ أبو حَيْوة «فُرْش» بإسكان الراء . ﴿ بَطَائِنُهَا ﴾ جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة . والإستبرق ما غلظ من الديباج وخشن ؛ أي إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا فما ظنك بالظهارة ؛ قاله ابن مسعود وأبو هريرة . وقيل لسعيد بن جُبير : البطائن من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا مما قال الله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » [1] . وقال ابن عباس : إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم ، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله . وفي الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ظواهرها نور يتلألأ" . وعن الحسن : بطائنها من إستبرق ، وظواهرها من نور جامد . وعن الحسن أيضًا : البطائن هي الظواهر ؛

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٠٣

وهو قول الفراء، وروى عن قتادة. والعرب تقول للظهر بطناً، فيقولون : هذا ظهر السماء، وهذا بطن السماء، لظاهرها الذى نراه . وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا ، وقالوا : لا يكون هذا إلا فى الوجهين المتساويين إذا ولى كلّ واحد منهما قوماً ، كالحائط بينك وبين قوم ؛ وعلى ذلك أمر السماء . ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ الجَنَى ما يُجتنَى من الشجر ؛ يقال : أتانا بجناة طيبة لكل ما يجتنى . وثمر جنِيّ على فعيل حين جُنِي ؛ وقال[1] :

هـذا جَنَاىَ وخِيَاره فِيـهْ * إذْ كلُّ جانٍ يَدُهُ إلى فِيـهْ

وقرئ « جِنَى » بكسر الجيم . « دانٍ » قريب . قال ابن عباس : تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولىّ الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعاً ؛ لا يرد يده بُعدٌ ولا شوك .

قوله تعالى : فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ قيل : فى الجنتين المذكورتين . قال الزجاج : وإنما قال : « فيهنّ » ولم يقل فيهما ؛ لأنه عنى الجنتين وما أعد لصاحبهما من النعيم . وقيل : « فِيهِنَّ » يعود على الفُرُش التى بطائنها من إستبرق ؛ أى فى هذه الفرش «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» أى نساء قاصرات الطرف، قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم . وقد مضى فى « والصافات »[2] ووحّد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه فى معنى المصدر ؛ من طَرَفت عينه تطرِف طَرْفاً ، ثم سميت العين بذلك فأدّى عن الواحد والجمع ؛ كقولهم : قوم عَدْل وصَوْم .

(١) هو عمرو بن عدى اللخمى ابن أخت جذيمة الأبرش ، وهو مثل يضرب للرجل يؤثر صاحبه بخيار ما عنده .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٨٠

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ أى لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن هؤلاء أحد . الفـراء : والطمث الافتضاض وهو النـكاح بالتَّدمية ؛ طَمَثَها يطمِثُها و يطمُثها طَمْثًا إذا افتضها . ومنه قيل : امرأة طامث أى حائض . وغير الفراء يخالفه فى هذا و يقول : طمثها بمعنى وطئها على أى الوجوه كان . إلا أن قول الفراء أعرف وأشهر . وقرأ الكسائى « لَمْ يَطْمُثْهُنَّ » بضم الميم ؛ يقال : طَمَثت المرأة تطمُث بالضم حاضت . وطَمِثت بالكسر لغة فهى طامث ؛ وقال الفرزدق :

وقَعْن[1] إلىّ لم يُطْمَثْن قَبْلِي * وهنّ أَصَحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعَامِ

وقيـل : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » لم يمسسهن ؛ قال أبو عمرو : والطمث المسّ وذلك فى كل شىء يمسّ . و يقـال للمَرْتع : ما طمَث ذلك المرتعَ قبلنـا أحدٌ ، وما طمَث هذه النـاقةَ حَبْل ؛ أى ما مسّها عِقال . وقال المبرِّد : أى لم يذلِّلهن إنس قبلهم ولا جان ؛ والطمث التذليل . وقرأ الحسن « جَأن » بالهمز .

الثالثــة — فى هذه الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس ، وتدخل الجنة و يكون لهم فيها جنِّيات . قال ضمرة : للؤمنين منهم أزواج من الحور العين ؛ فالإنسيات للإنس ، والجنيات للجن . وقيل : أى لم يطمث ماوهب الله للؤمنين من الجن فى الجنة من الحور العين من الجنيات جنّ ، ولم يطمث ماوهب الله للؤمنين من الإنس فى الجنة من الحور العين من الإنسـيات إنس ؛ وذلك لأن الجن لا تطأ بنات آدم فى الدنيا . ذكره القشيرى .

قلت : قـد مضى فى « النمـل »[2] القول فى هذا وفى « سبحان »[3] أيضًا ، وأنه جائز أن تطأ بنات آدم . وقد قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه فذلك قوله تعـالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ وذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحـور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان ، وأن الحور العين قـد برئن من هـذا العيب ونزهن ، والطمث الجماع . ذكره بكماله الترمذى الحكيم ، وذكره المهدوى أيضا والثعلبى وغيرهما والله أعلم .

---

(١) فى ب : « دفعن » .   (٢) راجع ج ١٣ ص ٢١١   (٣) راجع ج ١٠ ص ٢٨٩

قوله تعالى : كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حُلّة حتى يرى مخها " وذلك بأن الله تعالى يقول : « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سِلكا ثم آستصفيته لأريته [من ورائه](1) و يروى موقوفا . وقال عمرو بن ميمون : إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حُلّة فيرى مخ ساقها من وراء ذلك ، كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء . وقال الحسن : هنّ فى صفاء الياقوت، و بياض(2) المرجان .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ «هَلْ» فى الكلام على أربعة أوجه : تكون بمعنى قد كقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ »(3) ، و بمعنى الآستفهام كقوله تعالى : « فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا »(4) ، و بمعنى الأمر كقوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ »(5) ، و بمعنى ما فى الجحد كقوله تعالى : « فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ »(6) ، و « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » . قال عكرمة : أى هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة . آبن عباس : ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة . وقيل : هل جزاء من أحسن فى الدنيا إلا أن يحسن إليه فى الآخرة ؛ قاله آبن زيد . وروى أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » ثم قال : " هل تدرون ماذا قال ربكم " قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : " يقول ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة " . وروى آبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ

(١) الزيادة من صحيح الترمذى . (٢) كذا فى الأصول ؛ والمعهود أن المرجان أحمر . (٣) راجع جـ ١٩ ص ٣٠٦
(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٠٩ (٥) راجع جـ ٦ ص ٢٩٢ (٦) راجع جـ ١٠ ص ١٠٣

هذه الآية فقال : " يقول الله هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قدسي برحمتي " وقال الصادق : هل جزاء من أحسنت عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد . وقال محمد بن الحنفية والحسن : هي مُسْجَلة للبرّ والفاجر ؛ أي مرسلة على الفاجر في الدنيا والبر في الآخرة .

قوله تعالى : وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ أي وله من دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان . قال ابن عباس : ومن دونهما في الدَّرج . ابن زيد : ومن دونهما في الفضل . ابن عباس : والجنات لمن خاف مقام ربه ؛ فيكون في الأوليين النخل والشجر ، وفي الأخريين الزرع والنبات وما انبسط . الماوردي : ويحتمل أن يكون « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » لأتباعه لقصور منزلتهم عن منزلته ، إحداهما للحور العين ، والأخرى للولدان المخلّدين ؛ ليتميّز بهما الذكور عن الإناث . وقال ابن جريج : هي أربع : جنتان منها للسابقين المقرّبين « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ » و « عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ » ، وجنتان لأصحاب اليمين « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » و « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » . وقال ابن زيد : إن الأوليين من ذهب للمقرّبين ، والأخريين من ورِق لأصحاب اليمين .

قلت : إلى هذا ذهب الحَلِيمي أبو عبد الله الحسن بن الحسين في كتاب (منهاج الدين له) ؛ واحتج بما رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ » إلى قوله : « مُدْهَامَّتَانِ » قال : تانك للمقرّبين ، وهاتان لأصحاب اليمين . وعن أبي موسى الأشعري نحوه . ولما وصف الله الجنتين أشار إلى الفرق بينهما فقال في الأوليين : « فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ » ، وفي الأُخريين : « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » أي فوّارتان ولكنهما ليستا كالجاريتين لأن النضخ دون الجري . وقال في الأوليين : « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ » فعمّ ولم يخصّ . وفي الأخريين : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » ولم يقل من كل فاكهة ، وقال

فى الأولين : « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو الديباج، وفى الأخريين « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ » والعبقرى الوشى، ولاشك أن الديباج أعلى من الوشى ، والرفرف كِسَر الخباء، ولا شك أن الفرش المعدّة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخباء. وقال فى الأولين فى صفة الحور : « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » ، وفى الأخريين « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان . وقال فى الأولين : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » وفى الأخريين « مُدْهَامَّتَانِ » أى خضراوان كأنهما من شدّة خضرتهما سوداوان ، ووصف الأولين بكثرة الأغصان، والأخريين بالخضرة وحدها، وفى هذا كله تحقيق للمعنى الذى قصدنا بقوله : « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » ولعل ما لم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر ممـا ذكر . فإن قيل : كيف لم يذكر أهـل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الأولين ؟ قيـل : الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه إلا أن الخائفين لهم مراتب، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد رتبة فى الخوف من الله تعالى ، والجنتان الأخريان لمن قصرت حاله فى الخوف من الله تعالى . ومذهب الضحاك أن الجنتين الأوليـين من ذهب وفضّة ، والأخريين من ياقوت وزمرد وهما أفضل من الأولين ، وقوله : « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » أى ومن أمامهما ومن قِبلهما. وإلى هـذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصـول) فقال : ومعنى « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » أى دون هذا إلى العرش ؛ أى أقرب وأدنى الى العرش ، وأخذ يفضلهما على الأولين بمـا سنذكره عنه . وقال مقاتل : الجنتان الأوليـان جنة عدن وجنة النعيم ، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى .

قوله تعـالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أى خضروان من الرىّ ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : مسودتان . والدُّهمة فى اللغـة السواد ؛ يقال : فرس أدهم وبعير أدهم وناقة دهماء أى اشتدت زرقته حتى ذهب البياض الذى فيه ؛ فإن زاد على ذلك حتى اشـتد السواد فهو جَوْن . وادْهَمَّ الفرس ادهمَامًا أى صار أدهم . وادهامّ الشىءُ ادهيامًا أى اسوادّ ؛ قال الله

تعالى : «مُدْهَامَّتَانِ» أى سوداوان من شدة الخضرة من الرِّىّ ؛ والعرب تقول لكل أخضر أسود . وقال لَبِيد يرثى قتلى هَوازِن :

وجاءوا به[1] فى هَوْدَجٍ وَوَرَاءَهُ * كَتَائِبُ خُضْرٌ فى نَسِيجِ السَّنَوَّرِ

السَّنَوَّر لَبُوسٌ من قِدّ كالدِّرْع . وسميت قُرَى العراق سوادًا لكثرة خضرتها . ويقال لليل المظلم : أخضر . ويقال : أباد الله خضراءهم أى سوادهم .

قوله تعالى : فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أى فوارتان بالماء ؛ عن ابن عباس . والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء . وعنه أن المعنى نضّاختان بالخير والبركة ؛ وقاله الحسن ومجاهد . ابن مسعود وابن عباس أيضا وأنس : تَنْضَخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دور أهل الجنة كما يَنضَخ رش المطر . وقال سعيد بن جُبير : بأنواع الفواكه والماء . الترمذى : قالوا بأنواع الفواكه والنعم[2] والجَوارِى المزيّنات والدواب المسرَّجات والثياب الملوّنات . قال الترمذى : وهذا يدل على أن النضخ أكثر من الجرى . وقيل : تنبعان ثم تجريان .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ فيه مسألتان .

الأولى — قال بعض العلماء : ليس الرمان والنخل من الفاكهة ؛ لأن الشىء لا يعطف على نفسه إنما يعطف على غيره . وهذا ظاهر الكلام . وقال الجمهور : هما من الفاكهة وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة ؛ كقوله تعالى :

---

(١) وجاءوا به : يعنى قتادة بن مسلمة الحنفى . (٢) فى ب : « النعيم » .

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ[١] وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » وقوله : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ[٢] » وقد تقدّم . وقيل : إنما كررهما لأن النخل والرمان كانا عندهم فى ذلك الوقت بمنزلة البُرّ عندنا ؛ لأن النخل عامّةُ قوتهم ، والرمان كالثمرات[٣] ، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما ، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التى يعجبون بها ؛ فإنما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن ؛ فأخرجهما فى الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها . وقيل : أُفردا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكُّه ؛ ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله ، وهى المسألة :

الثانيــة — إذا حلف أن لا يأكل فاكهة فأكل رمّانًا أو رُطَبًا لم يحنث . وخالفه صاحباه والناس . قال ٱبن عباس : الرمانة فى الجنة مثـل البعير المُقَتَّب . وذكر ٱبن المبارك قال : أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال : نخـل الجنة جذوعها زمرد أخضر، وكرانيفها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم ، وثمرها أمثال القِلال والدلاء، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبْد، ليس فيه عَجَم[٤] . قال : وحدّثنا المسعوديّ عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة ، قال : نخـل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القـلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى ، وإنّ ماءها ليجرى فى غير أخدود ، والعنقود ٱثنا عشر ذراعا .

قوله تعـالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » يعنى النساء الواحدة خَيْرة على معنى ذوات خير . وقيل : « خَيِّرات » بمعنى خيرات نخفف ؛ كهيِّن وليِّن . ٱبن المبارك : حدثنا

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٠٨ (٢) راجع جـ ٢ ص ٣٦
(٣) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : والرمان كالشراب الخ . (٤) العجم — بالتحريك — : النوى

الأوزاعي عن حسان بن عطية عن سعيد بن عامر قال : لو أن خَيْرة من « خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » اطلعت من السماء لأضاءت لها ، ولقهر ضوء وجهها الشمس والقمر ، ولَنصِيفٌ[1] تُكساه خيرة خير من الدنيا وما فيها . « حِسان » أى حِسَان الخلق ، وإذا قال الله تعالى : « حِسَانٌ » فمن ذا الذي يقدر أن يصف حسنهن ! وقال الزهري وقتادة : « خَيْرَاتٌ » الأخلاق « حِسان » الوجوه . وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أم سلمة . وقال أبو صالح : لأنهن عَذَارى أبكار .

وقرأ قتادة وآبن السَّمَيْقَع وأبو رجاء العُطاردي و بكر بن حبيب السهمي « خَيِّرَاتٌ » بالتشديد على الأصل . وقد قيل : إنّ خَيْرات جمع خَيْر والمعنى ذوات خَير . وقيل : مختارات . قال الترمذي : فالخيرات ما آختارهنّ الله فأبدع خلقهن بآختياره ، فاختيار الله لا يشبه آختيار الآدميين . ثم قال : « حِسَانٌ » فوصفهن بالحسن فإذا وصف خالق الحسن شيئا بالحسن فانظر ما هناك . وفى الأوليين ذكر بأنهن « قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » و « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » فانظركم بين الخيرة وهى مختارة الله ، و بين قاصرات الطرف . وفى الحديث : " إن الحور العين يأخذ بعضهنّ بأيدى بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ونحن المقيمات فلا نَظعن أبداً ونحن الخالدات فلا نموت أبداً ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً ونحن خَيِّرات حسان حبيبات لأزواج كرام " . خرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه . وقالت عائشة رضي الله عنها : إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهنّ المؤمنات من نساء أهل الدنيا : نحن المصلِّيات وما صَلَّيتنّ ، ونحن الصائمات وما صُمتن ، ونحن المتوضئات وما توضأتنّ ، ونحن المتصدِّقات وما تصدّقتنّ . فقالت عائشة رضي الله عنها : فغلبنهنّ والله .

الثانية — وآختلف أيهما أكثر حسنًا وأبهر جمالاً الحور أو الآدميات ؟ فقيل : الحور لما ذكر من وصفهنّ فى القرآن والسنّة ؛ ولقوله عليه الصلاة والسلام فى دعائه على الميت

(١) هو الخمار وقيل المعجر . النهاية .

فى الجنازة : "وأبدله زوجاً خيراً من زوجه". وقيل: الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف ؛ وروى مرفوعاً . وذكر ابن المبارك : وأخبرنا رشدين عن ابن أنعم(١) عن حبان ابن أبي جبلة ، قال : إن نساء الدنيا من دخل منهنّ الجنة فُضِّلن على الحور العين بما عملن فى الدنيا . وقد قيل : إن الحور العين المذكورات فى القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخلَقن فى الآخرة على أحسن صورة ؛ قاله الحسن البصرى . والمشهور أن الحور العين لَسْنَ من نساء أهل الدنيا و إنما هنّ مخلوقات فى الجنة ؛ لأن الله تعالى قال: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ أقلّ ساكني الجنة النّساء" فلا يصيب كل واحد منهم آمرأة، ووعد الحور العين لجماعتهم ، فثبت أنهن من غير نساء الدنيا .

قوله تعالى : حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ « حُورٌ» جمع حوراء، وهى الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وقد تقدم(٢). «مَقْصُورَاتٌ» محبوسات مستورات « فِي الْخِيَامِ» فى الحجال لسن بالطوّافات فى الطرق ؛ قاله ابن عباس . وقال عمر رضى الله عنه : الخيمة دُرة مجوّفة . وقاله ابن عباس . وقال : هى فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وقال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله فى قوله تعالى «حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ» : بلغنا فى الرواية أن سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قَطَرات الرحمة، ثم ضرب على كل واحدة منهنّ خيمة على شاطئ الأنهار سعتها أربعون ميلا وليس لها باب ، حتى إذا دخل(٣) وليّ الله الجنة

---

(١) هو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (بفتح أوّله وسكون النون وضم المهملة) .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٨٠

(٣) فى ب : « حتى إذا أحل ولى الله بالخيمة » .

آنصدعت الخيمة عن باب ليعلم وليّ الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها، فهي مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين . والله أعلم . وقال في الأوليين : « فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » قصرن طرفهنّ على الأزواج ولم يذكر أنهنّ مقصورات ، فدل على أن المقصورات أعلى وأفضل . وقال مجاهد : « مَقْصُورَاتٌ » قد قُصِرن على أزواجهنّ فلا يُرِدن بدلًا منهم . وفي الصحاح : وقصرت الشيء أقصره قصرًا حبسته ؛ ومنه مقصورة الجامع ، وقصرت الشيء على كذا إذا لم تجاوز به إلى غيره ، وآمرأة قَصِيرة وقَصُورة أي مقصورة في البيت لا تترك أن تخرج ؛ قال كُثَيِّر :

وأنتِ التي حَبَّبْتِ كلَّ قَصِيرةٍ * إليّ وما تَدْرِي بذاكَ القَصَائرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحِجَالِ ولم أُرِدْ * قِصَارَ الخُطَا شَرُّ النّسَاءِ البَحَاتِرُ (١)

وأنشده الفراء قَصُورة؛ ذكره آبن السِّكِّيت . وروى أنس قال: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "مررت ليلة أُسري بي في الجنة بنهر حافتاه قِبَاب المرجان فنوديت منه السلام عليك يارسول الله فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء جوارٍ من الحور العِين آستأذنّ ربهنّ في أن يُسلّمن عليك فأذن لهنّ فقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبدًا ونحن الراضيات فلا نسخَط أبدًا أزواج رجال كرام" ثم قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم « حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ » أي محبوسات حبس صيانةٍ وتكرمة . وروى عن أسماء بنت يزيد (٢) الأشهلية أنها أتت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسولَ الله! إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعدُ بيوتكم وحواملُ أولادكم ، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نعم إذا أحسنتن تَبَعُّلَ (٣) أزواجكنّ وطلبتن مرضاتهم " .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ أي لم يمسسهن على ماتقدم قبل . وقراءة العامة « يَطْمِثْهُنَّ » بكسر الميم . وقرأ أبو حيوة الشامي وطلحة بن مُصَرِّف والأعرج والشيرازي عن الكسائي

(١) البحاتر : جمع بحترة بضم الباء القصيرة المجتمعة الخلق .
(٢) في نسخ الأصل بنت عبيد والتصحيح من التهذيب .
(٣) مصاحبتهم في الزوجية والعشرة .

بضم الميم فى الحرفين . وكان الكسائى يكسر إحداهما ويضم الأخرى ويُخَيِّر فى ذلك ، فإذا رفع الأولى كسر الثانية وإذا كسر الأولى رفع الثانيـة . وهى قراءة أبى إسحق السّبيعى . قال أبو إسحق : كنت أصلّى خلف أصحاب علىّ فيرفعون الميم ، وكنت أُصَلِّى خلف أصحاب عبد الله فيكسرونها ، فآستعمل الكسائى الأثرين . وهما لغتان طَمُث وطَمِث مثل يَعرُشُون ويَعكِفُون ؛ فمن ضم فللجمع بين اللغتين ، ومن كسر فلأنها اللغة السائرة . وإنما أعاد قوله : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » ليبين أن صفة الحور المقصورات فى الخيام كصفة الحور القاصرات الطرف . يقول : إذا [قصرن](١) كانت لهنّ الخيام فى تلك الحال .

قوله تعالى : مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ الرفرف المحابس(٢) . وقال آبن عباس : الرفرف فضول الفرش والبسط . وعنه أيضا : الرفرف المحابس يتكئون على فضولها ؛ وقاله قتادة . وقال الحسن والقرظى : هى البسط . وقال آبن عيينـة : هى الزرابى . وقال آبن كيسان : هى المرافق ؛ وقاله الحسن أيضا . وقال أبو عبيـدة : هى حاشية الثوب . وقال الليث : ضرب من الثياب الخضر تبسط . وقيـل : الفُرُش المرتفعة . وقيـل : كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف . قال آبن مقبل :

وإنّا لَــنَزَّالونَ تَغْشَى نِعَـالُنَا * سَوَاقِطَ من أصناف رَيْطٍ ورفرف

وهذه أقوال متقاربة . وفى الصحاح : والرفرف ثياب خضر تتخـذ منها المحابس ، الواحدة رَفْرَفة . وقال سعيد بن جبير وآبن عباس أيضا : الرفرف رياض الجنـة ؛ وآشتقاق الرفرف

(١) فى الأصول كلها : إذا ضجرن الخ والضجر لا يجوز فى الجنة ولذا أثبتنا بدل ضجرن قصرن .

(٢) المحابس : جمع محبس كمقعد ثوب يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه . وفى ل : المجالس وكلا المعنيين صحيح كما فى اللغـة .

من رَفَّ يَرِف إذا ٱرتفع ؛ ومنه رَفْرَفة الطائر لتحريكه جناحيه فى الهواء . وربما سمّوا الظَّلِيم رَفْرافا بذلك ؛ لأنه يرفرف بجناحيه ثم يعدو . ورفرف الطائر أيضًا إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه . والرفرف أيضا كِسَر الخباء وجوانب الدِّرْع وما تدلى منها ؛ الواحدة رَفْرَفة . وفى الخبر فى وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم : فرُفِع الرفرف فرأينا وجهه كأنه وَرَقةٌ [تُخَشْخِش](١) أى رفع طرف الفسطاط . وقيل : أصل الرفرف من رَفَّ النبتُ يَرِفّ إذا صار غضًّا نضيرًا ؛ حكاه الثعلبي . وقال القتبي : يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النَّعمة والغَضَاضة حتى كاد يهتز : رَفّ يرِفّ رفيفًا ؛ حكاه الهروى . وقد قيل : إن الرفرف شيء إذا ٱستوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمِرْجاح يمينًا وشمالًا ورفعًا وخفضًا يتلذذ به مع أنيسته ؛ قاله الترمذيّ الحكيم فى (نوادر الأصول) وقد ذكرناه فى « التذكرة » . قال الترمذى : فالرفرف أعظم خطرًا من الفرش فذكره فى الأولين « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وقال هنا : « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ » فالرفرف هو شيء إذا ٱستوى عليه الولىّ رفرف به ؛ أى طار به هكذا وهكذا حيث ما يريد كالمِرْجاح ؛ وأصله من رفرف بين يدى الله عز وجل ، روى لنا فى حديث المعراج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ سِدْرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مَسْند العرش ، فذكر أنه قال : " طار بى يخفضنى و يرفعنى حتى وقف بى بين يدى ربى " ثم لما حان الٱنصراف تناوله فطار به خفضًا ورفعًا يهوى به حتى أداه إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه وجبريل يبكى و يرفع صوته بالتحميد ؛ فالرفرف خادم من الخدم بين يدى الله تعالى له خواص الأمور فى محل الدنو والقرب ، كما أن البُرَاق دابة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك فى أرضه ، فهذا الرفرف الذى سخره الله لأهل الجنتين الدانيتين هو متكأهما وفرشهما ، يرفرف بالولى على حافات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان . ثم قال : ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ فالعبقرى ثياب منقوشة تبسط ، فإذا قال خالق النقوش إنها حسان فما ظنك بتلك العباقر ! . وقرأ عثمان رضى الله عنه والجحدرى والحسن وغيرهم « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ » بالجمع غير مصروف كذلك

(١) زيادة من كتب اللغة .

« وَعَبَاقِرِيَّ حِسَانٍ » جمع رَفْرَف وعَبْقرىّ . و « رَفْرَف » آسم للجمع و « عَبْقَرِىّ » واحد يدل على الجمع المنسوب إلى عَبْقَر . وقد قيل : إن واحد رَفرف وعَبقرىّ رَفْرَفة وعَبْقريّة ، والرفارف والعبَاقِر جمع الجمع . والعبقرىّ الطَّنَافس الثخان منها ؛ قاله الفراء . وقيل : الزَّرَابِى ؛ عن آبن عباس وغيره . الحسن : هى البُسُط . مجاهد : الدِّيباج . القتبىّ : كل ثوب وشى عند العرب عبقرىّ . قال أبو عبيد : هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشى فينسب إليها كل وَشْى حُبِك . قال ذو الرُّمَّة :

حتى كأنّ رِياضَ القُـفِّ أَلْبَسَهـا * مِن وَشْيِ عَبْقَــرَ تَجْلِيلٌ وتَنْجِــيدُ

ويقال : عَبْقر قرية بناحية اليمن تنسج فيها بُسُط منقوشة . وقال آبن الأنبارى : إن الأصل فيه أن عَبْقر قرية يسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق جليل . وقال الخليل : كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقرىّ . ومنه قول النبىّ صلى الله عليه وسلم فى عمر رضى الله عنه : " فلم أر عبقريًّا من الناس يَفْرِى فَرِيَّه " وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم " فـلم أر عَبْقريًّا يَفْرِى فَرِيَّه " فقال : رئيس قوم وجليلهم . وقال زُهَير :

بِخَيْــلٍ عليهـا جِنَّــةٌ عَبْقَــرِيَّةٌ * جَديرون يوماً أَنْ يَنَـالُوا فيَسْتَعلوا

وقال الجوهرى : العبقرىّ موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنّ .

قال لبيد :

* كُهُولٌ وشُبَّان بِجِنَّةِ عَبْقَرِ (١) *

ثم نسبوا إليه كل شىء يعجبون من حذقه وجودة صنعته وقوّته فقالوا : عَبْقرىّ وهو واحد وجمع . وفى الحديث : " إنه كان يسجد على عبقرىّ " وهو هذه البسط التى فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا : ظُلْم عبقرىّ وهذا عبقرىُّ قومٍ للرجل القوىّ . وفى الحديث : " فلم أر عبقريًّا يَفْرِى فَرِيَّه " ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال : « وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ » وقرأه بعضهم

(١) صدر البيت : * ومن فاد من إخوانهم و بنيهم *

« عَبَاقِرِىٌّ » وهو خطأ لأن المنسوب لا يجمع على نسبته . وقال قُطْرُب : ليس بمنسوب وهو مثل كُرْسِىّ وكَرَاسِىّ وبُخْتِىّ وبَخَاتِىّ . وروى أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ خُضُرٍ وَعَبَاقِرِ حِسَانٍ » ذكره الثعلبى . وضمّ الضاد من « خضر » قليل .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ « تَبَارَكَ » تفاعل من البركة وقد تقدّم.(١) «ذِى الْجَلَالِ» أى العظمة، وقد تقدّم «وَالْإِكْرَامِ»(٢) . وقرأ عامر « ذُو الْجَلَالِ » بالواو وجعله وصفًا للاسم، وذلك تقوية لكون الاسم هو المسمى . الباقون « ذِى الْجَلَالِ» جعلوا « ذِى » صفة لـ « رَبِّكَ » . وكأنه يريد به الاسم الذى افتتح به السورة ؛ فقال : « الرَّحْمَنُ » فافتتح بهذا الاسم ، فوصف خلق الإنسان والجنّ(٣) ، وخلق السموات والأرض وصنعه، وأنه « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ» ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها ، وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان . ثم قال فى آخر السورة : «تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » أى هذا الاسم الذى افتتح به هذه السورة ؛ كأنه يعلمهم أن هذا كله خرج لكم من رحمتى ، فمن رحمتى خلقتكم وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار ؛ فهذا كله لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه ثم قال : « ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » جليل فى ذاته، كريم فى أفعاله . ولم يختلف القراء فى إجراء النعت على الوجه بالرفع فى أوّل السورة ، وهو يدل على أن المراد به وجه الله الذى يلقى المؤمنون عندما ينظرون إليه ، فيستبشرون بحسن الجزاء ، وجميل اللقاء ، وحسن العطاء . والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١

(٢) راجع ص ١٦٥ من هذا الجزء .

(٣) فى ب : « والشياطين » .

سورة الواقعة

مكية، وهي سبع وتسعون آية

مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى : «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» . وقال الكلبي : مكية إلا أربع آيات ؛ منها آيتان « أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » نزلتا في سفره إلى مكة، وقوله تعالى : «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ» نزلتا في سفره إلى المدينة . وقال مسروق : من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين ، ونبأ أهل الجنة ، ونبأ أهل النار ، ونبأ أهل الدنيا ، ونبأ أهل الآخرة ، فليقرأ سورة الواقعة . وذكر أبو عمر ابن عبد البر في « التمهيد » و « التعليق » والثعلبي أيضا : أن عثمان دخل على ابن مسعود يعوده في مرضه الذي مات فيه فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي . قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال : أفلا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضني . قال : أفلا نأمر لك بعطائك ؟ قال : لا حاجة لي فيه ؛ حبسته عني في حياتي ، وتدفعه لي عند مماتي ؟ قال : يكون لبناتك من بعدك . قال : أتخشى على بناتي الفاقة من بعدي ؟ إني أمرتهن أن يقرأن سورة « الواقعة » كل ليلة ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا" .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣)
إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ
هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦)

قوله تعالى : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي قامت القيامة، والمراد النفخة الأخيرة . وسميت واقعة لأنها تقع عن قرب . وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد . وفيه إضمار ، أي اذكروا

إذا وقعت الواقعة. وقال الجرجاني: « إذا » صلة؛ أي وقعت الواقعة؛ كقوله : « ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ »(١) و « أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ »(٢) وهو كما يقال : قد جاء الصوم أي دنا وٱقترب . وعلى الأوّل «إذا» للوقت، والجواب قوله : «فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ». ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ الكاذبة مصدر بمعنى الكذب ، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر ؛ كقوله تعالى : « لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً »(٣) أي لغو، والمعنى لا يسمع(٤) لها كذب ؛ قاله الكسائي. ومنه قول العامة : عائذًا بالله أي معاذ الله ، وقم قائمًا أي قم قياماً . ولبعض نساء العرب ترقّص آبنها :

قُـمْ قائمًـا قُمْ قائمًـا * أصبت عبـدًا نائمًـا

وقيل : الكاذبة صفة والموصوف محذوف ، أي ليس لوقعتها حال كاذبة ؛ أو نفس كاذبة ؛ أي كل من يخبر عن وقعتها صادق . وقال الزجاج : « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » أي لا يردها شيء . ونحوه قول الحسن وقتادة . وقال الثوريّ : ليس لوقعتها أحد يكذّب بها . وقال الكسائيّ(٥) أيضا : ليس لها تكذيب ؛ أي ينبغي ألا يكذّب بها أحد . وقيل : إن قيامها جِدٌّ لا هزل فيه .

قوله تعالى : ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال عِكرمة ومقاتل والسُّدّي : خفضت الصوت فأسمعت من دنا ورفعتْ من نأى ؛ يعني أسمعت القريب والبعيد . وقال السُّدّي : خفضت المتكبّرين ورفعت المستضعفين . وقال قتادة : خفضت أقوامًا في عذاب الله، ورفعت أقوامًا إلى طاعة الله . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : خفضت أعداء الله في النار، ورفعت أولياء الله في الجنة . وقال محمد بن كعب : خفضت أقوامًا كانوا في الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقوامًا كانوا في الدنيا مخفوضين . وقال آبن عطاء : خفضت أقوامًا بالعدل، ورفعت آخرين بالفضل . والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعز والمهانة . ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٥
(٢) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ٢٠ ص ٣٣
(٤) في ب : « ليس لها كذب » .
(٥) في ب : «الحسن» .

توسعًا ومجازًا على عادة العرب فى إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يكن منه الفعل؛ يقولون : ليلٌ نائمٌ ونهار صائم . وفى التنزيل : «بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»(١) والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده؛فرفع أولياءه فى أعلى الدرجات،وخفض أعداءه فى أسفل الدركات . وقرأ الحسن وعيسى الثقفى « خَافِضَةً رَافِعَةً » بالنصب . الباقون بالرفع على إضمار مبتدإ ؛ ومن نصب فعلى الحال . وهو عند الفراء على إضمار فعل ؛ والمعنى : إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ — وقعت : خَافِضَةً رَافِعَةً . والقيامة لا شك فى وقوعها ، وأنها ترفع أقوامًا وتضع آخرين على ما بيّناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أى زُلزلت وحُركت عن مجاهد وغيره؛ يقال: رَجّه يَرُجّه رجًّا أى حركه وزلزله . وناقة رجّاء أى عظيمة السَّنام . وفى الحديث : "مَنْ ركب البحرَ حين يَرْتَجّ فلا ذِمّةَ له" يعنى إذا اضطربت أمواجه . قال الكلبيّ : وذلك أن الله تعالى إذا أوحى إليها اضطربت فَرَقًا من الله تعالى . قال المفسرون : ترتجّ كما يرتجّ الصبيّ فى المهد حتى ينهدم كل ما عليها، وينكسر كل شيء عليها من الجبال وغيرها . وعن ابن عباس الرَّجّة الحركة الشديدة يسمع لها صوت . وموضع « إِذَا » نصب على البدل من « إِذَا وَقَعَتِ » . ويجوز أن ينتصب بـ « خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ » أى تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبسّ الجبال ؛ لأن عند ذلك يَنخفض ما هو مرتفع، ويرتفع ما هو منخفض . وقيل : أى وقعت الواقعة إذا رجّت الأرض ؛ قاله الزجاج والجرجانى . وقيل : أى اذكر « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا » مصدر وهو دليل على تكرير الزلزلة .

قوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أى فتتت؛ عن ابن عباس . مجاهد : كما يُبَسّ الدقيق أى يُلَتّ . والبسيسة السّويق أو الدقيق يُلَتّ بالسّمن أو بالزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زادا . قال الراجز :

لا تَخْبِزَا خُبْزًا وبُسّا بَسّا * ولا تُطِيلَا بِمُنَاخٍ حَبْسَا

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٢

وذكر أبو عبيدة : أنه لصٌّ من غَطَفان أراد أن يخبز فخاف أن يُعجَل عن ذلك فأكله عجينًا . والمعنى أنها خُلِطت فصارت كالدقيق الملتوت بشيء من المـاء . أي تصير الجبال ترابًا فيختلط البعض بالبعض . وقال الحسن : وبُسَّت قلعت من أصلها فذهبت ؛ نظيره : «يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا»[1] . وقال عطية : بُسطت كالرمل والتراب . وقيل : البسُّ السّوق أى سيقت الجبال . قال أبو زيد : البسّ السّوق ؛ وقد بسستُ الإبل أَبُسُّها بالضم بسًّا . وقال أبو عبيد : بسست الإبل وأبسست لغتان إذا زجرتها وقلت لها بِسْ بِسْ . وفى الحديث : "يخرج قوم من المدينة إلى اليمن والشام والعراق يَبُسُّون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون" ومنه الحديث الآخر : "جاءكم أهـل اليمن يَبُسُّون عِيالهم"[2] والعرب تقول : جِئْ به من حَسِّك وبَسِّك . ورواهما أبو زيد بالكسر ؛ فمعنى من حِسّك من حيث أحسسته ، وبِسّك من حيث بلغه مسيرك . وقال مجاهد : سالت سيلا . عكرمة : هُدّت هـدّا . محمد بن كعب : سُيِّرت سـيرًا ؛ ومنه قول الأغلب العجلى[3] :

وقال الحسن : قطعت قطعًا . والمعنى متقارب .

قوله تعـالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ قال علىّ رضى الله عنه : الهباء المنبث الرَّهج[4] الذى يسطع من حـوافر الدواب ثم يذهب ، فجعل الله أعمالهـم كذلك . وقال مجاهد : الهبـاء هو الشعاع الذى يكون فى الكوّة كهيئة الغبار . وروى نحوه عن ابن عباس . وعنه أيضا : هو ما تطاير من النار إذا اضطربت يطير منها شرر فإذا وقع لم يكن شيئاً . وقاله عطية . وقد مضى فى « الفرقان » عند قوله تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا»[5] وقراءة العامة « مُنْبَثًّا » بالثاء المثلثة أى متفرقًا من قوله تعالى : « وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ»[6] أى فرّق ونشر . وقرأ مسروق والنَّخَعىّ وأبو حَيْوة «مُنْبَتًّا» بالتاء المثناة أى منقطعًا من قولهم : بتّه الله أى قطعه ؛ ومنه البتات .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٤٥ (٢) أى يسوقون عيالهم .
(٣) بياض بالأصول فى موضع الشاهد من قول الأغلب العجلى الراجز ولم نعثر عليه .
(٤) الرهج بالفتح وبالإسكان الغبار . (٥) راجع جـ ١٣ ص ٢٢ (٦) راجع جـ ٢ ص ١٩٦

قوله تعالى : وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أى أصنافا ثلاثة كل صنف يشا كل ماهو منه ، كما يشا كل الزوج الزوجة ، ثم بيّن من هم فقال : ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ «وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» و«السَّابِقُونَ» ؛ فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ؛ قاله السُّدّى . والمشأمة الميسرة وكذلك الشامة . يقال : قعد فلان شامة . ويقال : يافلان شائم بأصحابك ؛ أى خذ بهم شامة أى ذات الشمال . والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى ، وللجانب الشمال الأشأم . وكذلك يقال لما جاء عن اليمين اليُمْن ، ولمـا جاء عن الشّمال الشـؤم . وقال ابن عباس والسُّدّى : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذّرية من صُلْبه فقال الله لهم : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى . وقال زيد بن أسلم : أصحاب الميمنة هم الذين أُخِذوا من شقّ آدم الأيمن يومئذ ، وأصحاب المشأمة الذين أُخِذوا من شـق آدم الأيسر . وقال عطاء ومحمد بن كعب : أصحاب الميمنة من أوتى كتابه بيمينه ، وأصحاب المشأمة من أوتى كتابه بشماله . وقال ابن جريج : أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات . وقال الحسن والربيع : أصحاب الميمنة الميـامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم بالأعمـال السيئة القبيحة . وفى صحيح مسلم من حديث الإسراء عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " فلما علَونا السماء الدنيـا فإذا رجل عن يمينه أَسْوِدة وعن يساره أَسْوِدة — قال — فإذا نظر قِبل يمينه ضحك وإذا نظـر قِبل شماله بكى — قال — فقال مرحبا بالنبى الصـالح والابن الصالح — قال — قلت ياجبريل من هذا قال هذا آدم عليه السـلام وهذه الأسوِدة التى عن يمينه وعن شمـاله نَسَم بنيه فأهـل اليمين أهل الجنـة والأسوِدة التى عن شماله أهل النـار " وذكر الحديث . وقال المبرد : وأصحاب الميمنة أصحاب التقدّم ، وأصحاب المشأمة

أصحاب التأخر . والعرب تقول : اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك ؛ أى اجعلني من المتقدمين ولا تجعلنا من المتأخرين . والتكرير في «مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» . و«مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» للتفخيم والتعجيب ؛ كقوله : «الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ» و«الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ» كما يقال : زيد ما زيد ! وفي حديث أم زَرْع رضي الله عنها(١): مالِكٌ وما مالِكٌ ! والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب . وقيل : «أَصْحَابُ» رفع بالابتداء والخبر « مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » كأنه قال : « فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » ما هم ؛ المعنى : أىُّ شيء هم . وقيل : يجوز أن تكون «ما» تأكيدا ، والمعنى فالذين يعطون(٢) كتابهم بأيمانهم هم أصحاب التقدم وعلو المنزلة .

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "السابقون الذين إذا أعطوا الحقّ قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم" ذكره المهدوى . وقال محمد بن كعب القُرَظيّ : إنهم الأنبياء . الحسن وقتادة : السابقون إلى الإيمان من كل أمة . ونحوه عن عكرمة . محمد بن سيرين : هم الذين صلُّوا إلى القبلتين ؛ دليله قوله تعالى : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ(٣) » . وقال مجاهد وغيره : هم السابقون إلى الجهاد ، وأول الناس رواحا إلى الصلاة . وقال عليّ رضي الله عنه : هم السابقون إلى الصلوات الخمس . الضحاك : إلى الجهاد . سعيد بن جُبير : إلى التوبة وأعمال البر ؛ قال الله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ(٤) » ثم أثنى عليهم فقال : « أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ(٥) » . وقيل : إنهم أربعة ؛ منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون ، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية ، وسابقان في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ قاله ابن عباس ؛ حكاه الماوردى . وقال شُمَيْط بن العجلان : الناس ثلاثة ؛ فرجل ابتكر للخير في حداثة سنه

(١) حديث أم زرع رواه مسلم في فضائل الصحابة عن عائشة رضي الله عنها أنه : جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا ، فقالت إحداهن : زوجي مالك وما مالك ! مالك خير من ذلك ... ... الخ . الحديث .

(٢) في ب ، ز ، ح ، س ، ل ، هـ : « يؤتون كتابهم » .

(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٣٥　(٤) راجع جـ ٤ ص ٢٠٣　(٥) راجع جـ ١٢ ص ١٣٣

داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرّب، ورجل ٱبتكر عمره بالذنوب ثم طول الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهـذا من أصحاب اليمين، ورجل ٱبتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بهـا فهذا من أصحاب الشمال. وقيل: هم كل من سبق إلى شيء من أشـياء الصلاح. ثم قيل: «السّـابِقُونَ» رفع بالابتـداء والثانى توكيد له والخـبر ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾. وقال الزجاج: «السَّابِقُونَ» رفع بالابتـداء والثانى خبره؛ والمعنى السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله «أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» من صفتهم. وقيل: إذا خرج رجل من السابقين المقربين من منزله فى الجنة كان له ضوء يعرفه به من دونه.

قوله تعـالى: ﴿ثُـلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيـلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أى جماعة من الأمم المـاضية. ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ أى ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسـلم. قال الحسن: ثُلَّةٌ ممن قد مضى قبل هذه الأمة، وقليل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، اللهم ٱجعلنا منهم بكرمك. وسُمُّوا قليلًا بالإضافة إلى من كان قبلهم؛ لأن الأنبياء المتقدّمين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمـان منهم، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا. وقيل: لمـا نزل هذا شَقَّ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت: «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ» فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة بل ثلثَ أهل الجنة بل نصفَ أهل الجنة وتقاسمونهم فى النصف الثانى" رواه أبو هريرة، ذكره المـاوردى وغيره. ومعنـاه ثابت فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود. وكأنه أراد أنها منسوخة والأشبه أنها محكمة لأنهـا خبر؛ ولأن ذلك فى جمـاعتين مختلفتين. قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا؛ فلذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ وقال فى أصحاب اليمين وهم سوى السابقين: «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ» ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إنى لأرجو

أن تكون أمتى شطر أهل الجنة " ثم تلا قوله تعالى : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » [قال مجاهد : كلٌّ من هذه الأمة . وروى سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " الثُّلَّتان جميعًا من أمتى " يعنى « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » . وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه . قال أبو بكر رضى الله عنه[1]] : كِلَا الثُّلَّتين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من هو فى أوّل أمته ، ومنهم من هو فى آخرها ؛ وهو مثل قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ »[2] . وقيل : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » أى من أوّل هذه الأمة . « وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ » يسارع فى الطاعات حتى يلحق درجة الأوّلين ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " خيركم قَرْنى " ثم سوّى فى أصحاب اليمين بين الأوّلين والآخرين . والثُّلَّة من ثَلَلت الشيء أى قطعته ، فمعنى ثلة كمعنى فرقة ؛ قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ أى السابقون فى الجنة « عَلَى سُرُرٍ » ؛ أى مجالسهم على سرر جمع سرير . « مَوْضُونَةٍ » قال ابن عباس : منسوجة بالذهب . وقال عكرمة : مشبكة بالدُّر والياقوت . وعن ابن عباس أيضا : « مَوْضُونَةٍ » مصفوفة ؛ كما قال فى موضع آخر : « عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ »[2] . وعنه أيضا وعن مجاهد : مَرْمولة[3] بالذهب . وفى التفاسير : « مَوْضُونَةٍ » أى منسوجة بقضبان الذّهب مشبكة بالدّر والياقوت والزّبرجد . والوضْن النسج المضاعف والنّضد ؛ يقال : وَضَن فلانٌ الحجرَ والآجُرّ بعضه فوق بعض فهو موضون ، ودرع موضونة أى محكمة فى النّسج مثل مصفوفة ؛ قال الأعشى :

وَمِن نَسْجِ دَاوُدَ مَوْضُونَة * تُسَاقُ مع الحىِّ عِيرًا فَعِيرَا

وقال أيضا :

وَبَيْضَاءَ كالنِّهْىِ مَوْضُونَة * لها قَوْنَسٌ فوقَ جَيْبِ البَدَنْ

---

(١) مابين المربعين ساقط من ح ، ز ، س ، ل ، ه .
(٢) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء .
(٢) راجع جـ ١٤ آية ٣٢
(٣) مرمولة : منسوجة .

والسرير الموضون : الذى سطحه بمنزلة المنسوج ؛ ومنه الوَضِين : بِطانٌ من سُيور ينسج فيدخل بعضه فى بعض ؛ ومنه قوله :

* إليكَ تَعْدُو قَلِقًا وَضِينُها[1] *

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى على السرر ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أى لا يرى بعضهم قَفَا بعض، بل تدور بهم الأسرة، وهذا فى المؤمن وزوجته وأهله ؛ أى يتكئون متقابلين . قاله مجاهد وغيره . وقال الكلبيّ : طول كل سرير ثلثمائة ذراع ، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها آرتفعت .

قوله تعالى : يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ أى غلمان لا يموتون ؛ قاله مجاهد . الحسن والكلبيّ : لا يَهْرمون ولا يتغيرون ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

وهَل يَنْعَمَن إلّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ * قَلِيـلُ الهُمُومِ ما يَبِيتُ بِأَوجَالِ

وقال سعيد بن جبير : مُخلَّدون مُقرَّطون ؛ يقال للقُرْط الخَلَدة ولجماعة الحُليّ الخِلْدَة . وقيل : مسوّرون ونحوه عن الفراء ؛ قال الشاعر :

ومخـلَّداتٌ بِاللُّجَيـنِ كَأَنَّمـا * أعْجَـازُهُنَّ أَقاوِزُ الكُثْبَانِ[2]

---

(١) الضمير يعود على الناقة ؛ أراد أنها قد هزلت ودقت للسير عليها .

(٢) الأقاوز جمع قوز وهو كثيب من الرمل صغير ؛ شبه به أرداف النساء ؛ فالإضافة للبيان .

وقيل : مقرطون يعنى ممنطقون من المناطق . وقال عكرمة : «مُخَلَّدُونَ» منعّمون . وقيل : على سنّ واحدة أنشأهم الله لأهل الجنـة يطوفون عليهـم كما شاء من غير ولادة . وقال علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه والحسن البصرى : الولدان هاهنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة . وقال سلمان الفارسىّ : أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة . قال الحسن : لم يكن لهم حسنات يجزون بها ، ولا سيئات يعاقبون عليها ، فوضعوا فى هذا الموضع . والمقصود : أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة ، والنعمة إنما تتم بآحتفاف الخدم والولدان بالإنسان . ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ أكواب جمع كوب وقد مضى فى « الزخرف »[1] وهى الآنية التى لا عُرى لها ولا خراطيم ، والأباريق التى لها عُرى وخراطيم واحدها إبريق ؛ سُمّى بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه . ﴿ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ مضى فى «والصافات»[2] القول فيه . والمعين الجارى من ماء أو خمر ؛ غير أن المراد فى هذا الموضع الخمر الجارية من العيون . وقيـل : الظاهرة للعيون فيكون «معين» مفعولا من المعاينة . وقيل : هو فعيل من المَعْن وهو الكثرة . وبيّن أنها ليست كخمر الدنيا التى تستخرج بعصر وتكلّف ومعالجة .

قوله تعـالى : ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَـا ﴾ أى لا تنصدع رءوسهم من شربها ؛ أى إنهـا لذة بلا أذًى بخلاف شراب الدنيا . ﴿ وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ تقدم فى «والصافات» أى لا يسكرون فتذهب عقولهم . وقرأ مجاهد : « لَا يَصَّدَّعُونَ » بمعنى لا يتصدّعون أى لا يتفرقون ؛ كقوله تعـالى : « يَوْمَئِـذٍ يَصَّدَّعُونَ »[3] . وقرأ أهل الكوفة « يَنْزِفُونَ » بكسر الزاى ؛ أى لا ينفد شرابهم ولا تفنى خمرهم ؛ ومنه قول الشاعر[4] :

لَعَمْرِى لَـئِنْ أَنْزَفْتُم أو صَحَوْتُمُ * لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنتمُ آلَ أَبْجَـرَا

(١) راجع جـ ١٦ ص ١١٢
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٧٧
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٤٢
(٤) هو الحطيئة وقد تقدّم البيت فى جـ ١٥ ص ٧٩

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : فى الخمر أربع خصال : السُّكر والصُّداع والقىء والبول، وقد ذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

قوله تعالى : ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أى يتخيرون ما شاءوا لكثرتها . وقيل : وفاكهة متخيرة مرضية، والتخير الاختيار . ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ روى الترمذى عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الكوثر؟ قال : "ذاك نهر أعطانيه الله تعالى — يعنى فى الجنة — أشدّ بياضًا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجُزُر" قال عمر : إن هذه لناعِمةٌ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَكَلَتُها أحسنُ منها"(١) قال : حديث حسن . وخرّجه الثعلبى من حديث أبى الدرداء أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن فى الجنة طيرًا مثل أعناق البُخْت تصطفّ على يد ولىّ الله فيقول أحدها يا ولىّ اللهِ رَعيتُ فى مُرُوج تحت العرش وشربت من عيون التّسنيم فكُلْ منّى فلا يزلن يفتخرن بين يديه حتّى يخطر على قلبه أكل أحدها فتخرّ بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد فإذا شبع تجمع عظام الطائر فطار يرعى فى الجنة حيث شاء" فقال عمر : يانبىّ الله إنها لناعِمة . فقال : "آكلُها أنعمُ منها" . وروى عن أبى سعيد الخدرى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن فى الجنة لطيرا فى الطائر منها سبعون ألف ريشة فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من كل ريشة لون طعام أبيض من الثلج وأبرد وألين من الزّبد وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه صاحبه فيأكل منه ما أراد ثم يذهب فيطير" .

قوله تعالى : ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرئ بالرفع والنصب والجر؛ فمن جره وهو حمزة والكسائى وغيرهما جاز أن يكون معطوفا على « بِأَكْوَابٍ » وهو محمول على المعنى؛ لأن المعنى يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحُور؛ قاله الزجاج . وجاز أن يكون معطوفا على « جَنَّاتِ » أى هم فى « جَنَّاتِ النَّعِيمِ » وفى حور على تقدير حذف المضاف؛ كأنه قال : وفى معاشرة

(١) فى نسخ الأصل : أكلها أنعم منها . وما أثبتناه هو ما فى صحيح الترمذى .

حور . الفراء : الجر على الإتباع فى اللفظ وإن آختلفا فى المعنى؛ لأن الحور لا يطاف بهن ؛ قال الشاعر :

إذا ما الغانياتُ بَرَزْنَ يوماً * وزَجَّجْنَ الحَواجِبَ والعُيونَا

والعين لا تزجج وإنما تكحل . وقال آخر :

ورأيتُ زَوْجَكِ فى الوَغَى * مُتَقَلِّداً سَيفًا ورُمْحَا

وقال قُطْرب : هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى . قال : ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم فى ذلك لذة . ومن نصب وهو الأشهب العقيلى والنخعى وعيسى بن عمر الثقفى وكذلك هو فى مصحف أُبَىّ، فهو على تقدير إضمار فعل ؛ كأنه قال : ويزوجون حُورًا عِيناً . والحمل فى النصب على المعنى أيضا حسن ؛ لأن معنى يطاف عليهم به يُعطَونه . ومن رفع وهم الجمهور — وهو آختيار أبى عبيد وأبى حاتم — فعلى معنى وعندهم حور عين؛ لأنه لا يطاف عليهم بالحور . وقال الكسائى : ومن قال : « وَحُورٌ عِينٌ » بالرفع وعلّل بأنه لا يطاف بهنّ يلزمه ذلك فى فاكهة ولحم ؛ لأن ذلك لا يطاف به وليس يطاف إلا بالخمر وحدها . وقال الأخفش : يجوز أن يكون محمولا على المعنى ؛ لأن المعنى لهم أكواب ولهم حور عين . وجاز أن يكون معطوفا على « ثُلَّةٌ » و « ثُلَّةٌ » آبتداء وخبره « عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ » وكذلك « وَحُورٌ عِينٌ » وآبتدأ بالنكرة لتخصيصها بالصفة . ﴿ كَأَمْثَالِ ﴾ أى مثل أمثال ﴿ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ أى الذى لم تمسه الأيدى ولم يقع عليه الغبار فهو أشدّ ما يكون صفاء وتلألؤًا ؛ أى هنّ فى تشاكل أجسادهن فى الحسن من جميع جوانبهن كما قال الشاعر :

كأنَّما خُلِقَتْ فى قِشْرِ لُؤْلُؤَةٍ * فَكُلُّ أَكْنَافِهـا وَجْـهٌ لِمِرْصَادِ

﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى ثواباً ونصبُه على المفعول له . ويجوز أن يكون على المصدر ؛ لأن معنى « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ » يجازون . وقد مضى الكلام فى الحور العين فى « والطُّور »[1] وغيرها . وقال أنس: قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " خلق الله الحور العين

(١) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . وجـ ١٦ ص ١٥٢

من الزعفران" وقال خالد بن الوليد: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الرجل من أهل الجنة ليمسك التفاحة من تفاح الجنة فتنفلق في يده فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لأخجلت الشمس من حسنها من غير أن ينقص من التفاحة" فقال له رجل: يا أبا سليمان إن هذا لعجبٌ ولا ينقص من التفاحة؟ قال: نعم كالسِّراج الذي يوقد منه سراج آخر وسُرج ولا ينقص، والله على مايشاء قدير. وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: خلق الله الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض، عليها سبعون ألف حُلّة مثل شقائق النعمان[1]، إذا أقبلت يتلألأ وجهها نوراً ساطعاً كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا، وإذا أدبرت يرى كبدها من رقّة ثيابها وجلدها، في رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر، لكل ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهى تنادى: هذا ثواب الأولياء «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ قال ابن عباس: باطلا ولا كذبا. واللغو ما يُلغى من الكلام، والتأثيم مصدر أثّمته أى قلت له أثمت. محمد بن كعب: «وَلَا تَأْثِيمًا» أى لا يؤثِّم بعضُهم بعضاً. مجاهد: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا» شتمًا ولا مأثمًا. ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ «قِيلًا» منصوب بـ «يَسْمَعُونَ» أو استثناء منقطع أى لكن يقولون قيلاً أو يسمعون. و «سَلَامًا سلامًا» منصوبان بالقول؛ أى إلا أنهم يقولون الخير. أو على المصدر أى إلا أن يقول بعضهم لبعض سلامًا. أو يكون وصفًا لـ «قيلا»، والسلام الثانى بدل من الأول، والمعنى إلا قيلا يسلم فيه من اللغو. ويجوز الرفع على تقدير سلام عليكم. قال ابن عباس: أى يحيِّي بعضهم بعضاً. وقيل: تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم عز وجل.

(١) شقائق النعمان: نبات أحمر الزهر. الواحدة شقيقة النعمان.

قوله تعالى : وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ رجع إلى ذكر منازل أصحاب الميمنة وهم السابقون على ما تقدم ، والتكرير لتعظيم شأن النعيم الذى هم فيه . ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ أى فى نبق قد خُضِد شوكه أى قطع ؛ قاله ابن عباس وغيره . وذكر ابن المبارك : حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يقولون : إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابى يومًا؛ فقال : يا رسول الله ! لقد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذيةً ، وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وماهى " قال : السِّدر فإن له شوكًا مؤذيًا ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : " أو ليس يقول « فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ » خَضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها تنبت ثمرًا يفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لونًا من الطعام مافيه لون يشبه الآخر" . وقال أبو العالية والضحاك : نظر المسلمون إلى وَجّ[(١)] (وهو وادٍ بالطائف مخصب) فأعجبهم سِدره، فقالوا : ياليت لنا مثل هذا ؛ فنزلت . قال أمية بن أبى الصَّلْت يصف الجنة :

إنّ الحدائقَ فى الجنانِ ظليلةٌ　＊　فيها الكَواعِبُ سِدْرُها مَخْضودُ

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان : « فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ » وهو الموقر حملاً . وهو قريب مما ذكرنا فى الخبر. سعيد بن جبير : ثمرها أعظم من القِلال . وقد مضى هذا فى سورة

(١) الذى فى اللسان : وج موضع بالبادية . وقيل : بلد بالطائف ؛ وقيل هى الطائف .

« النجم » عند قوله تعالى : « عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى »[1] وأن ثمرها مثل قلال هَجَر من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ ﴾ الطَّلح شجر الموز واحده طلحة . قاله أكثر المفسرين علىّ وابن عباس وغيرهم . وقال الحسن : ليس هو موز ولكنه شجر له ظل بارد رطب . وقال الفراء وأبو عبيدة : شجر عظام له شوك ؛ قال بعض الحداة[2] وهو الجعدى :

بَشَّرَهَـــا دَليلُهـــا وقَالاَ * غداً تَرَيْنَ الطَّلْحَ والأَحْبَالاَ[3]

فالطَّلح كلّ شجر عظيم كثير الشوك . الزجاج : يجوز أن يكون فى الجنة وقد أزيل شوكه . وقال الزجاج أيضا : كشجر أم غيلان [له][4] نوْر طيّب جدا نخو طبوا ووعدوا بما يحبون مثله ، إلا أن فضله على مافى الدنيا كفضل سائر مافى الجنة على مافى الدنيا . وقال السدى : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل . وقرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : « وَطلْعٍ مَنْضُودٍ » بالعين وتلا هذه الآية « وَنَخْـلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ »[5] وهو خلاف المصحف . فى رواية أنه قرئ بين يديه « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » فقال : ماشأن الطلح ؟ إنمـا هـو « وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » ثم قال : « لَهَـا طَلْعٌ نَضِيدٌ » فقيل له : أفـلا نحولها ؟ فقال : لاينبغى أن يهاج القرآن ولا يحوّل . فقد آختار هذه القراءة ولم ير إثباتها فى المصحف لمخالفة مارَسْمه مجمَع عليه . قاله القشيرى . وأسنده أبو بكر الأنبارى قال : حدثنى أبى قال حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الحسن بن سـعد عن قيس بن عُبَاد قال : قرأت عنـد علىّ أو قُرِئت عند علىّ — شكّ مجالد — « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » فقال علىّ رضى الله عنه : ما بال الطلح؟ أما تقرأ « وَطَلْع » ثم قال : « لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » فقال له : ياأمير المؤمنين أنحكّها من المصحف ؟

(١) راجع ص ٩٤ وص ٥ من هذا الجزء .

(٢) كذا فى الأصول « الحداة » بالحاء المهملة والذى فى تفسير الطبرى « الجداة » بالجيم .

(٣) الأحبال جمع حبلة بالضم : ثمر السلم والبال والسمر أو ثمر العضاه عامة .

(٤) زيادة يقتضيها السياق .   (٥) راجع جـ ١٣ ص ١٢٧

فقال : [لا][1] لايهاج القرآن اليوم . قال أبو بكر : ومعنى هذا أنه رجع إلى ما فى المصحف وعلم أنه هو الصواب ، وأبطل الذى كان فرط من قوله . والمنضود المتراكب الذى [قد][1] نُضِدَ أوله وآخره بالحمـل ، ليست له سُوقٌ بارزة بل هو مرصوص ، والنَّضْد هو الرصّ والمنضَّد المرصوص ، قال النابغة :

خَلَّتْ سَبِيلَ أَتِيٍّ كان يَحْبِسُهُ * ورفَّعَتْهُ إلى السَّجْفَيْنِ فالنضَدِ

وقال مسروق : أشجار الجنـة من عروقها إلى أفنانهـا نضيدة ثمر كلّه ، كلّما أكل ثمرة عاد مكانها أحسنُ منها .

قوله تعـالى : ﴿ وَظِلٍّ مَمْـدُودٍ ﴾ أى دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس ؛ كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً » وذلك بالغداة وهى ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس حسب ما تقـدّم بيانه هناك[2] . والجنة كلها ظلّ لا شمس معه . قال الربيع بن أنس : يعنى ظل العرش . وقال عمرو بن ميمون : مسيرة سبعين ألف سنة . وقال أبو عبيدة : تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذى لا ينقطع ممدود ؛ وقال لبيد :

غَلَبَ الْعَـزَاء وكنتُ غيرَ مُغَلَّبِ * دَهرٌ طـويلٌ دائِمٌ مَمْــدودُ

وفى صحيح الترمذىّ وغيره من حديث أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم : " وفى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها واقرءوا إن شئتم « وَظِلٍّ مَمْدُودٍ » . ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ أى جارٍ لا ينقطع وأصل السّكب الصبّ ؛ يقال : سكبه سَكْباً ، والسُّكوب آنصبابه ؛ يقال : سَكَبَ سُكُوباً ، وآنسكب آنسكاباً ؛ أى وماء مصبوب يجرى الليلَ والنهار فى غير أُخدود لا ينقطع عنهم . وكانت العرب أصحاب بادية وبلادٍ حارة ، وكانت الأنهار فى بلادهم عزيزة لا يصلون إلى المـاء إلا بالدّلو والرِّشاء فوعدوا فى الجنة خلاف ذلك ، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة فى الدنيا ، وهى الأشجار وظلالها ، والمياه والأنهار واطّرادها .

---

(١) زيادة من ب . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٧ .

قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أى ليست بالقليلة العزيزة كما كانت فى بلادهم ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ ﴾ أى فى وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف فى الشتاء ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أى لا يحظر عليها كثمار الدنيا . وقيل : « وَلَا مَمْنُوعَةٍ » أى لا يمنع من أرادها بشوك ولا بعد [ولا](١) حائط ، بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها ؛ قال الله تعالى : « وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا »(٢) . وقيل : ليست مقطوعة بالأزمان ، ولا ممنوعة بالأثمان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ روى الترمذى [عن أبى سعيد](١) عن النبى صلى الله وسلم فى قوله تعالى : « وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » قال : " ارتفاعها لكما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة " قال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رِشْدِين بن سعد . وقال بعض أهل العلم فى تفسير هذا الحديث : الفُرُش فى الدرجات، وما بين الدرجات كما بين السماء والأرض . وقيل : إن الفُرُش هنا كناية عن النّساء اللواتى فى الجنة ولم يتقدّم لهنّ ذكر ، ولكن قوله عز وجل : « وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » دالّ؛ لأنها محل النّساء؛ فالمعنى ونساء مرتفعات الأقدار فى حسنهنّ وكمالهنّ ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ أى خلقناهنّ خلقاً وأبدعناهنّ إبداعًا . والعرب تسمى المرأة فِراشًا ولِباسًا وإزاراً؛ وقد قال تعالى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ »(٣) . ثم قيل : على هذا هنّ الحور العين ؛ أى خلقناهنّ من غير ولادة . وقيل : المراد نساء بنى آدم؛ أى خلقناهنّ خلقا جديداً وهو الإعادة ؛ أى أعدناهنّ إلى حال الشباب وكمال الجمال . والمعنى أنشأنا العجوز والصَّبِية إنشاءً واحداً ، وأضمرن ولم يتقدّم ذكرهنّ ؛ لأنهنّ قد دخلن فى أصحاب اليمين ، ولأن الفُرُش كناية عن النساء كما تقدّم . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً » قال : " منهنّ البِكر والثَّيّب " . وقالت أم سلمة رضى الله تعالى عنها : سألت النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا » فقال : " يا أم سلمة هنّ اللواتى قُبِضن فى الدنيا عجائز شُمْطًا عُمْشًا رُمْصاً جعلهنّ الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد فى الاستواء " أسنده النحاس عن أنس قال : حدّثنا أحمد بن عمرو قال : حدّثنا عمرو بن علىّ قال : حدّثنا أبو عاصم عن

(١) زيادة من ب . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٣٧ . (٣) راجع جـ ٢ ص ٣١٦ .

موسى بن عبيدة، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك رفعه « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً » قال : ” هنّ العجائز العُمْش الرُّمْص كُنّ فى الدنيا عُمْشًا رُمْصًا “ . وقال المسيِّب بن شريك : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قوله « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً » [الآية](١) قال : ” هنّ عجائز الدنيا أنشأهنّ الله خلقا جديدا كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا “ فلما سمعت عائشة ذلك قالت : واوجعاه ! فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : ” ليس هناك وجع “ . ﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عَرُوب . قال آبن عباس ومجاهد وغيرهما : العُرُب العواشق لأزواجهنّ . وعن آبن عباس أيضا : إنها العروب الملقة . عكرمة : الغَنِجة . آبن زيد : بلغة أهل المدينة . ومنه قول لبيد :

وفى الحِبَاءِ(٢) عَرُوبٌ غيرُ فاحِشةٍ * رَيَّا الروادِفِ يَعْشَى دُونَهَا البصرُ

وهى الشَّكِلة(٣) بلغة أهل مكة . وعن زيد بن أسلم أيضا : الحسنة الكلام . وعن عكرمة أيضا وقتادة : العُرُب المتحببات إلى أزواجهنّ ، وآشتقاقه من أعرب إذا بيّن ، فالعروب تبيّن محبتها لزوجها بشكل وغُنج وحسن كلام . وقيل : إنها الحسنة التَّبَعُّل(٤) لتكون ألذ آستمتاعا . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عُرُبًا » قال : ” كلامهنّ عربىّ “ . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم « عُرْبًا » بإسكان الراء . وضم الباقون وهما جائزان فى جمع فَعُول . « أَتْرَابًا » على ميلاد واحد فى الآستواء وسنّ واحدة ثلاث وثلاثين سنة . يقال فى النساء أتراب وفى الرجال أقران . وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حد الصِّبَا من النساء وآنحطت عن الكبر . وقيل : « أَتْرَابًا » أمثالاً وأشكالاً ؛ قاله مجاهد . السُّدّى : أتراب فى الأخلاق لا تباغض بينهنّ ولا تحاسد . ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ قيل : الحور العين للسابقين ، والأتراب العرب لأصحاب اليمين .

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ رجع الكلام إلى قوله تعالى : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ » أى هم « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » وقد مضى الكلام فى معناه . وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبى رباح والضحاك :

---

(١) زيادة من ب . (٢) فى الديوان : « وفى الحروج » جمع الحرج ، وهو الهودج .
(٣) الشكلة (بفتح الشين وكسر الكاف) : ذات الدل . (٤) أى مطاوعة لزوجها محبة له .

« ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » يعنى من سابق هـذه الأمة « وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » من هذه الأمة من آخرها ؛ يدل عليه ماروى عن ابن عباس فى هذه الآية « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " هم جميعاً من أمتى " . وقال الواحدىّ : أصحاب الجنة نصفان نصف من الأمم الماضية ونصف من هـذه الأمة . وهـذا يردّه ما رواه ابن ماجه فى سننه والترمذىّ فى جامعه عن بُريدة بن خَصيب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أهل الجنة عشرون ومائة صفّ ثمانون منها من هـذه الأمة وأربعون من سائر الأمم " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . و « ثُلَّةٌ » رفع على الابتداء ، أو على حذف خبر حرف الصفة ، ومجازه : لأصحاب اليمين ثلتان : ثلة من هـؤلاء وثلة من هؤلاء . والأوّلون الأمم الماضية ، والآخرون هذه الأمة على القول الثانى .

قوله تعالى : وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ
وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾
وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾
أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ
إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾
لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾
فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ
يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ ذكر منازل أهل النار وسماهم أصحاب الشمال، لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، ثم عظّم ذكرهم في البلاء والعذاب فقال: ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ﴾ والسموم الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن . والمراد هنا حرّ النار ولفحها . ﴿وَحَمِيمٍ﴾ أي ماء حار قد آنتهى حره، إذا أحرقت النار أكبادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم ، كالذي يفزع من النار إلى الماء ليطفئ به الحر فيجده حميًا حارًا في نهاية الحرارة والغليان . وقد مضى في « القتال » « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ »[1] . ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ أي يفزعون من السّموم إلى الظلّ كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلاً من يحموم؛ أي من دخان جهنم أسود شديد السواد . عن آبن عباس ومجاهد وغيرهما . وكذلك اليحموم في اللغة : الشديد السواد وهو يفعول من الحمّ وهو الشّحم المسودّ بآحتراق النار . وقيل : هو مأخوذ من الحُمَم وهو الفحم . وقال الضحاك : النار سوداء وأهلها سود وكل ما فيها أسود . وعن آبن عباس أيضا : النار سوداء . وقال آبن زيد : اليحموم جبل في جهنم يستغيث إلى ظله أهل النار . ﴿لَا بَارِدٍ﴾ بل حار لأنه من دخان شفير جهنم . ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ عذب؛ عن الضحاك . وقال سعيد بن المسيّب : ولا حسن منظره ، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم . وقيل : « وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ » أي من النار يعذّبون بها ؛ كقوله تعالى : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ »[2] . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي إنما آستحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا في الدنيا متنعمين بالحرام . والمترف المنعّم؛ عن آبن عباس وغيره. وقال السدّيّ : « مُتْرَفِينَ » أي مشركين . ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ أي يقيمون على على الشرك ؛ عن الحسن والضحاك وآبن زيد . وقال قتادة ومجاهد : الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه . الشعبي : هو اليمين الغَمُوس وهي من الكبائر؛ يقال : حَنِث في يمينه أي لم يَبَرّها ورجع فيها . وكانوا يقسمون أن لا بعث ، وأن الأصنام أنداد الله فذلك حِنثهم؛ قال الله تعالى مخبرا عنهم : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ »[3] . وفي الخبر:

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٧ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٣ . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٥ .

كان يتحنث فى حراء ؛ أى يفعل ما يسقط عن نفسه الحنث وهو الذنب . ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ هذا آستبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له ؛ فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ إِنَّ الْأَوَّلِينَ ﴾ من آبائكم ﴿ وَالْآخِرِينَ ﴾ منكم ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ يريد يوم القيامة . ومعنى الكلام القسم ودخول اللام فى قوله تعـالى : « لَمَجْمُوعُونَ » هو دليل القسم فى المعنى؛ أى إنكم لمجموعون قسماً حقاً خلاف قسمكم الباطل ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ ﴾ عن الهدى ﴿ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث ﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ وهو شجر كريه المنظر ، كريه الطعم، وهى التى ذكرت فى سورة «والصافات»(١) . ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ أى من الشجرة ؛ لأن المقصود من الشجر شجرة . ويجوز أن تكون « من » الأولى زائدة ، ويجوز أن يكون المفعول محـذوفاً كأنه قال : « لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ » طعاماً . وقوله : « مِنْ زَقُّومٍ » صفة لشجر ، والصفة إذا قدرت الجار زائداً نصبت على المعنى ، أو جررت على اللفظ ، فإن قدرت المفعول محذوفا لم تكن الصفة إلا فى موضع جر .

قوله تعـالى : ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْـهِ ﴾ أى على الزقوم أو على الأكل أو على الشجر ؛ لأنه يذكر ويؤنث . ﴿ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾وهو المـاء المغلى الذى قد آشتد غليانه وهو صديد أهل النار. أى يورثهم حرما يأكلون من الزقوم مع الجوع الشديد عطشا فيشربون ماء يظنون أنه يزيل العطش فيجدونه حميا مُغْلًى .

قوله تعـالى : ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾قراءة نافع وعاصم وحمزة «شُرْبَ» بضم الشين . الباقون بفتحها لغتان جيدتان ؛ تقول العرب : شربت شُرْبًا وشَرْبًا وشِرْبًا وشُرُبًا بضمتين . قال أبو زيد : سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها ، والفتح هو المصدر الصحيح ؛ لأن كل مصدر من ذوات الثلاثة فأصله فَعْل ، ألا ترى أنك ترده إلى المرة الواحدة ؛ فتقول : فَعْـلة نحو شَرْبة وبالضم الاسم . وقيل : إن المفتوح والاسم مصدران ، فالشَّرْب كالأكل ، والشُّرب كالذُّكر ، والشِّرب بالكسر المشروب كالطِّحْن المطحون . والهِيم الإبل العِطاش التى

(١) راجع جـ ١٥ ص ٨٥ .

لا تَرْوى لداء يصيبها؛ عن ابن عباس وعِكرمة وقَتادة والسُّدِّى وغيرهم؛ وقال عكرمة أيضاً: هي الإبل المِراض. الضحاك: الهيم الإبل يصيبهـا داء تعطش منه عطشاً شـديداً، واحدها أَهْيَم والأنثى هَيْماء . و يقال لذلك الداء الهُيَام ؛ قال قيس بن الملوّح :

يقـال به داء الهُيَـامِ أصـابه * وقد علِمت نفسى مكانَ شِفائهـا

وقوم هِيم أيضا أى عِطاش، وقد هاموا هُيَاماً. ومن العرب من يقول فى الإبل: هائم وهائمة والجمع هيم ؛ قال لَبِيد :

أَجَزْتُ إلى معـارِفِهـا بِشُـعْثٍ [1] * وأَطْلَاحٍ مِن العِيـدِىِّ هِيمِ [2]

وقال الضحاك والأخفش وآبن عيينـة وآبن كيسان : الهيم الأرض السهلة ذات الرمـل . ور وى أيضا عن آبن عباس : فيشربون شرب الرمال التى لا تَرْوى بالمـاء. المهدوى: و يقال لكل مالا يروى من الإبل والرمل أهيم وهيماء. وفى الصحاح : والهُيَام بالضم أشد العطش. والهُيَام كالجنون من العشق . والهُيَام داء يأخذ الإبل فتهيم فى الأرض لا ترعى . يقال : ناقة هَيْماء . والهيماء أيضا المفازة لا ماء بها. والهَيَام بالفتح: الرمل الذى لا يتماسك أن يسيل من اليد لِلِينه والجمع هِيم مثل قَـذَالٍ وقُذُلٍ . والهِيَام بالكسر الإبل العطاش الواحد هيمان، وناقة هيماء مثل عطشان وعطشى .

قوله تعـالى : ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى رزقهم الذى يُعدّ لهم، كالنزل الذى يعـدّ للأضياف تكرمةً لهم ، وفيـه تهكُّم ؛ كما فى قوله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ [3] » وكقول أبى السّعد الضّبىّ :

وكنّا إذا الجَبَّـارُ بالجيش ضَافَنَـا * جعلنا القَنَـا والمرهفاتِ له نُزْلَا

وقرأ يونس بن حبيب وعباس عن أبى عمرو «هَٰذَا نُزْلُهُمْ» بإسكان الزاى ؛ وقد مضى فى آخر « آل عمران [4] » القول فيه . « يَوْمَ الدِّينِ » يوم الجزاء، يعنى فى جهنم .

---

(١) شعث : رجال ساءت حالهم من الجهد والسفر . وأطلاح : إبل مهازيل والواحد طليح . والعيدى : إبل منسوبة إلى فحل ، و يقال منسوبة إلى قوم يقال لهم العيد . (٢) أى خففت وكسرت الهاء لأجل الياء .
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٢٨ (٤) راجع جـ ٤ ص ٣٢١

قوله تعالى : نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أى فهلّا تصدّقون بالبعث؟لأن الإعادة كالابتداء . وقيل : المعنى نحن خلقنا رزقكم فهلّا تصدّقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا ؟

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ أى ما تصبّونه من المنيّ فى أرحام النساء . ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أى تصوّرون منه الإنسان ﴿ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾ المقدّرون المصوّرون . وهذا آحتجاج عليهم وبيان للآية الأولى ؛ أى إذا أقررتم بأنّا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث . وقرأ أبو السّمال ومحمد بن السَّمَيْقَع وأشهب العقيلى : « تَمْنُونَ » بفتح التاء وهما لغتان أمنى ومَنى؛ وأمْذَى ومَذَى، يُمْنِي ويَمْنِي ويُمْذِي ويَمْذِي . الماوردى : ويحتمل أن يختلف معناهما عندى؛ فيكون امنى إذا أُنزل عن جماع، ومَنَى إذا أنزل عن الاحتلام . وفى تسمية المنيّ مَنِيًّا وجهان : أحدهما لإمنائه وهو إراقته . الثانى لتقديره ، ومنه المنَا الذى يوزن به لأنه مقدار لذلك ، كذلك المنيّ مقدار صحيح لتصوير الخلقة .

قوله تعالى : ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ﴾ آحتجاج أيضًا، أى الذى يقدر على الإماتة يقدر على الخلق ، وإذا قدر على الخلق قدر على البعث . وقرأ مجاهد وحُميد وآبن مُحَيْصِن وآبن كَثير « قَدَرْنَا » بتخفيف الدال . الباقون بالتشديد، قال الضحاك : أى سوينا بين أهل السماء وأهل الأرض . وقيل : قضينا . وقيل : كتبنا ، والمعنى متقارب ؛ فلا أحد يبقى غيره عز وجل . ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أى إن أردنا أن نبدل أمثالكم لم يسبقنا أحد ؛ أى لم يغلبنا . «وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» معناه بمغلوبين . وقال الطبرىّ : المعنى نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم، وما نحن بمسبوقين

فى آجالكم ؛ أى لا يتقدّم متأخر ولا يتأخر متقدّم . ﴿ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ من الصور والهيئات . قال الحسن : أى نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم . وقيل : المعنى ننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا ، فيجمّل المؤمنُ ببياض وجهه ، و يُقبّح الكافرُ بسواد وجهه . سعيد بن جُبير[1] : قوله تعالى : « فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » يعنى فى حواصل طير سود تكون ببَرَهُوت كأنها الخطاطيف ، و بَرَهُوت وادٍ فى اليمن . وقال مجاهد : « فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » فى أى خلق شئنا . وقيل : المعنى ننشئكم فى عالم لا تعلمون ، وفى مكان لا تعلمون .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ أى إذ خُلِقتم من نُطْفة ثم من عَلَقة ثم من مُضْغة ولم تكونوا شيئا ؛ عن مجاهد وغيره . قتادة والضحاك : يعنى خلق آدم عليه السلام . ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى فهلّا تذكرون . وفى الخبر : عجبا كلّ العجب للمكذّب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبًا للصدّق بالنشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار . وقراءة العامة «النَّشْأَةَ » بالقصر . وقرأ مجاهد والحسن وآبن كثير وأبو عمرو : «النَّشَاءَةَ» بالمد ؛ وقد مضى فى « العنكبوت »[2] بيانه .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ هذه حجة أخرى ؛ أى أخبرونى عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البَذر ، أنتم تنبتونه وتحصّلونه زرعًا فيكون فيه السُّنْبل والحبّ أم نحن نفعل ذلك ؟ و إنما منكم البذر وشقّ الأرض ، فإذا أقررتم بأن إخراج السُّنْبل من الحبّ ليس إليكم ، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض و إعادتهم ؟ ! وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى ؛ لأن الحرث فعلهم ويجرى على آختيارهم ، والزرع من فعل الله تعالى

(١) فى ب : « سعيد بن المسيّب» . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٧

وينبت على آختياره لا على آختيارهم . وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقولنّ أحدكم زرعتُ وليقلْ حرثتُ فإن الزارع هو الله" قال أبو هريرة: ألم تسمعوا قول الله تعالى : ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ . والمستحب لكل من يُلقى البذر فى الأرض أن يقرأ بعد الآستعاذة «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ» الآية، ثم يقول: بل الله الزارع والمنبت والمبلغ ، اللهــم صلّ على محمد، وآرزقنا ثمـره ، وجنّبنا ضرره ، وآجعلنا لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، و بارك لنا فيه يارب العالمين . و يقال : إن هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات : الدود والجراد وغير ذلك؛ سمعناه من ثقة وجُرِّب فوُجِد كذلك . ومعنى «أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ» أى تجعلونه [زرعا](١). وقد يقال : فلان زرّاع كما يقال حراث؛ أى يفعل ما يئول إلى أن يكون زرعاً يعجب الزرّاع . وقد يطلق لفظ الزرع على بذر الأرض وتكريبها تجوُّزًا .

قلت: فهو نهى إرشاد [وأدب](٢) لا نهى حظر و إيجاب؛ ومنه قوله عليه السلام: "لا يقولنّ أحدكم عبدى وأمتى وليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى" وقد مضى فى «يوسف»(٣) القول فيه . وقد بالغ بعض العلماء فقال : لا يقل حرثت فأصبت، بل يقل : أعاننى الله فحرثت، وأعطانى بفضله ما أصبت . قال الماوردى : وتتضمن هــذه الآية أمرين ؛ أحدهما — الآمتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم . الثانى — البرهان الموجب للآعتبار؛ لأنه لمـا أنبت زرعهم بعـد تلاشى بذره، وآنتقاله إلى آستواء حاله من العَفَن والتتريب حتى صار زرعا أخضر، ثم جعله قوياً مشتداً أضعاف ما كان عليه؛ فهو بإعادة من أمات أخفّ عليه وأقدر ؛ وفى هذا البرهان مقنع لذوى الفِطر السليمة . ثم قال ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ أى متكسرًا يعنى الزرع . والحُطام الهشيم الهالك الذى لا يُنتفع به فى مطعم ولا غذاء ؛ فنبه بذلك أيضـا على أمرين : أحدهمـا — ما أولاهم به من النِّعم فى زرعهم إذ لم يجعله حطاماً ليشكروه . الثانى — ليعتبروا بذلك فى أنفسهم ؛ كما أنه يجعل

(١) زيادة يقتضيها السياق .
(٢) الزيادة : من ب ، ز ، ح ، س ، ل ، هـ .
(٣) راجع جـ ٩ ص ١٩٤

الزرع حطاماً إذا شاء ، وكذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فيتزجروا . ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ أى تعجبون بذهابها وتندمون مما حل بكم ؛ قاله الحسن وقتادة وغيرهما . وفى الصحاح : وتفكّه أى تعجّب ، و يقال : تندّم ، قال الله تعالى : «فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ» أى تندمون . وتفكهت بالشيء تمتعت به . وقال يمان : تندمون على نفقاتكم ؛ دليله : «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا»[(1)] . وقال عِكرمة : تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله التى أوجبت عقوبتكم حتى نالتكم فى زرعكم . ٱبن كَيْسان : تحزنون؛ والمعنى متقارب . وفيه لغتان : تَفَكَّهون وتَفَكَّنُون : قال الفراء : والنون لغة عُكْل . وفى الصحاح : التفكّن التنـدّم على ما فات . وقيل : التفكّه التكلم فيما لا يعنيك ، ومنه قيل للزاح فُكَاهة بالضم ؛ فأما الفَكاهة بالفتح فمصدر فَكِه الرجلُ بالكسر فهو فَكِهٌ إذا كان طَيِّب النفس مَزّاحًا . وقراءة العامة « فَظَلْتُمْ » بفتح الظاء . وقرأ عبد الله «فِظِلْتُمْ» بكسر الظاء و رواها هرون عن حسين عن أبى بكر . فمن فتح فعلى الأصل ، والأصل ظَلَلْتُمْ فحذف اللام الأولى تخفيفا ، ومن كسر نقل كسرة اللام الأولى إلى الظاء ثم حذفها . ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ وقرأ أبو بكر والمفضّل « أَئِنَّا » بهمزتين على الاستفهام ، و رواه عاصم عن زِرّ بن حُبَيش . الباقون بهمزة واحدة على الخبر ؛ أى يقولون « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » أى معذبون ؛ عن ٱبن عباس وقَتَادة قالا : والغرام العذاب ؛ ومنه قول ٱبن المحلِّم :

وثقت بأن الحفظ منّى سجيّـةٌ * وأن فؤادى مُتْبَلٌ بك مغرمُ

وقال مجاهد وعِكرمة : لمولع بنا ؛ ومنه قول النِّمر بن تَوْلَب :

سَـلاَ عن تَذَكُّره تُكْتَمَا[(2)] * وكانَ رَهِيناً بها مُغْرَمَا

يقال : أغرم فلان بفلانة ، أى أولع بها ومنه الغرام وهو الشر اللازم . وقال مجاهد أيضا : لملقون شرًّا . وقال مقاتل بن حيان : مهلكون . النحاس : « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » مأخوذ من الغَرَام وهو الهلاك ؛ كما قال[(3)] :

يومُ النِّسَـارِ ويومُ الجِفَـا * رِ كَانَا عَـذَاباً وكانَا غَرَامَا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٩ (٢) تكتم : اسم من يشبب بها . (٣) قائله بشر بن أبى خازم . النسار موضع وقيل : هو ماء لبنى عامر . والجفار : موضع وقيل : هو ماء لبنى تميم . و يوم النسار و يوم الجفار : يومان من أيام العرب مشهوران .

الضحاك وابن كيسان : هـو من الغُرْم ، والمُغْرَم الذى ذهب ماله بغير عوض ؛ أى غرمنا الحَبّ الذى بذرناه . وقال مُرّة الهَمْدانى : محاسبون . ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أى حرمنا ما طلبنا من الريع . والمحروم الممنوع من الرزق . والمحروم ضد المرزوق وهو المحارِف فى قول قتادة . وعن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ بأرض الأنصار فقال : "ما يمنعكم من الحرث" قالوا : الجدوبة؛ فقال : "لا تفعلوا فإن الله تعالى يقول أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء و إن شئت زرعت بالريح و إن شئت زرعت بالبذر" ثم تلا «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ» .

قلت : وفى هذا الخبر والحديث الذى قبله ما يصحح قول من أدخل الزارع فى أسماء الله سبحانه ، وأباه الجمهور من العلماء ، وقد ذكرنا ذلك فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ لتحيوا به أنفسكم ، وتسكنوا به عطشكم ، لأن الشراب إنما يكون تبعًا للطعوم ، ولهذا جاء الطعام مقدما فى الآية قبلُ ، ألا ترى أنك تسق ضيفك بعد أن تطعمه . الزمخشرى : ولو عكست قعدت تحت قول أبى العلاء :

إذا سُقِيَتْ ضُيوفُ الناسِ مَحْضاً * سَقَوْا أضيافَهم شَبِماً زُلالا (١)

وسُقِى بعضُ العرب فقال : أنا لا أشرب إلا على ثميلة . ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ أى السّحاب ، الواحدة مُزْنة ؛ فقال الشاعر :

فنحنُ كماءِ المُزْنِ ما فى نِصابِنا * كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخِيلُ (٢)

---

(١) المحض : اللبن الخالص : والماء الشبم : البارد . (٢) نصاب كل شىء : أصله . ورجل كهام وكهيم : ثقيل ، لا غناء عنده .

وهذا قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما أن المُزْن السَّحاب . وعن ابن عباس أيضا والثورى : المُزن السّماء والسّحاب . وفى الصّحاح : أبو زيد: المُزْنة السّحابة البيضاء والجمع مُزْن، والمُزْنة المَطَرة ؛ قال :

ألم تَـرَ أن اللهَ أنْزَلَ مُزْنةً * وعُفْـرُ الظّبَاءِ فى الكِنَاسِ تَقَمَّعُ (١)

﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ أى فإذا عرفتم بأنى أنزلته فَـلِمَ لا تشكرونى بإخلاص العبـادة لى ؟ ولِمَ تنكرون قدرتى على الإعادة ؟ . ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ أى ملحًا شديد الملوحة؛ قاله ابن عباس . الحسن : مرًّا قُعاعًا (٢) لا تنتفعون به فى شرب ولا زرع ولا غيرهما . ﴿ فَـلَوْلَا ﴾ أى فهلّا تشكرون الذى صنع ذلك بكم .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أى أخبرونى عن النار التى تظهرونها بالقَدْح من الشجر الرَّطْب ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ يعنى التى تكون منها الزِّناد وهى المَرْخُ والعَفَار ؛ ومنه قولهم : فى كلّ شجرٍ نار، واَسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار؛ أى اَستكثرمنها ، كأنهما أخذا من النار ماهو حَسْبهما . ويقال : لأنهما يُسرِعان الوَرْىَ . يقال : أَوْرَيت النار إذا قـدحتها . ووَرَى الزَّنْدُ يَرِى إذا انقدح منه النار . وفيه لغة أخرى : ووَرِىَ الزَّنْدُ يَرِى بالكسر فيهما . ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ أى المخترعون الخالقون ؛ أى فإذا عرفتم قدرتى فاشكرونى ولا تنكروا قدرتى على البعث .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ يعنى نار الدنيا موعظة للنار الكبرى؛ قاله قتادة . ومجاهد : تبصرة للناس من الظلام . وصح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن ناركم هذه التى يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم " فقالوا يا رسول الله : أن كانت لكافية؛ قال : " فإنها فضِّلت عليها بتسعة وستين جُزْءًا كلّهنّ مثل حرّها ". ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ قال الضحاك : أى منفعة للمسافرين ؛ سمّوا بذلك لنزولهم القَوَى وهو القفر. الفراء : إنما يقال

(١) البيت لأوس بن حجر . وتقمع : تحرك رءوسها لتطرد القمعة وهى ذباب أزرق يدخل فى أنوف الدواب .

(٢) فى ل : « زعاقا » ومعناهما واحد ، وهو الماء الشديد المرارة والملوحة .

للسافرين: مُقْوِين إذا نزلوا القِيّ وهى الأرض القفر التى لاشىء فيها . وكذلك القَوَى والقَوَاء بالمدّ والقصر ، ومنزلٌ قَواء لا أنيس به ؛ يقال : أَقْوت الدارُ وقَوِيت أيضًا أى خلت من سكانها ؛ قال النابغة :

يا دارَ مَيّــةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّــنَدِ * أَقْوَتْ وطال عَليها سَـالفُ الأَمَدِ

وقال عنترة :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقادَمَ عَهْدُهُ * أَقْوَى وأَقْفَـر بَعد أُمّ الهَيْـثَمِ

ويقال : أَقْوَى أى قَوِى وقَوِى أصحابه ، وأَقوى إذا سافر أى نزل القَوَاء والقِيّ . وقال مجاهد : «لِلْمُقْوِينَ» المستمتعين بها من الناس أجمعين فى الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة ، ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله منها . وقال ابن زيد : للجائعين فى إصلاح طعامهم . يقال : أقويت منذ كذا وكذا ، أى ما أكلت شيئا ، وبات فلان القَواء وبات القفرَ إذا بات جائعا على غير طُعْم ؛ قال الشاعر (١) :

وإنّى لأختارُ القَـوَى طَاوِىَ الحَشَى * محافَظَةً من أَنْ يقالَ لَئِـيمُ

وقال الربيع والسدى : «المُقْوِينَ» المنزلين [الذين] (٢) لا زناد معهم ؛ يعنى نارا يوقدون فيختبزون بها ؟ ورواه العوفى عن ابن عباس . وقال قُطْرب : المُقْوِى من الأضداد يكون بمعنى الفقير ويكون بمعنى الغنى ؛ يقال : أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد ، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر ماله . المهدوى : والآية تصلح للجميع ؛ لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغنى والفقير . وحكى الثعلبى أن أكثر المفسرين على القول الأوّل . القشيرى : وخص المسافر بالانتفاع بها لأن انتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم ؛ لأن أهل البـادية لابد لهـم من النار يوقدونها ليلًا لتهرب منهم السّباع ، وفى كثير من حوائجهم .

قوله تعـالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى فنزّه الله عما أضافه إليـه المشركون من الأنداد ، والعجز عن البعث .

---

(١) هو حاتم طىّ . (٢) زيادة من ب .

قوله تعالى : فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ « لا » صلة في قول أكثر المفسرين ، والمعنى فأقسم ؛ بدليل قوله : « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ » . وقال الفراء : هي نفى ، والمعنى ليس الأمر كما تقولون ، ثم آستأنف « أُقْسِمُ » . وقد يقول الرجل : لا والله ما كان كذا فلا يريد به نفى اليمين ، بل يريد به نفى كلام تقدّم . أى ليس الأمر كما ذكرت ، بل هو كذا . وقيل : « لا » بمعنى أَلَا للتنبيه كما قال (١) :

* أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي *

ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه ، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا . وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر « فَلَأُقْسِمُ » بغير ألف بعد اللام على التحقيق وهو فعل حال ويقدر مبتدأ محذوف ، التقدير : فلأنا أقسم بذلك . ولو أريد به الآستقبال للزمت النون ، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذى يراد به الاستقبال وهو شاذ .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ مواقع النجوم مساقطها ومغاربها فى قول قتادة وغيره . عطاء بن أبى رَبَاح : منازلها . الحسن : آنكدارها وآنتثارها يوم القيامة . الضحاك : هى الأنواء التى كان أهل الجاهلية يقولون إذا مُطِروا قالوا مُطِرنا بنَوْء كذا . الماوردى : ويكون قوله تعالى : «فَلَا أُقْسِمُ» مستعملا على حقيقته من نفى القسم . القشيرى : هو قسم ، ولله تعالى أن يقسم بما يريد ، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة .

(١) قائله آمرؤ القيس ؛ وتمامه :

* وهل يَنْعِمن من كان فى العصر الخالى *

قلت : يدل على هذا قراءة الحسن « فَلَأُقْسِمُ » وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته فى غير موضع من كتابه . وقال ابن عباس: المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السَّفَرة الكاتبين ، فنجّمه السفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام عشرين سنة، فهو ينزله على الأحداث من أمتــه ؛ حكاه المـاوردى عن ابن عباس والسّدى . وقال أبو بكر الأنبارى : حدثنا إسمعيل ابن إسحق القاضى حدثنا حجّاج بن المِنهال حدثنا همّام عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل إلى الأرض نجوما ، وفرق بعد ذلك خمس آيات خمس آيات وأقل وأكثر ، فذلك قول الله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِـعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعلَمُـونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن . وقرأ حمزة والكِسائى « بِمَوْقِـعِ » على التوحيد، وهى قراءة عبد الله ابن مسعود والنَّخَعى والأعمش وابن مُحَيصن ورُوَيس عن يعقوب . الباقــون على الجمـع ؛ فمن أفرد فلأنه اسم جنس يؤدى الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلاختلاف أنواعه .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ قيل : إن الهاء تعود على القرآن ؛ أى إن القرآن لقسم عظيم، قاله ابن عباس وغيره . وقيل: ما أقسم الله به عظيم « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » ذكر المقسم عليه؛ أى أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم، ليس بسحر ولا كهانة، وليس بمفترى ، بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله تعالى معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو كريم على المؤمنين، لأنه كلام ربهم ، وشـفاء صدورهم ؛ كريم على أهل السماء ؛ لأنه تنزيل ربهم ووَحْيه . وقيل : « كَرِيمٌ » أى غير مخلوق . وقيل : « كريمٌ » لمـا فيه من كريم الأخلاق ومعانى الأمور . وقيل : لأنه يُكرِّم حافظه ، ويُعظِّم قارئه .

الرابعــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ مصون عند الله تعـالى . وقيل : مكنون محفوظ عن البـاطل . والكتاب هنـا كتاب فى السماء ؛ قاله ابن عبـاس . وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضا : هو اللوح المحفوظ . عِكرمة : التوراة والإنجيل فيهما ذكر

القرآن ومن ينزل عليه . السدى : الزبور . مجاهد وقتادة : هو المصحف الذى فى أيدينا .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ آختلف فى معنى « لَا يَمَسُّهُ » هل هو حقيقة فى المس بالجارحة أو معنى ؟ وكذلك آختلف فى « الْمُطَهَّرُونَ » من هم ؟ فقال أنس وسعيد بن جُبير : لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهّرون من الذنوب وهم الملائكة . وكذا قال أبو العالية وآبن زيد : إنهم الذين طُهّروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بنى آدم ؛ فجبريل النازل به مُطهّر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مُطهّرون . الكلبى : هم السَّفَرة الكرام البَرَرَة . وهذا كله قول واحد، وهو نحو ما آختاره مالك حيث قال : أحسن ما سمعت فى قوله « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أنها بمنزلة الآية التى فى « عبس وتولى » : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِى سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ »(1) يريد أن المطهّرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة فى سورة « عبس » . وقيل : معنى « لَا يَمَسُّهُ » لا ينزل به « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أى الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء . وقيل : لا يمس اللوح المحفوظ الذى هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهرون . وقيل : إن إسرافيل هو الموكّل بذلك ؛ حكاه القشيرى . آبن العربى : وهذا باطل لأن الملائكة لا تناله فى وقت ولا تصل إليه بحال ، ولو كان المراد به ذلك لما كان للآستثناء فيه مجال . وأما من قال : إنه الذى بأيدى الملائكة فى الصحف فهو قول محتمل ؛ وهو آختيار مالك . وقيل : المراد بالكتاب المصحف الذى بأيدينا ؛ وهو الأظهر . وقد روى مالك وغيره أن فى كتاب عمرو بن حزم الذى كتبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخته : (من محمد النبى إلى شُرَحْبيل بن عبد كُلَال والحرث بن عبد كُلَال ونُعَيم بن عبد كُلَال قَيْل ذى رُعَين ومَعَافر وهَمْدان أما بعد) وكان فى كتابه : ألا يمس القرآن إلا طاهر . وقال آبن عمر : قال النبى صلى الله عليه وسلم : " لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر" . وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة : « لَا يَمَسُّهُ

(1) راجع ج ١٩ ص ٢١٣

إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » فقام واغتسل وأسلم . وقد مضى فى أول سورة « طه »(١) . وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره : « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » من الأحداث والأنجاس . الكلبي : من الشرك . الربيع بن أنس : من الذنوب والخطايا . وقيل : معنى « لَا يَمَسُّهُ » لا يقرؤه « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » إلا الموحّدون ؛ قاله محمد بن فضيل وعبدة . قال عِكرمة : كان ٱبن عباس ينهى أن يُمكّن أحد من اليهود والنصارى من قراءة القرآن . وقال الفراء : لا يجد طعمَه ونفعَه وبركته إلا المطهرون ؛ أى المؤمنون بالقرآن . ٱبن العربى : وهو ٱختيار البخارىّ ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا" . وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهّره الله من الشرك والنفاق . وقال أبو بكر الورّاق : لا يوفق للعمل به إلا السّعداء . وقيل : المعنى لا يمسّ ثوابه إلا المؤمنون . ورواه معاذ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ثم قيل : ظاهر الآية خبر عن الشرع ؛ أى لا يمسّه إلا المطهّرون شرعًا ، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع ؛ وهذا ٱختيار القاضى أبى بكر بن العربى . وأبطل أن يكون لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »(٢) . المهدوىّ : يجوز أن يكون أمرا وتكون ضمة السين ضمة إعراب . ويجوز أن يكون نهيا وتكون ضمة السين ضمة بناء والفعل مجزوم .

السادسة — وٱختلف العلماء فى مسّ المصحف على غير وضوء ؛ فالجمهور على المنع من مسّه لحديث عمرو بن حزم . وهو مذهب علىّ وٱبن مسعود وسعد بن أبى وقّاص وسعيد ٱبن زيد وعطاء والزّهرى والنّخعىّ والحكم وحمّاد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى . وٱختلفت الرواية عن أبى حنيفة ؛ فروى عنه أنه يمسّه المحدِث ، وقد روى هذا عن جماعة من السّلف منهم ٱبن عباس والشعبي وغيرهما . وروى عنه أنه يمسّ ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه ، وأما الكتاب فلا يمسّه إلا طاهر . ٱبن العربى : وهذا إن سلّمه مما يقوى الحجة عليه ؛ لأن حريم الممنوع ممنوع . وفيما كتبه النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمرو

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٣ (٢) راجع جـ ٣ ص ٩١

ٱبن حزم أقوى دليل عليه . وقال مالك : لا يحمله غير طاهر بعِلاَقة ولا على وِسادة . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذلك . ولم يمنع من حَمْله بعِلاَقة أو مسّه بحائل . وقد روى عن الحكم وحماد وداود بن علىّ أنه لا بأس بحمله ومسّه للسلم والكافر طاهرا أو محدِثا ، إلا أن داود قال : لا يجوز للشرك حمله . وٱحتجوا فى إباحة ذلك بكتاب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ، وهو موضع ضرورة فلاحجة فيه . وفى مس الصبيان إياه على وجهين : أحدهما المنع ٱعتبارا بالبالغ . والثانى الجواز ؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن ؛ لأن تعلّمه[1] حال الصغر ؛ ولأن الصبيّ و إن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة ؛ لأن النية لا تصح منه ، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدِثاً .

السابعة ــ قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى منزل ؛ كقولهم : ضَرْبُ الأ ميرِ ونَسْجِ اليمنِ . وقيل : « تَنْزِيلٌ » صفة لقوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وقيل : أى هو تنزيل .

قوله تعالى : أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَنتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ أى مكذبون ؛ قاله ٱبن عباس وعطاء وغيرهما . والمُدْهِن الذى ظاهره خلاف باطنه ، كأنه شبه بالدُّهن فى سهولة ظاهره . وقال مقاتل بن سليمان وقتادة : مُدْهِنون كافرون ؛ نظيره : « وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ »[2] . وقال المؤرِّج : المدهن المنافق أو الكافر الذى يُلِين جانبه ليُخْفِى كفره ،

(١) فى ب ، ح ، ز ، س ، هـ : «ولأن حال تعلمه حال الصغر» . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٣٠

والإدهان والمداهنة التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللِّين ، وأن يُسرّ خلاف ما يظهر؛ وقال أبو قيس بن الأَسْلَت :

الحَزمُ والقُوّةُ خيرٌ مِنَ الإِدهانِ والفَهّةِ والهَاعِ (١)

وأدهن وداهن واحد . وقال قوم : داهنت بمعنى واريت وأدهنت بمعنى غَشَشْتَ . وقال الضحاك : « مُدْهِنُونَ » معرضون . مجاهد : ممالئون الكفار على الكفر به . ابن كيسان : المدهن الذى لا يعقل ما حقّ الله عليه ويدفعه بالعلل . وقال بعض اللغويين : مدهنون تاركون للجزم فى قبول القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال ابن عباس : تجعلون شكركم التكذيب . وذكر الهيثم بن عدىّ : أن من لغة أزد شنوءة ما رِزق فلان؟ أى ما شكره . وإنما صلح أن يوضع اسم الرزق مكان شكره ؛ لأن شكر الرزق يقتضى الزيادة فيه فيكون الشكر رزقاً على هذا المعنى . فقيل : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ » أى شكر رزقكم الذى لو وجد منكم لعاد رزقا لكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالرزق أى تضعون الكذب مكان الشكر ، كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً » (٢) أى لم يكونوا يُصلُّون ولكنهم كانوا يصفِّرون ويُصفِّقون مكان الصلاة . ففيه بيان أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغى أن يروه من قبل الوسائط التى جرت العادة بأن تكن أسبابا ، بل ينبغى أن يروه من قِبل الله تعالى ، ثم يقابلونه بشكرٍ إن كان نعمة ، أوصبرٍ إن كان مكروها تعبّدا له وتذلُّلاً . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ « وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » حقيقة . وعن ابن عباس أيضا : أن المراد به الاستسقاء بالأنواء ، وهو قول العرب : مُطِرنا بنَوْء كذا ؛ رواه علىّ بن أبى طالب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : مُطِر الناسُ على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أصبح من الناس شاكر ومنهم كافرٌ قالوا

---

(١) الفهة : العى . والهاع هنا : سوء الحرص مع ضعف . (٢) راجع جـ ٧ ص ٤٠٠

هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صَدَق نَوْءُ كذا وكذا ، قال : فنزلت هذه الآية : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ — حتى بلغ — «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ »". وعنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج فى سفر فعطشوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أرأيتم إن دعوت الله لكم فسُقيتم لعلكم تقولون هذا المطر بِنَوْء كذا " فقالوا : يا رسول الله ما هذا بحين الأنواء . فصلّى ركعتين ودعا ربه فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمُطِروا ، فمرّ النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سُقينا بِنَوْء كذا ، ولم يقل هذا من رزق الله فنزلت : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكركم لله على رزقه إياكم « أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » بالنعمة وتقولون سُقينا بنَوْء كذا ، كقولك : جعلتَ إحسانى إليك إساة منك إلىّ ، وجعلتَ إنعامى لديك أن آتخذتنى عدوًّا . وفى الموطأ عن زيد بن خالد الجُهَنى أنه قال : صلّى بنا رسول الله صلى عليه وسلم صلاة الصبح بالحُدَيْبية على إِثْرِ (١) سماء كانت من الليل ، فلما آنصرف أَقْبَلَ على الناس وقال : " أتدرون ماذا قال ربكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : " أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بالكوكب فأما من قال مُطِرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب وأما من قال مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا فذلك مؤمن بالكوكب كافر بى " . قال الشافعى رحمه الله : لا أحبّ أحدا أن يقول مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا ، وإن كان النَّوْء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع ، ولا يمطر ولا يحبس شيئا من المطر ، والذى أحبّ أن يقول : مُطِرنا وقت كذا كما تقول مُطِرنا شهر كذا ، ومن قال : مُطِرنا بنَوْء كذا ، وهو يريد أن النَّوْء أنزل الماء ، كما عنى بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله فهو كافر ، حلال دمه إن لم يتب . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكيًا عن الله سبحانه : " أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر " فمعناه عندى على وجهين : أما أحدهما فإن المعتقد بأن النَّوْء هو الموجب لنزول الماء ، وهو المنشئ للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كفرًا صريحا (٢) يجب آستتابته عليه وقتله [إن أبى] (٣) لنبذه الإسلام ورده القرآن . والوجه الآخر أن

(١) على إثر سماء : أى بعد مطر . وفى « إثر » لغتان : كسر الهمزة وسكون الثاء وفتحهما .
(٢) فى ب : « صراحا » . (٣) زيادة يقتضيها السياق .

يعتقد أن النّوء يُنزِل الله به الماءَ ، وأنه سبب الماء على ما قدّره الله وسبق فى علمه ؛ وهذا وإن كان وجهًا مباحًا ، فإن فيه أيضا كفرا بنعمة الله عز وجل ، وجهلًا بلطيف حكمته فى أنه ينزل الماء متى شاء ، مرة بنَوْء كذا ، ومرة بنَوْء كذا ، وكثيرا ما ينوء النّوْء فلا ينزل معه شيء من الماء ، وذلك من الله تعالى لا من النّوْء . وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مُطِر : مطِرنا بنَوْء الفتح، ثم يتلو : « مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا »(1) قال أبو عمر: وهذا عندى نحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مُطِرنا بفضل الله ورحمته". ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين آستسق به : ياعمّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم كم بقى من نَوْء الثريا؟ فقال العباس : العلماء يزعمون أنها تعترض فى الأفق سبعًا بعد سقوطها . فما مضت سابعة حتى مطروا؛ فقال عمر : الحمد لله هذا بفضل الله ورحمته . وكان عمر رحمه الله قد علم أن نَوْء الثُّرَيا وقت يُرْجى فيه المطر ويؤمّل فسأله عنه أخَرج أم بقيت منه بقية ؟ . وروى سفيان بن عيينة عن إسمعيل بن أمية أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سمع رجلًا فى بعض أسفاره يقول : مُطرنا ببعض عَثَانين الأسد ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كذبت بل هو سُقْيا الله عز وجل" قال سفيان : عَثَانين الأسد الذراع والجبهة . وقراءة العامة « تُكَذِّبون » من التكذيب . وقرأ المفضّل عن عاصم ويحيى بن وَثّاب « تَكْذِبُونَ » بفتح التاء مخففا . ومعناه ما قدمناه من قول من قال : مِطرنا بنَوْء كذا . وثبت من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثلاث لن يزلن فى أمتى التفاخر فى الأحساب والنّياحة والأنْواء" ولفظ مسلم فى هذا "أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر فى الأحساب والطعن فى الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة" .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ أى فهلا إذا بلغت النفس أو الروح الحُلْقوم . ولم يتقدم لها ذكر ؛ لأن المعنى معروف؛ قال حاتم .

أَمَاوِيّ ما يُغْنِي الثَّراءُ عن الفتى * إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وضاقَ بها الصَّدْرُ

---

(1) راجع جـ ١٤ ص ٣٢١

وفى حديث : " إنّ مَلَك الموت له أعوان يقطعون العروق و يجمعون الروح شيئًا فشيئًا حتى ينتهى بها إلى الحُلْقوم فيتوفاها مَلَك الموت " . ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ أمرى وسلطانى . وقيل : تنظرون إلى الميّت لا تقدرون له على شيء . وقال ابن عباس : يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متى تخرج نفسه . ثم قيل : هو ردٌّ عليهم فى قولهم لإخوانهم « لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا »[1] أى فهل ردّوا رُوح الواحد منهم إذا بلغت الحلقوم . وقيـل : المعنى فهلّا إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور أمسكتم روحه فى جسده ، مع حرصكم على امتداد عمره ، وحبكم لبقائه . وهذا ردّ لقولهم : « نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ »[2] . وقيل : هو خطاب لمن هو فى النزع؛ أى إن لم يك ما بك من الله فهلّا حفظت على نفسك الروح . ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أى بالقدرة والعلم والرؤية . قال عامر بن عبد القيس : ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إلىّ منه . وقيل : أراد ورسلنا الذين يتولّون قبضه « أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ » ﴿ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أى لا ترونهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أى فهلّا إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا لَمَدِينُونَ »[3] أى مجزيون محاسبون . وقد تقدم . وقيل : غير مملوكين ولا مقهورين . قال الفراء وغيره : دِنْتُه ملكته ؛ وأنشد للحطيئة :

لقد دُيِّنْتِ[4] أَمْرَ بَنِيكِ حَتَّى * تَرَكْتِهِـمُ أَدَقَّ مِنَ الطَّحِينِ

يعنى مُلِّكْتِ . ودانه أى أذله واستعبده؛ يقال : دنته فدان . وقد مضى فى « الفاتحة »[5] القول فى هذا عند قوله تعالى : « يَوْمِ الدِّينِ » . ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ ترجعون الروح إلى الجسد . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى ولن ترجعوها فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين ولا محاسبين . و« تَرْجِعُونَهَا » جواب لقوله تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » ولقوله : « فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ »

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٤٦ (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٧٠
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٨٢ (٤) و يروى : سوست ؛ يخاطب أمه .
(٥) راجع جـ ١ ص ١٤٣ .

أجيبا بجواب واحد؛ قاله الفراء . وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد، ومنه قوله تعالى : « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »(١) أجيبا بجواب واحد وهما شرطان . وقيل : حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه . وقيل : فيها تقديم وتأخير، مجازها: فلولا وهلّا إن كنتم غير مَدِينين تَرجعونها؛ تردّون نَفْس هذا الميّت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم .

قوله تعالى : فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ذكر طبقات الخلق عند الموت وعند البعث، وبيّن درجاتهم فقال : « فَأَمَّا إِنْ كَانَ » هذا المتوفَّى « مِنَ الْمُقَرَّبِينَ » وهم السابقون. ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ وقراءة العامة « فَرَوْحٌ » بفتح الراء ومعناه عند ابن عباس وغيره: فراحة من الدنيا . وقال الحسن : الرَّوْح الرحمة . الضحاك : الرَّوْح الاستراحة . القُتَبِيّ : المعنى له فى القبر طيب نسيم . وقال أبو العباس بن عطاء : الرَّوح النظر إلى وجه الله ، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه، « وَجَنَّةُ نَعِيمٍ » هو ألا يُحجب فيها عن الله عز وجل . وقرأ الحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجَحْدَرِيّ ورُوَيس وزيد عن يعقوب « فَرُوحٌ » بضم الراء، ورويت عن ابن عباس . قال الحسن : الرُّوح الرحمة؛ لأنها كالحياة للمرحوم . وقالت عائشة رضى الله عنها : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم « فَرُوحٌ » بضم الراء ومعناه فبقاء له وحياة

(١) راجع جـ ١ ص ٣٢٧

فى الجنة وهذا هو الرحمة . «وَرَيْحَانٌ» قال مجاهد وسعيد بن جبير : أى رزق . قال مقاتل : هو الرزق بلغة حمير؛ يقال : خرجت أطلب ريحان الله أى رزقه ؛ قال النَّمِر بن تَوْلَب :

سَلَامُ الإِلٰهِ ورَيْحَانُه * ورحمتُه وسَمَاءٌ دِرَرْ

وقال قتادة : إنه الجنة . الضحاك : الرحمة . وقيل هو الريحان المعروف الذى يشم . قاله الحسن وقتادة أيضا . الربيع بن خَيْثم : هذا عند الموت والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث . أبو الجوزاء : هذا عند قبض روحه يتلقى بضَبَائر الرَّيْحَان . أبو العالية : لا يفارق أحد رُوحه من المقربين فى الدنيا حتى يؤتى بغصنين من ريحان فيشمهما ثم يقبض روحه فيهما ، وأصل ريحان وآشتقاقه تقدم فى أوّل سورة «الرحمن»[(١)] فتأمله . وقد سرد الثعلبى فى الرَّوْح والرَّيْحان أقوالًا كثيرةً سوى ما ذكرنا من أرادها وجدها هناك .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى « إِنْ كَانَ » هذا المتوفَّى « مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أى لست ترى منهم إلا ما تحبّ من السلامة فلا تهتم لهم ، فإنهم يسلمون من عذاب الله . وقيل : المعنى سلام لك منهم ؛ أى أنت سالم من الاغتمام لهم . والمعنى واحد . وقيل : أى إن أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلّى الله عليك ويسلم . وقيل : المعنى إنهم يسلمون عليك يا محمد . وقيل : معناه سلمت أيها العبد ممـا تكره فإنك من أصحاب اليمين؛ فحذف إنك . وقيل : إنه يُحيَّا بالسلام إكراماً ؛ فعلى هذا فى محل السلام ثلاثة أقاويل : أحدها عنـد قبض روحه فى الدنيا يسلّم عليه مَلَك الموت ؛ قاله الضحاك . وقال آبن مسعود : إذا جاء مَلَك الموت ليقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام . وقد مضى هذا فى سورة «النحل»[(٢)] عند قوله تعالى : «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ» . الثانى عند مساءلته فى القبر يسلّم عليه منكر ونكير . الثالث عند بعثه فى القيامة تسلّم عليه الملائكة قبل وصوله إليها .

---

(١) راجع ص ١٥٧ من هذا الجزء .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٠١

قلت : وقد يحتمل أن تسلّم عليه فى المواطن الثلاثة ويكون ذلك إكرامًا بعد إكرام . والله أعلم . وجواب « إنّ » عند المبرّد محذوف التقدير مهما يكن من شىء « فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » إن كان من أصحاب اليمين «فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » فحذف جواب الشرط لدلالة ما تقدّم عليــه ، كما حذف الجواب فى نحو قولك أنت ظالم إن فعلت ؛ لدلالة ما تقدّم عليه . ومذهب الأخفش أن الفاء جواب « أمّا » و « إنْ » ، ومعنى ذلك أن الفاء جواب «أمّا» وقد سدّت مسدّ جواب «إنْ» على التقدير المتقدّم، والفاء جواب لهما على هذا الحد. ومعنى«أمّا» عند الزجاج : الخروج من شىء إلى شىء ؛ أى دع ما كنا فيه وخذ فى غيره .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالبعث ﴿ الضَّالِّينَ ﴾ عن الهدى وطريق الحق ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أى فلهم رزق من حميم ، كما قال: «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ » وكما قال : « ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ »(1) ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ إدخال فى النار. وقيل: إقامة فى الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها؛ يقال: أصلاه النار وصلاه؛ أى جعله يصلاها والمصدر ههنا أضيف إلى المفعول؛ كما يقال: لفلان إعطاءُ مالٍ أى يُعطَى المـال. وقرئ «وَتَصْلِيَةِ» بكسر التاء أى ونزلٌ من تصلية جحيم . ثم أدغم أبو عمرو التاء فى الجيم وهو بعيد . ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أى هذا الذى قصصناه محض اليقين وخالصه. وجاز إضافة الحقّ إلى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما . قال المبرّد : هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين؛ فهو من باب إضافة الشىء إلى نفسه عند الكوفيين. وعند البصريين حقّ الأمر اليقين أو الخبر اليقين. وقيل : هو توكيد . وقيل : أصل اليقين أن يكون نعتًا للحقّ فأضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز ؛ كقوله : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ »(2) وقال قتادة فى هذه الآية : إن الله ليس بتارك أحدا من الناس حتى يَقِفه على اليقين من هذا القرآن، فأمّا المؤمن فأيقن فى الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين . ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أى نَزِّه الله تعـالى عن السوء . والباء زائدة أى سبّح اسم ربك، والاسمُ المسمّى . وقيل :

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٨٧ (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٥

« فَسَبِّحْ » أى فصلّ بذكر ربك وبأمره . وقيل : فاذكر ٱسم ربك العظيم وسبّحه . وعن عقبة بن عامر قال : لما نزلت « فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ٱجعلوها فى ركوعكم" ولما نزلت « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ٱجعلوها فى سجودكم" خرجه أبو داود . والله أعلم .

ســـورة الحـــديد

مدنيّةٌ فى قول الجميع ، وهى تسع وعشرون آية

عن العِرباضِ بن سارية أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بالمسبِّحات قبل أن يرقد ويقول : "إن فيهنّ آية أفضـل من ألف آية" يعنى بالمسبِّحات « الحديد » و « الحشر » و « الصفّ » و « الجمعة » و « التغابن » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١)
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢)
هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣)

قوله تعالى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى مجّد الله ونزّهه عن السوء. وقال ٱبن عباس : صلّى لله « مَا فِى السَّمٰوَاتِ » ممن خلق من الملائكة « وَٱلْأَرْضِ » من شىء فيه رُوح أولا رُوح فيه . وقيل : هو تسبيح الدلالة . وأنكر الزجاج هـذا وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهورِ آثار الصنعة لكانت مفهومة ؛ فلِم قال: «وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»[(١)] و إنما هو تسبيح مقال . وٱستدلّ بقوله تعالى : « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ »[(٢)] فلو كان هذا تسبيح دلالة فأىّ تخصيص لداود ؟ !

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٠٧

قلت : وما ذكره هو الصحيح ، وقد مضى بيانه والقول فيه فى «سبحان»(١) عند قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

قوله تعالى : (لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى انفرد بذلك . والمُلْكُ عبارة عن المَلْك ونفوذ الأمر فهو سبحانه الملك القادر القاهر . وقيل : أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق . (يُحْيِي وَيُمِيتُ) يميت الأحياء فى الدنيا ويحيي الأموات للبعث . وقيل : يحيي النطف وهى موات ويُميت الأحياء . وموضع « يُحْيِي وَيُمِيتُ » رفع على معنى وهو يحيي ويميت . ويجوز أن يكون نصبا بمعنى «لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » محيا ومميتا على الحال من المجرور فى « لَهُ » والجار عاملا فيها . (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى الله لا يعجزه شيء .

قوله تعالى : (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) اختلف فى معانى هذه الأسماء وقد بيناها فى الكتاب الأسنى . وقد شرحها رسول الله صلى الله عليه وسلم شرحاً يغنى عن قول كل قائل ، فقال فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : "اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر" عنى بالظاهر الغالب ، و بالباطن العالم ؛ والله أعلم . (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) بما كان أو يكون فلا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدّم في « الأعراف »(١) مستوفًى .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يدخل فيها من مطر وغيره ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وغيره ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من رزق ومطر وملَك ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يعني بقدرته وسلطانه وعلمه ﴿ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يبصر أعمالكم ويراها ولا يخفى عليه شيء منها . وقد جمع في هذه الآية بين « اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » وبين « وَهُوَ مَعَكُمْ » والأخذ بالظاهرين تناقض فدل على أنه لا بدّ من التأويل ، والإعراض عن التأويل اعتراف بالتناقض . وقد قال الإمام أبو المعالي : إن محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء لم يكن بأقرب إلى الله عز وجل من يونس بن متى حين كان في بطن الحوت . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هذا التكرير للتأكيد أي هو المعبود على الحقيقة ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي أمور الخلائق في الآخرة . وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حَيْوة وابن مُحَيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائي وخلف « تَرْجِع » بفتح التاء وكسر الجيم . الباقون « تُرْجَعُ » .

قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ تقدّم في « آل عمران »(٢) . ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي لا تخفى عليه الضمائر ، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يعبد من سواه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٥٦ .

قوله تعالى : ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ
فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ
لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم
مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) أى صدّقوا أن الله واحد وأن محمدا رسوله (وَأَنْفِقُوا) تصدّقوا . وقيل أنفقوا فى سبيل الله . وقيل : المراد الزكاة المفروضة . وقيل : المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه (مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) دليل على أن أصل الملك لله سبحانه ، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذى يرضى الله فيثيبه على ذلك بالجنة . فمن أنفق منها فى حقوق الله وهان عليه الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم . وقال الحسن : « مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم . وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النوّاب والوكلاء ، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم . (فَالَّذِينَ آمَنُوا) وعملوا الصالحات (مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا) فى سبيل الله (لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) وهو الجنة .

قوله تعالى : (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) آستفهام يراد به التوبيخ . أى أىّ عذر لكم فى ألّا تؤمنوا وقد أزيحت العلل ؟ ! (وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ) بيّن بهذا أنه لا حكم قبل ورود الشرائع . وقرأ أبو عمرو : (وَقَدْ أُخِذَ مِيثَاقُكُمْ) على غير مسمى الفاعل . والباقون على مسمّى الفاعل ، أى أخذ الله ميثاقكم . قال مجاهد : هو الميثاق الأوّل الذى كان وهم فى ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه . وقيل : أخذ ميثاقكم بأن ركّب فيكم العقول ، وأقام عليكم الدلائل والحجج التى تدعو إلى متابعة الرسول (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أى إذ كنتم . وقيل :

أى إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل . وقيل : أى إن كنتم مؤمنين بحق يوماً من الأيام ؛ فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والأعلام ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فقد صحت براهينه . وقيل : إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم . وكانوا يعترفون بهذا . وقيل : هو خطاب لقوم آمنوا وأخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم ميثاقهم فارتدوا . وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إن كنتم تقرون بشرائط الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ يريد القرآن . وقيل : المعجزات ؛ أى لزمكم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لما معه من المعجزات ، والقرآنُ أكبرها وأعظمها . ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ ﴾ أى بالقرآن . وقيل : بالرسول . وقيل : بالدعوة . ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ وهو الشرك والكفر ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ وهو الإيمان . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَنْ لَا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى أىُّ شىء يمنعكم من الإنفاق فى سبيل الله ، وفيما يقرّبكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم وهى صائرة إلى الله تعالى . فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق . ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى إنهما راجعتان إليه بآنقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح فتح مكة . وقال الشعبيّ والزهريّ : فتح الحُدَيْبية . قال قتادة :

كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك. وفى الكلام حذف؛ أى « لَا يَسْتَوِى مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ » ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل؛ فحذف لدلالة الكلام عليه . وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم ؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام ، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشقّ والأجر على قدر النَّصَب . والله أعلم .

الثالثـــة — روى أشهب عن مالك قال: ينبغى أن يُقدَّم أهل الفضل والعزم؛ وقد قال الله تعالى : « لَا يَسْتَوِى مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ » وقال الكلبى : نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه ؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبى بكر رضى الله عنه وتقديمه ؛ لأنه أوّل من أسلم . وعن ابن مسعود : أوّل من أظهر الإسلام بسيفه النبىُّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ؛ ولأنه أوّل من أنفق على نبىّ الله صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عمر قال : كنت عند النبىّ صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خَلَّها فى صدره بخِلَال فنزل جبريل فقال : يا نبىّ الله ! مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خَلَّها فى صدره بخِلَال ؟ فقال: "قد أنفق علىّ ماله قبل الفتح" قال : فإن الله يقول لك آقرأ على أبى بكر السلام وقل له أراضٍ أنت فى فقرك هـذا أم ساخط ؟ فقال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام و يقول أراضٍ أنت فى فقرك هذا أم ساخط"؟ فقال أبو بكر: أأسخط على ربى؟ إنى عن ربِّى لراضٍ! إنّى عن ربّى لراضٍ! إنى عن ربى لراضٍ! قال : " فإن الله يقول لك قد رضيت عنك كما أنت عنى راضٍ " فبكى أبو بكر فقال جبريل عليه السلام : والذى بعثك يا محمد بالحق ، لقد تَخلَّلت حملةُ العرش بالعُبِىّ منذ تَخلّل صاحبك هذا بالعباءة ؛ ولهذا قدّمته الصحابة على أنفسهم ، وأقرّوا له بالتقدّم والسبق . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : سبق النبىُّ صلى الله عليـه وسلم وصلّى[1] أبو بكر وثَلَّثَ عمر ؛ فلا أوتى برجل فَضَّلنى على أبى بكر إلا جلدته حدّ المفترى ثمانين جلدة وطرح الشهادة . فنال المتقدّمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم ، وكانت بصائرهم أيضا أنفذ .

(١) السابق : الأوّل . والمصلى : الثانى .

الرابعــة — التقدّم والتأخر قد يكون فى أحكام الدنيا، فأما فى أحكام الدِّين فقد قالت عائشة رضى الله عنها : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم . وأعظم المنازل مرتبــة الصلاة . وقد قال صلى الله عليــه وسلم فى مرضــه : " مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس " الحديث . وقال: " يؤم القومَ أقرؤهم لكتاب الله " وقال : " وليؤمّكما أكبركما " من حديث مالك بن الحُوَيْرث وقد تقدم . وفهم منه البخارى وغيره من العلماء أنه أراد كِبر المنزلة، كما قال صلى الله عليــه وسلم : " الولاء لِلكِبَر " ولم يعن كبر السن . وقد قال مالك وغيره : إن للسنّ حقًّا . وراعاه الشافعى وأبو حنيفة وهو أحقّ بالمراعاة ؛ لأنه إذا ٱجتمع العلم والسنّ فى خيِّرين قُدِّم العــلم، وأما أحكام الدنيا فهى مرتبة على أحكام الدِّين، فمن قُدِّم فى الدين قُــدِّم فى الدنيا . وفى الآثار : " ليس مِنا من لم يوقِّر كبيرَنا ويرحمْ صغيرنا ويعرف لعالمنا حقَّه " . ومن الحديث الثابت فى الأفراد : " ما أكرم شاب شيخًا لِسنّه إلا قيَّض الله له عند سنِّه من يكرمه " . وأنشدوا :(1)

يا عائبًا لِلشيوخ مِن أَشَرٍ * دَاخَلَهُ فى الصِّبَا ومِن بَذَخ
ٱذكر إذا شئتَ أن تُعيِّرَهُمْ * جدَّكَ وٱذكر أباك يابن أخ
وٱعلم بأن الشباب منسلِخٌ * عنــك وما وِزْرُه بمنسلِخ
من لا يعزّ الشيوخَ لا بلغتْ * يومًا به سِــنُّه إلى الشَّيَخ

الخامســة — قوله تعالى : «وَكُلًّا وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى» أى المتقدمون المتناهون السابقون، والمتأخرون اللاحقون، وعَدَهم الله جميعا الجنة مع تفاوت الدرجات . وقرأ ٱبن عامر «وَكُلٌّ» بالرفع ، وكذلك هــو بالرفع فى مصاحف أهل الشام . الباقون «وَكُلًّا» بالنصب على ما فى مصاحفهم ؛ فمن نصب فعــلى إيقاع الفعل عليه أى وعد الله كلّا الحسنى . ومن رفع فلأن المفعول إذا تقدم ضعف عمل الفعل، والهاء محذوفة من وَعَدَه .

---

(1) هو لأبن عبد الصمد السرقسطى كما فى «أحكام القرآن» لابن العربى .

قوله تعالى : مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ندب إلى الإنفاق فى سبيل الله . وقد مضى فى « البقرة »(١) القول فيه . والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً : قد أقرض ؛ كما قال(٢) :

وإذا جُوزيتَ قرضاً فاجْزِهِ * إنّما يَجزِى الفتى ليس الجَمَل

وسمّى قرضا ؛ لأن القرض أخرج لاسترداد البدل . أى من ذا الذى ينفق فى سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة . قال الكلبي : « قَرْضًا » أى صدقة « حَسَنًا » أى محتسبا من قلبه بلا مَنّ ولا أذى . ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ ما بين السبع إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف . وقيل : القرض الحسن هو أن يقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ؛ رواه سفيان عن أبى(٣) حيان . وقال زيد بن أسلم : هو النفقة على الأهل . الحسن : التطوع بالعبادات . وقيل : إنه عمل الخير ؛ والعرب تقول : لى عند فلان قرض صِدقٍ وقرض سوء . القشيرى : والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيب النفس ، يبتغى به وجه الله دون الرياء والسُّمعة ، وأن يكون من الحلال . ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الردىء فيخرجه ؛ لقوله تعالى : « وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْه تُنْفِقُونَ »(٤)

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧

(٢) قائله لبيد ؛ ومعنى البيت : إذا أسدى إليك معروف فكافئ عليه .

(٣) كل نسخ الأصل بلفظ أبى حيان والظاهر أن صوابه : ابن حيان .

(٤) راجع جـ ٣ ص ٣٢٥

وأن يتصدق في حال يأمل الحياة ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم سُئل عن أفضل الصدقة فقال : " أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ولا تمهل حتى إذا بلغت التراق قلت لفلان كذا ولفلان كذا " وأن يخفي صدقته ؛ لقوله تعالى : « وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »(١) وألّا يمنّ ؛ لقوله تعالى : « وَلَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى »(١) وأن يستحقر كثير ما يعطى ؛ لأن الدنيا كلها قليلة ، وأن يكون من أحبّ أمواله ؛ لقوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »(٢) وأن يكون كثيراً ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الرقاب أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها ". « فَيُضَاعِفَهُ لَهُ » وقرأ ابن كثير وابن عامر « فَيُضَعِّفُهُ » بإسقاط الألف إلا ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء . وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة « فَيُضَاعِفُهُ » بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصماً نصب الفاء . ورفع الباقون عطفًا على « يُقْرِضُ » . وبالنصب جوابًا على الاستفهام . وقد مضى في « البقرة »(١) القول في هذا مستوفى . ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني الجنة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ العامل في « يَوْمَ » «وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ» ، وفي الكلام حذف أي « وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » في « يَوْمَ تَرَى » فيه ﴿ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ ﴾ أي يمضي على الصراط في قول الحسن ، وهو الضياء الذي يمرون فيه ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي قدّامهم . ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ قال الفراء : الباء بمعنى في ؛ أي في أيمانهم . أو بمعنى عن أي عن أيمانهم . وقال الضحاك : « نُورُهُمْ » هداهم «وَبِأَيْمَانِهِمْ» كتبهم ؛ واختاره الطبري . أي يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفي أيمانهم كتب أعمالهم . فالباء على هذا بمعنى في . ويجوز على هذا أن يوقف على « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » ولا يوقف إذا كانت بمعنى عن . وقرأ سهل ابن سعد الساعدي وأبو حيوة «وبإيمانهم» بكسر الألف ، أراد الإيمان الذي هو ضد الكفر .

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ وص ٣١١

(٢) راجع جـ ٤ ص ١٣٢

وعطف ما ليس بظرف على الظرف ؛ لأن معنى الظرف الحال وهو متعلق بمحذوف . والمعنى يسعى كائنًا « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » وكائنًا « بِإِيمَانِهِمْ » ، وليس قوله : « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » متعلقًا بنفس « يَسْعَى » . وقيل : أراد بالنور القرآن . وعن ابن مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ؛ فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره على إبهام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى . وقال قتادة : ذكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينة وعدنٍ أو ما بين المدينة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه " قال الحسن : ليستضيئوا به على الصراط كما تقدم . وقال مقاتل : ليكون دليلاً لهم إلى الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ التقدير يقال لهم : « بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ » دخول جناتٍ ، ولابد من تقدير حذف المضاف ؛ لأن البشرى حدث ، والجنة عين فلا تكون هي هي . « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أي من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من الدخول المحذوف ؛ التقدير « بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ » دخول جناتٍ « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » مقدرين الخلود فيها ولا تكون الحال من بشراكم ؛ لأن فيه فصلاً بين الصلة والموصول . ويجوز أن يكون مما دل عليه البشرى ، كأنه قال : تبشرون خالدين . ويجوز أن يكون الظرف الذي هو « الْيَوْمَ » خبراً عن « بُشْرَاكُمُ » و « جَنَّاتٌ » بدلاً من البشرى على تقدير حذف المضاف كما تقدم . و « خَالِدِينَ » حال حسب ما تقدم . وأجاز الفراء نصب « جَنَّات » على الحال على أن يكون « الْيَوْمَ » خبراً عن « بُشْرَاكُمُ » وهو بعيد ؛ إذ ليس في « جَنَّات » معنى الفعل . وأجاز أن يكون « بُشْرَاكُمُ » نصبًا على معنى يبشرونهم بشرى وينصب « جنات » بالبشرى وفيه تفرقة بين الصلة والموصول .

قوله تعالى : يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ العامل في « يَوْمَ » « ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . وقيل : هو بدل من اليوم الأول . ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ ﴾ قراءة العامة بوصل الألف مضمومة الظاء من نظر، والنظر الانتظار أي انتظرونا . وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثاب «أَنْظِرُونَا» بقطع الألف وكسر الظاء من الإنظار . أي أمهلونا وأخرونا ؛ أنظرته أخرته ، واستنظرته أي استمهلته . وقال الفراء : تقول العرب : أنظرني انتظرني، وأنشد لعمرو بن كلثوم :

أبا هِنـدٍ فلا تَعجلْ علَيْنَا * وأنظِرْنا نُخبِّرْكَ اليَقِينَا

أي انتظرنا . ﴿ نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ أي نستضيء من نوركم . قال ابن عباس وأبو أمامة : يغشى الناس يوم القيامة ظلمة — قال الماوردي : أظنها بعد فصل القضاء — ثم يعطون نورا يمشون فيه . قال المفسرون : يعطي الله المؤمنين نوراً يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ، ويعطي المنافقين أيضًا نوراً خديعة لهم ؛ دليله قوله تعالى : « وَهُوَ خَادِعُهُمْ »(١). وقيل : إنما يعطون النور ؛ لأن جميعهم أهل دعوة دون الكافر ، ثم يسلب المنافق نوره لنفاقه ؛ قاله ابن عباس . وقال أبو أمامة : يعطى المؤمن النور ويترك الكافر والمنافق بلا نور . وقال الكلبي : بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور ، فبينما هم يمشون

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٢١ .

إذ بعث الله فيهم ريحا وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين، فذلك قوله تعالى : « رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا[1] » يقوله المؤمنون ، خشية أن يُسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للمؤمنين : « ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ » . ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ أي قالت لهم الملائكة « ٱرْجِعُوا » . وقيل : بل هو قول المؤمنين لهم « ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ » إلى الموضع الذي أخذنا منه النور فاطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً فإنكم لا تقتبسون من نورنا . فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور ﴿ ضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ . وقيل : أي هلا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا . « بِسُورٍ » أي سُورٌ ، والباء صلة . قاله الكسائي . والسُّور حاجز بين الجنة والنار . وروى أن ذلك السُّور ببيت المَقْدس عند موضع يعرف بوادي جهنم . ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ يعني ما يلي منه المؤمنين ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ يعني ما يلي المنافقين . قال كعب الأحبار : هو الباب الذي ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة . وقال عبد الله بن عمرو : إنه سُور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد « وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ » يعني جهنم . ونحوه عن ٱبن عباس . وقال زياد بن أبي سوادة : قام عبادة ٱبن الصامت على سُور بيت المقدس الشرقي فبكى، وقال : من ها هنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم . وقال قتادة : هو حائط بين الجنة والنار « بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ » يعني الجنة « وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ » يعني جهنم . وقال مجاهد : إنه حجاب كما في « الأعراف » وقد مضى القول فيه[1] . وقد قيل : إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين ، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين .

قوله تعالى : ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ في الدنيا يعني نصلي مثل ما تصلون، ونغزوا مثل ما تغزون، ونفعل مثل ما تفعلون ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أي يقول المؤمنون « بَلَىٰ » قد كنتم معنا في الظاهر ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي ٱستعملتموها في الفتنة . وقال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق . وقيل : بالمعاصي ؛ قاله أبو سنان . وقيل : بالشهوات واللذات ؛

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١١

رواه أبو نمير الهمْداني. ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ أى «تَرَبَّصْتُمْ» بالنبيّ صلى الله عليه وسلم الموت، وبالمؤمنين الدوائر. وقيل: « تَرَبَّصْتُمْ » بالتوبة « وَٱرْتَبْتُمْ » أى شككتم فى التوحيد والنبوة ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أى الأباطيل. وقيل: طول الأمل. وقيل: هو ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم. وقال قتادة: الأمانى هنا خدع الشيطان. وقيل: الدنيا؛ قاله عبد الله بن عباس[(١)]. وقال أبو سنان: هو قولهم سَيُغْفَرُ لنا. وقال بلال بن سعد: ذكرك حسناتِك ونسيانك سيئاتِك غِرّةٌ. ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ يعنى المـوت. وقيل: نصرة نبيّه صلى الله عليه وسلم. وقال قتادة: إلقاؤهم فى النار. ﴿ وَغَرَّكُمْ ﴾ أى خدعكم ﴿ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أى الشيطان؛ قاله عكرمة. وقيل: الدنيا؛ قاله الضحاك. وقال بعض العلماء: إن للباقى بالمـاضى معتبرًا، وللآخر بالأول مزدجرًا، والسعيد من لا يغتر بالطمع، ولا يركن إلى الخُدَع، ومن ذكر المنيّة نسى الأمنيّـة، ومن أطال الأمل نسى العمل، وغفل عن الأجل. وجاء « الْغَرُورُ » على لفظ المبـالغة للكثرة. وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْقَع وسِمَـاك بن حرب « الْغُرُورُ » بضم الغين يعنى الأباطيل وهو مصدر. وعن ٱبن عباس: أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم خطّ لنـا خطوطًا، وخطّ منها خطًّا ناحية فقال: "أتدرون ما هذا هذا مثل ٱبن آدم ومثل التمنى وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت". وعن ٱبن مسعود قال: خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًّا مربعًا، وخطّ وسطه خطًّا وجعله خارجًا منه، وخـطّ عن يمينه ويساره خطوطًا صغارًا فقال: "هذا ٱبن آدم وهـذا أجله محيط به وهذا أمله قد جاوز أجله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا".

قوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ أيها المنافقون ﴿ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أيأسهم من النجاة. وقراءة العامة « يُؤْخَذُ » بالياء؛ لأن التأنيث غير حقيقى؛ ولأنه قد فصل بينها وبين الفعل. وقرأ ٱبن عامر ويعقوب «تُؤْخَذُ» بالتاء وٱختاره أبو حاتم لتأنيث الفدية. والأوّل

(١) فى ب، ز، س، ل، هـ: « عبد الله بن عياش ».

آختيار أبي عبيد ؛ أي لا يقبل منكم بدل ولا عوض ولا نفس أخرى . ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي مقامكم ومنزلكم ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي أولى بكم، والمولى من يتولى مصالح الإنسان، ثم آستعمل فيمن كان ملازمًا للشيء . وقيل : أي النار تملك أمرهم؛ بمعنى أن الله تبارك وتعالى يُرَكِّب فيها الحياة والعقل فهي تتميز غيظًا على الكفار ، ولهذا خوطبت في قوله تعالى : « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ »(١) . ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي ساءت مرجعًا ومصيرًا.

قوله تعالى : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي يقرب ويحين ، قال الشاعر :

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الجَهْلَا * وأن يُحْدِثَ الشَّيْبُ المبينُ لنا عقلَا

وماضيه أَنَى بالقصر يأنى . ويقال : آن لك — بالمد — أن تفعل كذا يَئِين أَيْنًا أي حان، مثل أَنَى لك وهو مقلوب منه . وأنشد آبن السِّكِّيت :

أَلَمَّا يَئِنْ لِي أَنْ تَجَلَّى عَمَايَتِي * وأُقْصِرُ عن لَيْلَى بَلَى قد أَنَى لِيَا

فجمع بين اللغتين . وقرأ الحسن « أَلَمَّا يَأْنِ » وأصلها « أَلَمْ » زيدت « ما » فهي نفي لقول القائل : قد كان كذا ؛ و « لم » نفي لقوله : كان كذا . وفي صحيح مسلم عن آبن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » إلا أربع سنين . قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة المَوْجِدة ؛ تقول عاتبته معاتبة ﴿ أَنْ تَخْشَعَ ﴾ أي تذل وتلين ﴿ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

(١) راجع ص ١٨ من هذا الجزء .

روى أن المزاح والضحك كثر فى أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لما ترفهوا بالمدينة، فنزلت الآية ؛ ولما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله يستبطئكم بالخشوع" فقالوا عند ذلك : خَشَعنا . وقال ٱبن عباس : إن الله ٱستبطأ قلوب المؤمنين ، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن . وقيل : نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة . وذلك أنهم سألوا سلمان أن يحدثهم بعجائب التوراة فنزلت : «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ»[(1)] إلى قوله : «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» الآية ؛ فأخبرهم أن هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم ، فكفّوا عن سلمان ، ثم سألوه مثل الأول فنزلت : «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ» فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا فى العلانية باللسان . قال السدّى وغيره : «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا» بالظاهر وأسرّوا الكفر «أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ» . وقيل : نزلت فى المؤمنين . قال سعد : قيل يا رسول الله لو قصصت علينا فنزل : «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ» فقالوا بعد زمان : لو حدثتنا فنزل : «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ»[(2)] فقالوا بعد مدة : لو ذكرتنا فأنزل الله تعالى : «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ» ونحوه عن ٱبن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا و بين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين ، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض و يقول : ما أحدثنا؟ قال الحسن : ٱستبطأهم وهم أحبّ خلقه إليه . وقيل : هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام لأنه قال عقيب هذا : «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ» أى ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن ، وألا يكونوا كمتقدمى قوم موسى وعيسى ؛ إذ طال عليهم الأمد بينهم و بين نبيّهم فقست قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا ﴾ أى وألا يكونوا فهو منصوب عطفا على «أَنْ تَخْشَعَ» . وقيل : مجزوم على النهى ؛ مجازه ولا يكونن ؛ ودليل هذا التأويل رواية رُوَيس عن يعقوب «لَا تَكُونُوا» بالتاء ؛ وهى قراءة عيسى وٱبن إسحق . يقول : لا تسلكوا سبيل اليهود والنصارى ؛ أعطوا التوراة والإنجيل فطالت الأزمان بهم . قال ٱبن مسعود : إن بنى إسرائيل

---

(1) راجع جـ ٩ ص ١١٨ .　　(2) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ .

لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، فآخترعوا كتابا من عند أنفسهم آستحلته أنفسهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، ثم قالوا: أعرضوا هذا الكتاب على بنى إسرائيل، فإن تابعوكم فآتركوهم وإلا فآقتلوهم. ثم آصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، وإن أبى قتلناه فلا يختلف علينا بعده أحد، فأرسلوا إليه، فكتب كتاب الله فى ورقة وجعلها فى [قَرْن وعلّقه فى][1] عنقه ثم لبس عليه ثيابه، فأتاهم فعرضوا عليه كتابهم، وقالوا: أتؤمن بهذا؟ فضرب بيده على صدره، وقال: آمنت بهذا يعنى المعلّق على صدره. فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين مِلّة؛ وخير مللهم أصحاب ذى القَرْن. قال عبد الله: ومن يعش منكم فسيرى منكرا، وبحَسْب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وقال مقاتل بن حيّان[2]: يعنى مؤمنى أهل الكتاب طال عليهم الأمد وآستبطئوا بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعنى الذين ابتدعوا الرهبانية أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتدين به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن فى علم الله تعالى. ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بُعِث النبيّ صلى الله عليه وسلم فآمنوا به، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فسّقهم اللهُ. وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكة مجدِبِين، فلما هاجروا أصابوا الرِّيف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا. وذكر آبن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس، قال: بلغنى أن عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب وآنظروا فيها — أو قال فى ذنوبكم — كأنكم عبيد؛ فإنما الناس رجلان معافًى ومبتلًى، فآرحموا أهل البلاء، وآحمدوا الله على العافية. وهذه الآية «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ» كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وآبن المبارك رحمهما الله

(١) الزيادة من تفسير الطبرى.
(٢) فى بعض التفاسير: مقاتل بن سليمان وهو المفسر.

تعـالى . ذكر أبو المطرّف عبد الرحمن بن مروان القلانسي قال : حدثنا أبو محمـد الحسن ابن رشيق، قال حدّثنا على بن يعقوب الزيات، قال حدثنا إبراهيم بن هشام، قال حدثنا زكريا آبن أبى أبان ، قال حدثنـا الليث بن الحرث قال حدّثنـا الحسن بن داهر ، قال سـئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال : كنت يوما مع إخوانى فى بستان لنـا ، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعا بضرب العود والطُّنبور ، فقمت فى بعض الليـل فضربت بصوت يقال له راشين السَّحَر[(١)] ، وأراد سنان يغنّى ، وطائر يصيح فوق رأسى على شجرة ، والعود بيـدى لا يجيبنى إلى ما أريد ، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان — يعنى العود الذى بيده — ويقول : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » قلت : بلى والله ! وكسرت العود ، وصرفت من كان عندى، فكان هذا أوّل زهدى وتشميرى . وبلغنا عن الشعر الذى أراد آبن المبارك أن يضرب به العود :

أَلَمْ يـأْنِ لى منك أن تَرْحَمَا * وتَعْصِ العَـواذِلَ واللُّـوَّما
وتَرْثِى لصَبٍّ بكم مُغْرَمٍ * أقام عـلى هجـرِكم مأْتَمَـا
يَبِيتُ إذا جَنَّـهُ لَيْـلُهُ * يُرَاعِى الكَواكِبَ والأَنْجُمَا
وماذا عـلى الظَّبى لَو أَنَّـهُ * أَحَلَّ مِن الوَصْلِ ما حَرَّمَا

وأما الفضيل بن عياض فكان سبب توبته أنه عشق جارية فواعدته ليـلًا ، فبينما هو يرتقى الجدران إليها إذ سمع قارئا يقرأ : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ » فرجع القهقرى وهو يقول : بلى والله قد آن ! فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة، وبعضهم يقول لبعض : إن فضيلًا يقطع الطريق . فقال الفضيل : أوّاه ! أرانى بالليـل أسـعى فى معاصى الله، قوم من المسلمين يخافـوننى ! اللهم إنى قـد تبت إليك ، وجعلت توبتى إليك جوار بيتك الحرام .

(١) هكذا فى الأصول ولم نقف عليها بعد البحث .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أى « يُحْيِي الأَرْضَ » الجدبة « بَعْدَ مَوْتِهَا » بالمطر . وقال صالح المرى : المعنى يلين القلوب بعد قساوتها . وقال جعفر ابن محمد : يحييها بالعدل بعد الجور . وقيل : المعنى فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة . وقيل : كذلك يحيي الله الموتى من الأمم، ويميّز بين الخاشع قلبه وبين القاسى قلبه . ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله، وأنه لمحيي الموتى .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المُصَّدِّقِينَ وَالمُصَّدِّقَاتِ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق ، أى المصدّقين بما أنزل الله تعالى . الباقون بالتشديد أى المتصدقين والمتصدقات فأدغمت التاء فى الصاد ، وكذلك فى مصحف أُبَيّ . وهو حثّ على الصدقات ، ولهذا قال : ﴿ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالصدقة والنفقة فى سبيل الله . قال الحسن : كل ما فى القرآن من القرض الحسن فهو التطوع . وقيل : هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسبًا صادقًا . وإنما عطف بالفعل على الاسم ، لأن ذلك الاسم فى تقدير الفعل ، أى إن الذين صدّقوا وأقرضوا ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أمثالها . وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يسم فاعله . وقرأ الأعمش « يُضَاعِفُه » بكسر العين وزيادة هاء . وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب « يُضَعَّفُ » بفتح العين وتشديدها . ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعنى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ اختلف فى « الشُّهَدَاءُ » هل هو مقطوع مما قبل أو متصل به . فقال مجاهد وزيد آبن أسلم : إن الشهداء والصدّيقين هم المؤمنون وأنه متصل ؛ وروى معناه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا يوقف على هذا على قوله : « الصِّدِّيقُونَ » وهذا قول آبن مسعود فى تأويل الآية . قال القشيرى قال الله تعالى : « فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ »[1] فالصدّيقون هم الذين يتلون الأنبياء ، والشهداء هم الذين يتلون الصدّيقين ، والصالحون يتلون الشهداء ، فيجوز أن تكون هذه الآية فى جملة من صدّق بالرسل ؛ أعنى « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ » . ويكون المعنى بالشهداء من شهد لله بالوحدانية ، فيكون صدّيق فوق صدّيق فى الدرجات ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنات العلا ليراهم من دونهم كما يرى أحدكم الكوكب الذى فى أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما[2] " وروى عن آبن عباس ومسروق أن الشهداء غير الصدّيقين . فالشهداء على هذا منفصل مما قبله والوقف على قوله : « الصِّدِّيقُونَ » حسن . والمعنى « وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ » أى لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم . وفيهم قولان أحدهما — أنهم الرسل يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب ؛ قاله الكلبي ؛ ودليله قوله تعالى : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا »[1] . الثانى — أنهم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة ، وفيما يشهدون به قولان : أحدهما — أنهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية . وهذا معنى قول مجاهد . الثانى — يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أممهم ؛ قاله الكلبي . وقال مقاتل قولا ثالثا : إنهم القتلى فى سبيل الله تعالى . ونحوه عن آبن عباس أيضا قال : أراد شهداء المؤمنين . والواو واو الابتداء . والصدّيقون على هذا القول مقطوع من الشهداء .

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧١ . وص ١٩٧ .

(٢) " أنعما " أى زادا وفضلا . وقيل معناه : صارا إلى النعيم ودخلا فيه .

وقد اختلف فى تعيينهم؛ فقال الضحاك : هم ثمانية نفر؛ أبو بكر وعليّ وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة . وتابعهم عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ؛ ألحقه الله بهم لما صدق نبيّه صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل بن حيان : الصدّيقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفة عين ، مثل مؤمن آل فرعون ، وصاحب آل ياسين ، وأبى بكر الصديق ، وأصحاب الأخدود .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى بالرسل والمعجزات ﴿ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ فلا أجر لهم ولا نور .

قوله تعالى : ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ (٣٠) سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٣١)

قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ وجه الاتصال أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفا على نفسه من القتل، وخوفا من لزوم الموت ؛ فبين أن الحياة الدنيا منقضية فلا ينبغى أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقى . و « ما » صلة تقديره : اعلموا أن الحياة الدنيا لعب باطل ولهو فرح ثم ينقضى . وقال قتادة : لعب ولهو : أكل وشرب . وقيل : إنه على المعهود من اسمه؛ قال مجاهد : كل لعب لهو . وقد مضى هذا المعنى

فى « الأنعام »[1] وقيل : اللعب ما رَغَّب فى الدنيا، واللهو ما ألهى عن الآخرة؛ أى شغل عنها . وقيل : اللعب الأقتناء، واللهو النساء . ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ الزينة ما يتزين به ؛ فالكافر يتزين بالدنيا ولا يعمل للآخرة، وكذلك من تزين فى غير طاعة الله . ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ أى يفخر بعضكم على بعض بها . وقيل : بالخلقة والقوة . وقيل . بالأنساب على عادة العرب فى المفاخرة بالآباء . وفى صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد " وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " أربع فى أمتى من أمر الجاهلية الفخر فى الأحساب " الحديث . وقد تقدم جميع هذا . ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال ، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة . قال بعض المتأخرين : « لَعِبٌ » كلعب الصبيان « وَلَهْوٌ » كلهو الفتيان « وَزِينَةٌ » كزينة النسوان « وَتَفَاخُرٌ » كتفاخر الأقران « وَتَكَاثُرٌ » كتكاثر الدِّهقان[2] . وقيل : المعنى أن الدنيا كهذه الأشياء فى الزوال والفناء . وعن علىّ رضى الله عنه قال لعمّار : لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء : مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح ؛ فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة ، وأكثر شرابها الماء ويستوى فيه جميع الحيوان ، وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة ، وأفضل المشموم المسك وهو دم فأرة ، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال ، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال فى مبال ؛ والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد به أقبحها . ثم ضرب الله تعالى لها مثلا بالزرع فى غيث فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ أى مطر ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ الكفّار هنا : الزرّاع لأنهم يغطّون البذر[3] . والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار ، ثم لا يلبث أن يصير هشيما كأن لم يكن ، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن . وقد مضى معنى هذا المثل فى « يونس »[4] و « الكهف »[5] . وقيل :

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٤ (٢) الدهقان — بكسر الدال وضمها — : التاجر ؛ فارسى معرب .
(٣) مأخوذ من الكفر — بفتح الكاف — وهو التغطية . (٤) راجع جـ ٨ ص ٣٢٧
(٥) راجع جـ ١٠ ص ٤١٢

الكفّار هنا الكافرون بالله عز وجل ؛ لأنهم أشـد إعجابًا بزينة الدنيـا من المؤمنين . وهذا قول حسن؛ فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها . وفى الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم، وتتقلل عندهم وتدق إذا ذكروا الآخرة. وموضع الكاف رفع على الصفة . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أى يجف بعد خضرته ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ أى متغيرًا عما كان عليه من النضرة . ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أى فُتاتًا وتِبْنًا فيذهب بعد حسنه، كذلك دنيا الكافر . ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أى للكافرين . والوقف عليـه حسن ، ويبتـدئ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أى للمؤمنين . وقال الفـراء : « وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ » تقـديره إما عذاب شديد وإما مغفرة ، فلا يوقف على « شَدِيدٌ » . ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ هذا تأكيد ما سبق ؛ أى تغـر الكفار ، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة . وقيـل : العمل للحيـاة الدنيا متاع الغرور تزهيدا فى العمل للدنيا، وترغيبا فى العمل للآخرة .

قوله تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى سارعوا بالأعمال الصالحة التى توجب المغفرة لكم من ربكم . وقيل : سارعوا بالتوبة؛ لأنها تؤدى إلى المغفرة؛ قاله الكلبي . وقيل التكبيرة الأولى مع الإمام؛ قاله مكحول . وقيل : الصف الأول . ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ لو وصل بعضها ببعض . قال الحسن : يعنى جميـع السموات والأرضين مبسوطتان كل واحدة إلى صاحبتها . وقيل : يريد لرجل واحد أى لكل واحد جنـة بهذه السعة . وقال ابن كيسان : عنى به جنّـة واحدة من الجنّات . والعرض أقل من الطول؛ ومن عادة العرب أنها تعبّر عن سَعة الشيء بعرضه دون طوله . قال :

كَأَنَّ بِلَادَ اللهِ وَهْىَ عَرِيضَـةٌ * على الخَائِف المطْلوبِ كِفَّةُ حابِلِ

وقد مضى هذا كله فى « آل عمران »(1) . وقال طارق بن شهاب : قال قوم من أهل الحيرة لعمر رضى الله عنه : أرأيت قول الله عز وجل : « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »

(1) راجع ج ٤ ص ٢٠٤

فأين النار ؟ فقال لهم عمر : أرأيتم الليل إذا وَلَّى وجاء النهار أين يكون الليل ؟ فقالوا : لقــد نزعت بمــا فى التوراة مثله . ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُـوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ شرط الإيمان لا غير، وفيه تقوية الرجاء . وقد قيــل : شرط الإيمان هنا وزاد عليــه فى «آل عمران» (١) فقال : «أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» . ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى إن الجنة لا تُنال ولا تُدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله . وقد مضى هذا فى «الأعراف» (٢) وغيرها . ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قوله تعـالى : مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال مقاتل : القحط وقلة النبات والثمــار . وقيل : الجوائح فى الزرع . ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ بالأوصاب والأسقام؛ قاله قتادة . وقيل : إقامة الحدود؛ قاله ابن حيان . وقيل : ضيق المعاش؛ وهذا معنى رواه ابن جريج . ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ يعنى فى اللوح المحفــوظ . ﴿ مِنْ قَبْــلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ الضمير فى «نَبْرَأَهَا» عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع . وقال ابن عباس : من قبــل أن يخلق المصيبة . وقال سعيد بن جبير: من قبل أن يخلق الأرض والنفس. ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى خلق ذلك وحفظ جميعه «عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» هين . قال الربيع بن صالح : لمــا أخذ سعيد ابن جبير رضى الله عنه بكيت؛ فقال : ما يبكيك؟ قلت : أبكى لمــا أرى بك ولمــا تذهب

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٠٦ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٩

إليه . قال : فلا تبك فإنه كان فى علم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى : «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ» الآية . وقال ٱبن عباس : لما خلق الله القلم قال له ٱكتب، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . ولقد ترك لهذه الآية جماعةٌ من الفضلاء الدواء فى أمراضهم فلم يستعملوه ثقة بربهم وتوكلًا عليه، وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة ، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا ؛ قال الله تعالى : «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا» . وقد قيل : إن هذه الآية تتصل بما قبل، وهو أن الله سبحانه هوّن عليهم ما يصيبهم فى الجهاد من قتل وجرح ، وبيّن أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكل مكتوب مقدّر لا مدفع له ، وإنما على المرء ٱمتثال الأمر، ثم أدبهم فقال هذا : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أى حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق ؛ وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فُرِغ منه لم يأسوا على ما فاتهم منه . وعن ٱبن مسعود أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه " ثم قرأ « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ » أى كى لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى من الدنيا؛ قاله ٱبن عباس . وقال سعيد بن جبير : من العافية والخصب . وروى عِكرمة عن ٱبن عباس : ليس مِن أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً ، وغنيمته شكراً . والحزن والفرح المنهيّ عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى ما لا يجوز ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١) أى متكبر بما أوتى من الدنيا ، فخور به على الناس . وقراءة العامة «آتَاكُمْ» بمد الألف أى أعطاكم من الدنيا . وٱختاره أبو حاتم . وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو « أَتَاكُمْ » بقصر الألف وٱختاره أبو عبيد . أى جاءكم ، وهو معادل لـ « فَاتَكُمْ » ولهذا لم يقل أفاتكم . قال جعفر بن محمد الصادق : يابن آدم ما لك تأسى على مفقود لا يردّه عليك الفوت ، أو تفرح بموجود لا يتركه فى يديك الموت . وقيل لبرزجمهر : أيها الحكيم ! ما لك لا تحزن على ما فات،

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٦٩ .

ولا تفرح بما هو آت ؟ قال : لأن الفائت لا يتلافى بالْعَبْرة ، والآتى لا يستدام بالحَبْرة . وقال الفضيل بن عياض فى هذا المعنى : الدنيا مُبِيد ومُفِيد، فما أباد فلا رجعة له ، وما أفاد آذن بالرحيل . وقيل : المختال الذى ينظر إلى نفسه بعين الافتخار، والفخور الذى ينظر إلى الناس بعين الاحتقار ، وكلاهما شرك خفى . والفخور بمنزلة المُصَرّاة تُشَدّ أخلافها ليجتمع فيها اللبن، فيتوهم المشترى أنّ ذلك معتاد وليس كذلك؛ فكذلك الذى يرى من نفسه حالًا وزينةً وهو مع ذلك مدّع فهو الفخور .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ أى لا يحب المختالين «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ» فـ« الَّذِينَ » فى موضع خفض نعتا للمختال . وقيل : رفع بابتداء أى الذين يبخلون فالله غنىّ عنهم. قيل: أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم التى فى كتبهم ؛ لئلا يؤمن به الناس فتذهب مأكلتهم؛ (١) قاله السدى والكلبي . وقال سعيد بن جبير : « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ» يعنى بالعلم ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أى بألّا يعلّموا الناس شيئا . زيد بن أسلم: إنه البخل بأداء حقّ الله عز وجل . وقيل : إنه البخل بالصدقة والحقوق ؛ قاله عامر بن عبد الله الأشعرىّ . وقال طاوس : إنه البخل بما فى يديه . وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . وفرّق أصحاب الخواطر بين البخل والسخاء بفرقين : أحدهما أن البخيل الذى يلتذ بالإمساك . والسخىّ الذى يلتذ بالإعطاء . الثانى — أن البخيل الذى يعطى عند السؤال، والسخىّ الذى يعطى بغير سؤال . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى عن الإيمان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ غنىّ عنه . ويجوز أن يكون لما حثّ على الصدقة أعلمهم أن الذين يبخلون بها ويأمرون الناس بالبخل بها فإن الله غنىّ عنهم . وقراءة العامة « بِالْبُخْلِ » بضم الباء وسكون الخاء . وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى ابن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائى «بِالْبَخَلِ» بفتحتين وهى لغة الأنصار. وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْقع « بِالْبَخْل » بفتح الباء وإسكان الخاء . وعن نصر بن عاصم «الْبُخُلِ» بضمتين وكلها لغات مشهورة . وقد تقدّم الفرق بين البخل والشحّ فى آخر«آل عمران» . (٢)

(١) يريد ما يأكلونه من الناس باسم الدين من الأموال .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٣

وقرأ نافع وابن عامر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ بغير «هُوَ». والباقون «هُوَ الْغَنِيُّ» على أن يكون فصلا. ويجوز أن يكون مبتدأ و«الْغَنِيُّ» خبره والجملة خبر إن. ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلا؛ لأن حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ.

قوله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى بالمعجزات البيّنة والشرائع الظاهرة. وقيل: الإخلاص لله تعالى فى العبادة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ بذلك دعت الرسل: نوح فمن دونه إلى محمد صلى الله عليه وسلم. ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أى الكتب؛ أى أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ قال ابن زيد: هو ما يوزن به ويتعامل ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أى بالعدل فى معاملاتهم. وقوله: «بِالْقِسْطِ» يدل على أنه أراد الميزان المعروف. وقال قوم: أراد به العدل. قال القشيرى: وإذا حملناه على الميزان المعروف، فالمعنى أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان فهو من باب:

* علفتها تبنا وماء باردا *

ويدل على هذا قوله تعالى: «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ» ثم قال: «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ» وقد مضى القول فيه.[1] ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ روى عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد

(١) راجع ص ١٥٤ من هذا الجزء.

والنار والماء والملح ". وروى عكرمة عن ابن عباس قال: ثلاثة أشياء نزلت مع آدم عليه السلام: الحجر الأسود وكان أشد بياضا من الثلج، وعصا موسى وكانت من آس الجنة، طولها عشرة أذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء: السندان والكَلْبَتَان والمِيقَعة وهي المِطرقة؛ ذكره الماوردي. وقال الثعلبي: قال ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدادين: السَّنْدان، والكَلْبَتَان، والمِيقَعة، والمِطْرقة، والإبرة. وحكاه القشيري قال: والمِيقَعة ما يحدّد به؛ يقال وَقَعْتُ الحديدَة أقعها أي حددتها. وفي الصحاح: والمِيقَعة الموضع الذي يألفه البازي فيقع عليه، وخشبة القَصّار التي يَدقّ عليها، والمِطْرقة والمِسَنّ الطويل. وروى أن الحديد أنزل في يوم الثلاثاء. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» أي لإهراق الدماء. ولذلك نهي عن الفصد والحجامة في يوم الثلاثاء؛ لأنه يوم جرى فيه الدم. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "في يوم الثلاثاء ساعةٌ لا يرقأ فيها الدم". وقيل: «أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» أي أنشأناه وخلقناه؛ كقوله تعالى: «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ»(1) وهذا قول الحسن. فيكون من الأرض غير منزل من السماء. وقال أهل المعاني: أي أخرج الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» يعني السلاح والكُرَاع والجُنَّة. وقيل: أي فيه من خشية القتل خوف شديد. ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ قال مجاهد: يعني جُنّة. وقيل: يعني انتفاع الناس بالماعون من الحديد، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه. ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أي أنزل الحديد ليعلم من ينصره. وقيل: هو عطف على قوله تعالى: «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب، وهذه الأشياء؛ ليتعامل الناس بالحق، «وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» وليرى الله من ينصر دينه ﴿وَ﴾ ينصر ﴿رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال ابن عباس: ينصرونهم لا يكذبونهم، ويؤمنون بهم «بِالْغَيْبِ» أي وهم لا يرونهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ «قَوِيٌّ» في أخذه «عَزِيزٌ» أي منيع غالب. وقد تقدّم. وقيل: «بِالْغَيْبِ» بالإخلاص.

(1) راجع جـ ١٥ ص ٢٣٥

قوله تعالى: ﴿ ولَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ فصّل ما أجمل من إرسال الرسل بالكتب، وأخبر أنه أرسل نوحًا وإبراهيم وجعل النبوّة فى نسلهما ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ أى جعلنا بعض ذريتهما الأنبياء، وبعضهم أمما يتلون الكتب المنزلة من السماء: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. وقال ٱبن عباس: الكتاب الخط بالقلم ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أى من ٱئتم بإبراهيم ونوح ﴿ مُهْتَدٍ ﴾. وقيل: « فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ » أى من ذريتهما مهتدون. ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ كافرون خارجون عن الطاعة.

قوله تعالى: ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أى أتبعنا ﴿ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ أى على آثار الذرية. وقيل: على آثار نوح وإبراهيم ﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه. وتقدّم ٱشتقاقه فى أوّل سورة « آل عمران »[1].

الثانية — قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ على دينه يعنى الحوار بين وأتباعهم ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أى مودّة فكان يواد بعضهم بعضًا. وقيل: هذا إشارة إلى أنهم أمروا فى الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرّفوا الكلم عن مواضعه. والرأفة اللين، والرحمة الشفقة. وقيل: الرأفة تخفيف الكلّ، والرحمة تحمّل الثقل. وقيل: الرأفة أشد الرحمة. وتم الكلام. ثم قال:

(١) راجع جـ ٤ ص ٥

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ أى من قِبل أنفسهم . والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبة بإضمار فعل ؛ قال أبو على : وٱبتدعوها رهبانية ٱبتدعوها . وقال الزجاج : أى ٱبتدعوها رهبانية ، كما تقول رأيت زيدًا وعمرًا كلّمت . وقيل : إنه معطوف على الرأفة والرحمة ؛ والمعنى على هذا أن الله تعالى أعطاهم إياها فغيّروا وٱبتدعوا فيها . قال الماوردى : وفيها قراءتان ؛ إحداهما بفتح الراء وهى الخوف من الرَّهب . الثانية بضم الراء وهى منسوبة إلى الرُّهبان كالرُّضوانية من الرُّضْوان ؛ وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات فى الأمتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع ؛ وذلك أن ملوكهم غيّروا و بدّلوا و بقى نفر قليل فترهّبوا وتبتّلوا . قال الضحاك : إن ملوكًا بعد عيسى عليه السلام ٱرتكبوا المحارم ثلثمائة سنة ، فأنكرها عليهم من كان بقى على منهاج عيسى فقتلوهم ؛ فقال قوم بقوا بعدهم : نحن إذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم ، فٱعتزلوا الناس وٱتخذوا الصوامع . وقال قتادة : الرهبانية التى ٱبتدعوها رفض النساء وٱتخاذ الصوامع . وفى خبر مرفوع : "هى لحوقهم بالبرارى والجبال" . ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها ؛ قاله ٱبن زيد . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ ﴾ أى ما أمرناهم إلا بما يرضى الله ؛ قاله ٱبن مسلم . وقال الزجاج : « مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » معناه لم نكتب عليهم شيئًا البتّة . ويكون «ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ» بدلًا من الهاء والألف فى « كَتَبْنَاهَا » والمعنى: ما كتبناها عليهم إلا ٱبتغاء رضوان الله . وقيل: « إِلَّا ٱبْتِغَاءَ » الأستثناء منقطع، والتقدير ما كتبناها عليهم لكن ٱبتدعوها ٱبتغاء رضوان الله . ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى فما قاموا بها حق القيام . وهذا خصوص؛ لأن الذين لم يرعوها بعض القوم ، و إنما تسببوا بالترهب إلى طلب الرياسة على الناس وأكل أموالهم، كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ (١) » وهذا فى قوم أداهم الترهب إلى طلب الرياسه فى آخر الأمر . وروى سفيان الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس فى قوله تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا » قال: كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل،

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢٢

وكان فيهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل و يدعون إلى دين الله تعالى، فقال أناس لملكهم: لو قتلت هـذه الطائفة . فقال المؤمنون : نحن نكفيكم أنفسنا . فطائفة قالت : آبنوا لنا آسطوانة آرفعونا فيها ، وأعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم . وقالت طائفة : دعونا نهيم فى الأرض ونسيح، ونشرب كما تشرب الوحوش فى البرية، فإذا قدرتم علينا فآقتلونا . وطائفة قالت : آبنوا لنا دُوراً فى الفيافى ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا ترونا . وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ففعلوا ، فمضى أولئك على منهاج عيسى ، وخلف قوم من بعدهم ممن قـد غيّر الكتاب فقالوا : نسـيح ونتعبّد كما تعبـد أولئك ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان مَن تقدّم من الذين آقتدوا بهم ؛ فذلك قوله تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِـمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » الآية . يقول : آبتـدعها هؤلاء الصالحون « فَمَا رَعَوْهَا » المتأخرون « حَقَّ رِعَايَتِهَا » ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ يعنى الذين آبتدعوها أوّلًا ورعوها ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يعنى المتأخرين ، فلما بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم إلا قليل ، جاءوا من الكهوف والصّوامع والغيران فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الثالثـــة — وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة ، فينبغى لمن آبتدع خيراً أن يدوم عليه ، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل فى الآية . وعن أبى أمامة الباهلى — وآسمه صُدَىّ بن عجلان — قال : أحدثتم قيام رمضان ولم يكتب عليكم ، إنمـا كتب عليكم الصيام ، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه ، فإن ناسا من بنى إسرائيل آبتدعوا بِدعاً لم يكتبها الله عليهم آبتغوا بها رضوان الله فما رَعَوها حق رعايتها، فعابهم الله بتركها فقال : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَـا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » .

الرابعـــة — وفى الآية دليل على العزلة عن الناس فى الصوامع والبيوت، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغيّر الأصدقاء والإخوان . وقد مضى بيان هذا فى سورة « الكهف »[1] مستوفًى والحمد لله . وفى مسند أحمد بن حنبل من حديث أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال:

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٦٠

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَرِيّة من سراياه فقال : مرّ رجلٌ بغار فيه شيء من ماء، فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء و يصيب ما حوله من البقل و يتخلّى عن الدنيا . قال : لو أنى أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فإن أذن لى فعلت و إلا لم أفعل ، فأتاه فقال : يانبيّ الله ! إنى مررت بغار فيــه ما يقوتنى من المــاء والبقل، فحدثتنى نفسى بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا . قال : فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنى لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة والذى نفس محمد بيده لَغَدْوة أو رَوْحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم فى الصف الأوّل خير من صلاته ستين سنة ". وروى الكوفيون عن ابن مسعود، قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرى أىّ النــاس أعلم " قال قلت : الله و رسوله أعلم . قال : " أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس فيه و إن كان مقصراً فى العمل و إن كان يزحف على آسته هل تدرى من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصى الله فغضب أهل الإيمــان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمــان ثلاث مرات فلم يبق منهــم إلا القليل فقالوا إن أفنونا فلم يبــق للدين أحد يدعون إليه فتعالوا نفترق فى الأرض إلى أن يبعث الله النبيّ الأمىّ الذى وعدنا عيسى — يعنون محمدًا صــلى الله عليه وســلم — فتفرقوا فى غِيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر — وتلا «وَرَهْبَانِيَّةً» الآية — أتدرى ما رهبانيــة أمتى الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على التلاع يا بن مسعود اختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة فنجا منهم فرقة وهلك سائرها واختلف مَن كان من قبلكم من النصارى على اثنين وسبعين فرقة فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى — عليــه السلام — حتى قتــلوا وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهرانى قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرانى قومهم فيدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فساحوا فى الجبال وترهبوا فيها وهى التى قال الله تعالى فيهم : «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا» — الآية — فمن

آمن بى وآتبعنى وصدّقنى فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بى فأولئك هم الفاسقون " يعنى الذى تهوّدوا وتنصروا . وقيل : هؤلاء الذين أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا به فأولئك هم الفاسقون . وفى الآية تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى إن الأولين أصروا على الكفر أيضاً فلا تعجب من أهل عصرك إن أصروا على الكفر . والله أعلم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى آمنوا بموسى وعيسى ﴿ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أى مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، وهذا مثل قوله تعالى : «أُولَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا» وقد تقدم القول[1] فيه . والكِفل الحظ والنصيب وقد مضى فى « النساء[2] » وهو فى الأصل كِساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط ؛ قاله آبن جريج . ونحوه قال الأزهرى ، قال : آشتقاقه من الكساء الذى يحويه راكب البعير على سنامه إذا آرتدفه لئلا يسقط ؛ فتأويله يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصى كما يحفظ الكفل الراكب . وقال أبو موسى الأشعرى : « كِفْلَيْنِ » ضعفين بلسان الحبشة . وعن آبن زيد : « كِفْلَيْنِ » أجر الدنيا والآخرة . وقيل : لما نزلت « أُولَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » آفتخر مؤمنو أهل

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٧ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٥

الكتّاب على أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت هــذه الآية . وقد آستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الحســنة إنما لها من الأجر مِثْل واحد ؛ فقال : الحســنة آسم عام ينطلق على كل نوع من الإيمان ، و ينطلق على عمومه ، فإذا آنطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليهـا من الثواب إلا مِثْـل واحد . و إن آنطلقت على حســنة تشتمل على نوعين كان الثواب عليها مثلين ؛ بدليل هــذه الآية فإنه قال : « كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ » والكفل النصيب كالمثــل ، فجعــل لمن آتقى الله وآمن برســوله نصيبين ؛ نصيباً لتقوى الله ونصيباً لإيمــانه برسوله . فدل على أن الحسنة التي جعل لها عشر هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات ، وهو الإيمان الذي جمع الله تعالى في صــفته عشرة أنواع ، لقوله تعــالى : « إِنَّ الْمُسْــلِمِينَ وَالْمُسْلِمَــاتِ »[1] الآية بكمالها . فكانت هذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها فيكون لكل نوع منها مِثْل . وهذا تأو يل فاســد ، لخروجه عن عموم الظاهر ، في قوله تعالى : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » بمــا لا يحتمله تخصيص العموم ، لأن ما جمــع عشر حسنات فليس يُجزَى عن كل حسنة إلا بمثلها . و بطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالهــا والأخبار دالة عليه . وقد تقدم ذكرها[2] . ولو كان كما ذكر لمــا كان بين الحسنة والسيئة فرق .

﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا ﴾ أي بيانًا وهــدًى ، عن مجاهــد . وقال آبن عباس : هو القــرآن . وقيل : ضيــاء ﴿ تَمْشُونَ بِهِ ﴾ في الآخرة على الصراط ، وفي القيامة إلى الجنة . وقيل تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإســلام فتكونون رؤساء في دين الإسلام لا تزول عنكم رياســة كنتم فيها . وذلك أنهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد عليه الســلام . و إنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله ، لا الرياسة الحقيقية في الدين . ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أي ليعلم ، و « أن لا » صــلة زائدة مؤكدة ؛ قاله الأخفش . وقال الفراء : معناه لأن يعلم و « لا » صــلة زائدة في كل كلام دخل عليه

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٨٥ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ وجـ ١٣ ص ٢٤٤

تجحد. قال قتادة: حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت: «لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ» أى لأن يعلم أهل الكتاب أنهم ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾. وقال مجاهد: قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبيّ يقطع الأيدى والأرجل. فلما خرج من العرب كفروا فنزلت: «لِئَلَّا يَعْلَمَ» أى ليعلم أهل الكتاب «أَنْ لَا يَقْدِرُونَ» أى أنهم لا يقدرون؛ كقوله تعالى: «أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا»(١). وعن الحسن: «لَيْلَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ» وروى ذلك عن ابن مجاهد. وروى قُطْرُب(٢) بكسر اللام وإسكان الياء. وفتح لام الجر لغة معروفة. ووجه إسكان الياء أنّ همزة «أَنْ» حذفت فصارت «لَنْ» فأدغمت النون فى اللام فصار «لِلَّا» فلما اجتمعت اللامات أبدلت الوسطى منها ياء؛ كما قالوا فى أمّا: أيما. وكذلك القول فى قراءة من قرأ «لِيْلَا» بكسر اللام إلا أنه أبقى اللام على اللغة المشهورة فيها فهو أقوى من هذه الجهة. وعن ابن مسعود «لِكَيْلَا يَعْلَمَ» وعن حِطّان بن عبد الله «لأَنْ يَعْلَمَ». وعن عِكرمة «لِيَعْلَمَ» وهو خلاف المرسوم. «مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» قيل: الإسلام. وقيل: الثواب. وقال الكلبي: من رزق الله. وقيل: نعم الله التى لا تحصى. «وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ» ليس بأيديهم فيصرفون النبوّة عن محمد صلى الله عليه وسلم إلى من يحبون. وقيل: «وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ» أى هو له ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. وفى البخارى: حدثنا الحكم بن نافع، قال حدثنا شعيب عن الزهرى، قال أخبرنى سالم بن عبد الله، أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر: "إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاء أقل عملاً وأكثر أجراً قال هل

(١) راجع ج ١١ ص ٢٣٦.

(٢) روى قطرب عن الحسن أيضا كما فى السمين وغيره، فتكون للحسن قراءتان فتح اللام وكسرها مع إسكان الياء فيهما.

ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا لا فقال فذلك فضلي أوتيه من أشاء" في رواية : "فغضبت اليهود والنصارى وقالوا ربنا " الحديث ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ . [تم تفسير سورة « الحديد » والحمد لله[1]] .

تفسير سورة المجادلة

وهي آثنتان وعشرون آية

مدنية في قول الجميع . إلا رواية عن عطاء : أن العشر الأول منها مدني وباقيها مكي. وقال الكلبي : نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ » نزلت بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ التي آشتكت إلى الله هي خَوْلة بنت ثعلبة . وقيل بنت حكيم . وقيل آسمها جميلة . وخَوْلة أصح ؛ وزوجها أَوْس بن الصّامت أخو عُبَادة بن الصامت ، وقد مرّ بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته والناس معه على حمار فآستوقفته طويلاً ووعظته وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عُمَيراً ، ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين ؛ فآتق الله يا عمر ؛ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب ؛ وهو واقف يسمع كلامها ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال : والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هي خَوْلة

(١) ما بين المربعين ساقط من ح ، س ، ط ، ه .

بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع ربّ العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟ وقالت عائشة رضى الله عنها : تبارك الذى وسع سمعه كل شىء، إنى لأسمع كلام خَوْلة بنت ثعلبة ويخفى علىّ بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهى تقول : يا رسول الله ! اكل شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وآنقطع ولدى ظاهر منى؛ اللهم إنى أشكو إليك ! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ » خرجه آبن ماجه فى السنن . والذى فى البخارى من هذا عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا » . وقال الماوردى : هى خَوْلة بنت ثعلبة . وقيل : بنت خويلد . وليس هذا بمختلف؛ لأن أحدهما أبوها والآخر جدّها فنسبت إلى كل واحد منهما . وزوجها أَوْس بن الصّامت أخو عُبَادة بن الصّامت . وقال الثعلبي قال آبن عباس : هى خَوْلة بنت خويلد الخزرجية ، كانت تحت أَوس بن الصّامت أخو عُبَادة بن الصامت ، وكانت حسنة الجسم ؛ فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه أمرها ، فلما آنصرفت أرادها فأبت فغضب عليها — قال عُرْوة[1] : وكان آمرأً به لَمَم[2] فأصابه بعض لَمَمِه فقال لها : أنت علىّ كظهر أمى . وكان الإيلاء والظهار من الطلاق فى الجاهلية ، فسألت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال لها : "حرمتِ عليه" فقالت : والله ما ذكر طلاقا ؛ ثم قالت : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ووحشتى وفراق زوجى وآبن عمى وقد نفضت له بطنى ؛ فقال : "حرمتِ عليه" فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية . وروى الحسن : أنها قالت : يا رسول الله ! قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجى ظاهر منى ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أوحى إلىّ فى هذا شىء" فقالت : يا رسول الله، أوحى إليك فى كل شىء وطُوِى عنك هذا؟! فقال : "هو ما قلت لكِ" فقالت : إلى الله أشكو لا إلى رسوله .

---

(١) عروة هو راوى حديث عائشة المتقدم . (٢) اللم : طرف من الجنون يلم بالإنسان أى يعتريه .

فأنزل الله : « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ » الآية . وروى الدارقطني من حديث قتادة أن أنس بن مالك حدثه قال : إن أوس بن الصامت ظاهر من امرأته خُوَيلة بنت ثعلبة فشكت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ظاهر حين كبرت سنى ورق عظمى . فأنزل الله تعالى آية الظهار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأوس : "أعتق رقبة" قال : مالى بذلك يدان . قال : "فصم شهرين متتابعين" قال : أما إنى إذا أخطأنى أن آكل فى يوم ثلاث مرات يكلّ بصرى . قال : "فأطعم ستين مسكينا" قال : ما أجد إلا أن تعيننى منك بعون وصلة . قال : فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعا حتى جمع الله له [والله غفور رحيم][1] . ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ قال : فكانوا يرون أن عنده مثلها وذلك لستين مسكينا ، وفى الترمذى وسنن ابن ماجه : أن سلمة ابن صخر البياضى ظاهر من امرأته ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : "أعتق رقبة" قال : فضربت صفحة عنقى بيدى . فقلت : لا والذى بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها ، قال : "فصم شهرين" فقلت : يا رسول الله ! وهل أصابنى ما أصابنى إلا فى الصيام ، قال : "فأطعم ستين مسكينا" الحديث . وذكر ابن العربى فى أحكامه : روى أن خولة بنت دليج ظاهر منها زوجها ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "قد حرمت عليه" فقالت : أشكو إلى الله حاجتى . [ثم عادت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حرمت عليه" فقالت : إلى الله أشكو حاجتى إليه][2] وعائشة تغسل شق رأسه الأيمن ، ثم تحولت إلى الشق الآخر وقد نزل عليه الوحى ، فذهبت أن تعيد ، فقالت عائشة : اسكتى فإنه قد نزل الوحى . فلما نزل القرآن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجها : "أعتق رقبة" قال : لا أجد . قال : "صم شهرين متتابعين" قال : إن لم آكل فى اليوم ثلاث مرات خفت أن يعشو بصرى . قال : "فأطعم ستين مسكينا". قال : فأعنى . فأعانه بشىء . قال أبو جعفر النحاس : أهل التفسير على أنها خولة

---

(١) الزيادة من ح ، ز ، ل ، هـ . (٢) الزيادة من الأحكام لابن العربى .

وزوجها أوس بن الصّامت، وٱختلفوا فى نسبها ، قال بعضهم : هى أنصارية وهى بنت ثعلبة، وقال بعضهم : هى بنت دليج ، وقيل : هى بنت خُوَيلد ، وقال بعضهم : هى بنت الصامت، وقال بعضهم: هى أَمَة كانت لعبد الله بن أُبَىّ، وهى التى أنزل الله فيها « وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا » لأنه كان يُكرهها على الزنى . وقيل : هى بنت حكيم . قال النحاس : وهذا ليس بمناقض، يجوز أن تنسب مرةً إلى أبيها، ومرةً إلى أمها، ومرةً إلى جدّها ، ويجوز أن تكون أَمة كانت لعبد الله بن أبىّ فقيل لها أنصارية بالولاء ؛ لأنه كان فى عداد الأنصار و إن كان من المنافقين .

الثانيـــة — قرئ « قد سَّمِعَ اللهُ » بالإدغام و « قَدْ سَمِعَ اللهُ » بالإظهار . والأصل فى السماع إدراك المسموعات، وهو ٱختيار الشيخ أبى الحسن . وقال ٱبن فُورك : الصحيح أنه إدراك المسموع . وقال الحاكم أبو عبد الله فى معنى السميع : إنه المدرك للأصوات التى يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أُذن ، وذلك راجع إلى أن الأصوات لا تخفى عليه ، وإن كان غير موصوف بالحِس المركب فى الأذن ؛ كالأصم من الناس لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلاً لإدراك الصوت . والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة والحياة والإرادة ، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفاً بهما . وشكى وٱشتكى بمعنى واحد . وقرئ « تُحَاوِرُكَ » أى تراجعك الكلام و « تُجَادِلُكَ » أى تسائلك .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ[1] ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف « يَظَّاهَرُونَ » بفتح الياء وتشديد الظاء وألف . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب « يَظَّهَّرُونَ » بحذف الألف وتشديد الهاء والظاء وفتح الياء . وقرأ أبو العالية وعاصم وزِرّ ابن حُبَيش « يُظاهِرُونَ » بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء . وقد تقدّم هذا في « الأحزاب[2] » . وفي قراءة أُبَيّ «يَتَظَاهَرُونَ» وهي معنى قراءة ابن عامر وحمزة . وذِكر الظهر كناية عن معنى الركوب ، والآدمية إنما يركب بطنها ولكن كَنّى عنه بالظهر ؛ لأن ما يركب من غير الآدميات فإنما يركب ظهره ، فكَنّى بالظهر عن الركوب . ويقال : نزل عن امرأته أي طلقها كأنه نزل عن مركوب . ومعنى أنت عليّ كظهر أمّي : أي أنت عليّ محرّمة لا يحلّ لي ركوبك .

الثانية — حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر ، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرٍ محلل بظهرٍ محرّم؛ ولهذا أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته : أنت عليّ كظهر أمي أنه مظاهر . وأكثرهم على أنه إن قال لها : أنت عليّ كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر . وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما . واختلف فيه عن الشافعي رضي الله عنه ؛ فروى عنه نحو قول مالك ؛ لأنه شبّه امرأته بظهر محرّم عليه مؤبّد كالأم . وروى عنه أبو ثور : أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها . وهو مذهب قتادة والشعبي . والأول قول الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري .

الثالثة — أصل الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي . وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وستراً . فإن قال : أنت عليّ كأمي ولم يذكر الظهر ، أو قال : أنت عليّ مثل أمي؛ فإن أراد الظهار فله نيته، وإن أراد الطلاق كان مطلقا ألبتّة عند مالك،

(١) نسخ الأصل على « يظهرون » وهي قراءة نافع التي يقرأ بها المؤلف فيما يأتي.

(٢) راجع جـ ١٤ ص ١١٨ ولم يذكر هناك شيئا بل أحال الكلام على هذه السورة .

و إن لم تكن له نيــة فى طلاق ولا ظهار كان مظاهرا . ولا ينصرف صريح الظهار بالنية إلى الطلاق ؛ كما لا ينصرف صريح الطلاق و كنايته المعروفة له إلى الظهار، و كناية الظهار خاصة تنصرف بالنية إلى الطلاق ألبتّ .

الرابعــة — ألفاظ الظهار ضربان : صريح وكناية ؛ فالصريح أنت علىّ كظهر أمى ، وأنت عنــدى وأنتِ منى وأنتِ معى كظهر أمى . وكذلك أنت علىّ كبطن أمى أو كرأسها أو فرجها أو نحــوه، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك علىّ كظهر أمى فهو مظاهر ؛ مثل قــوله : يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق تطلق عليــه . وقال الشافعى فى أحد قوليه : لا يكون ظهارا . وهذا ضعيف منه ؛ لأنه قد وافقنا على أنه يصح إضافة الطلاق إليه خاصــة حقيقة خلافا لأبى حنيفة فصح إضافة الظهار إليه . ومتى شبهها بأمــه أو بإحدى جداته من قبل أبيه أو أمه فهو ظهار بلا خلاف . و إن شبهها بغيرهن من ذوات المحارم التى لا تحل له بحال كالبنت والأخت والعمة والخالة كان مظاهرا عند أكثر الفقهاء ، وعنــد الإمام الشافعى رضى الله عنه على الصحيح من المذهب على ما ذكرنا . والكناية أن يقول : أنت علىّ كأمى أو مثل أمى فإنه يعتــبر فيه النية . فإن أراد الظهار كان ظهارا ، و إن لم يرد الظهار لم يكن مظاهراً عند الشافعى وأبى حنيفة . وقد تقــدّم مذهب مالك رضى الله عنه فى ذلك ؛ والدليــل عليه أنه أطلق تشبيه آمرأته بأمــه فكان ظهارا . أصله إذا ذكر الظهر وهــذا قوى فإن معنى اللفظ فيه موجود — واللفظ بمعناه — ولم يلزم حكم الظهر للفظه و إنما ألزمه بمعناه وهو التحريم ؛ قاله آبن العربى .

الخـامســـة — إذا شبه جملة أهله بعضو من أعضاء أمّــه كان مظاهرا ؛ خلافا لأبى حنيفة فى قوله : إنه إن شبهها بعضو يحلّ له النظر إليه لم يكن مظاهرا . وهذا لا يصح ؛ لأن النظر إليه على طريق الاستمتاع لا يحــل له ، وفيه وقع التشبيه و إياه قصد المظاهر ؛ وقــد قال الإمام الشافعى فى قول : إنه لا يكون ظهارا إلا فى الظهر وحده . وهذا فاسد ؛ لأن كل عضو منها محــترم ، فكان التشــبيه به ظهارا كالظهر ؛ ولأن المظاهر إنمـا يقصد تشبيه المحلل بالمحرم فلزم على المعنى .

السادسة — إن شبه آمرأته بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهارا حملاً على الأول، وإن لم يذكر الظهر فاختلف فيه علماؤنا ؛ فمنهم من قال : يكون ظهاراً . ومنهم من قال : يكون طلاقا . وقال أبو حنيفة والشافعي : لايكون شيئاً . قال آبن العربي : وهذا فاسد ؛ لأنه شبه محللا من المرأة بمحرم فكان مقيّدًا بحكمه كالظهر، والأسماء بمعانيها عندنا ، وعندهم بألفاظها وهذا نقض للأصل منهم .

قلت : الخلاف في الظهار بالأجنبية قوى عند مالك . وأصحابه منهم من لايرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصة ولايرى الظهار بغيرهن . ومنهم من لا يجعله شيئاً . ومنهم من يجعله في الأجنبية طلاقًا . وهو عند مالك إذا قال : كظهر آبني أو غلامي أو كظهر زيد أو كظهر أجنبية ظهار لايحل له وطؤها في حين يمينه . وقد روى عنه أيضا : أن الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء ؛ كما قال الكوفي والشافعي . وقال الأوزاعي : لو قال لها أنت عليّ كظهر فلان رجل فهو يمين يكفرها . والله أعلم .

السابعة — إذا قال : أنت عليّ حرام كظهر أمي كان ظهارا ولم يكن طلاقا؛لأن قوله : أنت حرام عليّ يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلقة ، ويحتمل التحريم بالظهار فلما صرح به كان تفسيرا لأحد الاحتمالين يقضى به فيه .

الثامنة — الظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها على أي الأحوال كانت من زوج يجوز طلاقه . وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمائه ، إذا ظاهر منهن لزمه الظهار فيهن . وقال أبو حنيفة والشافعي : لايلزم . قال القاضي أبو بكر آبن العربي : وهي مسألة عسيرة جدًّا علينا ؛ لأن مالكاً يقول : إذا قال لأمته أنت عليّ حرام لايلزم . فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كنايته . ولكن تدخل الأمة في عموم قوله : « مِنْ نِسَائِهِمْ » لأنه أراد من محللاتهم . والمعنى فيه أنه لفظ يتعلق بالبُضع دون رفع العقد فصح في الأمة ؛ أصله الحلف بالله تعالى .

التاسعة — و يلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التى ظاهر منها عند مالك . ولا يلزم عند الشافعى وأبى حنيفة ؛ لقوله تعالى : « مِنْ نِسَائِهِمْ » وهذه ليست من نسائه . وقد مضى أصل هذه المسألة فى سورة « براءة » عند قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ »[1] الآية .

العاشرة — الذمى لايلزم ظهاره . وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعى : يصح ظهار الذمى ؛ ودليلنا قوله تعالى : « مِنْكُمْ » يعنى من المسلمين . وهذا يقتضى خروج الذمى من الخطاب . فإن قيل : هذا آستدلال بدليل الخطاب . قلنا : هو آستدلال بالاشتقاق والمعنى ، فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقة الفسخ فلا يتعلق بها حكم طلاقٍ ولا ظِهار ، وذلك كقوله تعالى : « وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ »[2] و إذا خلت الأنكحة عن شروط الصحة فهى فاسدة ، ولا ظهار فى النكاح الفاسد بحال .

الحادية عشرة — قوله تعالى : « مِنْكُمْ » يقتضى صحة ظهار العبد خلافاً لمن منعه . وحكاه الثعلبى عن مالك ، لأنه من جملة المسلمين وأحكام النكاح فى حقه ثابتة وإن تعذر عليه العتق والإطعام فإنه قادر على الصيام.

الثانية عشرة — وقال مالك رضى الله عنه : ليس على النساء تظاهر ، وإنما قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ » ولم يقل اللائى يظهرن منكن من أزواجهن ، إنما الظهار على الرجال . قال آبن العربى : هكذا روى عن آبن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبى الزناد . وهو صحيح معنًى ؛ لأن الحل والعقد [والتحليل والتحريم][3] فى النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شىء وهذا إجماع . قال أبو عمر : ليس على النساء ظهار فى قول جمهور العلماء . وقال الحسن بن زياد : هى مظاهرة . وقال الثورى وأبو حنيفة ومحمد : ليس ظهار المرأة من الرجل بشىء قبل النكاح كان أو بعده . وقال الشافعى : لاظهار للمرأة من الرجل . وقال الأوزاعى : إذا قالت المرأة لزوجها ؛ أنت علىّ كظهر أمى[4]

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٠ .
(٢) راجع جـ ١٨ ص ١٥٧ .
(٣) الزيادة من آبن العربى .
(٤) لفظ « أمى » ساقط من ح ، ز ، س ، ه .

فـلانة فهى يمين تكفّرها . وكذلك قال إسحق ؛ قال : لا تكون آمرأة متظاهرة من رجل ولكن عليها يمين تكفرها . وقال الزهرى : أرى أن تكفر كفارة الظهار، ولا يحول قولها هذا بينها و بين زوجها أن يصيبها ؛ رواه عنه معمر . وابن جريج عن عطاء قال : حرمت ما أحل الله ، عليها كفارة يمين . وهو قول أبى يوسف . وقال محمد بن الحسن : لا شىء عليها .

الثـالثة عشرة — من به لَمَـمٌ وآنتظمت له فى بعض الأوقات الكلم إذا ظاهر لزم ظهاره ؛ لمـا روى فى الحديث : أن خَوْلة بنت ثعلبة وكان زوجها أَوْس بن الصّامت وكان به لَمَم فأصابه بعض لَمَمِه فظاهر من آمرأته .

الرابعـة عشرة — من غضب وظاهر من امرأته أو طلق لم يسقط عنه غضبه حكمه . وفى بعض طرق هـذا الحديث ، قال يوسف بن عبد الله بن سلام : حدّثتنى خَوْلة آمرأة أَوْس بن الصّامت، قالت : كان بينى و بينه شىء، فقال : أنت علىّ كظهر أمى ثم خرج إلى نادى قومه . فقولها : كان بينى و بينه شىء ؛ دليل على منازعة أحرجته[1] فظاهر منها . والغضب لغو لا يرفع حكمًا ولا يغيّر شرعاً وكذلك السكران . وهى :

الخامسة عشرة — يلزمه حكم الظهار والطلاق فى حال سكره إذا عقَل قولَه ونظَم كلامَه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ »[2] على ما تقدم فى « النساء » بيانه . والله أعلم .

السادســة عشرة — ولا يقرب المظاهر آمرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ منها بشىء حتى يكفّر، خلافًا للشافعى فى أحد قوليه ؛ لأن قوله : أنت علىّ كظهر أمى يقتضى تحـريم كل آستمتاع بلفظه ومعناه ، فإن وطئها قبل أن يكفّر ، وهى :

السابعة عشرة — آستغفر الله تعالى وأمسك عنها حتى يكفّر كفارة واحدة . وقال مجاهد وغيره : عليــه كفارتان . روى ســعيد عن قتادة ، ومطرّف عن رجاء بن حَيْوة عن قَبيصة آبن ذؤيب عن عمرو بن العاص فى المظاهر : إذا وطئ قبل أن يكفّر عليه كفارتان . ومعمر عن قتادة قال: قال قبيصة بن ذؤيب : عليه كفارتان . وروى جماعة من الأئمة منهم آبن ماجه

(١) فى ح ، ز ، س ، ل : « أحوجته » بالواو بدل الراء . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٠٣

والنسائى عن آبن عباس : أن رجلا ظاهر من آمرأته فغشيها قبل أن يكفّر فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال : "ما حملك على ذلك" فقال : يارسول الله ! رأيت بياض خلخالها فى ضوء القمر فلم أملك نفسى أن وقعت عليها . فضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمره ألا يقربها حتى يكفّر . وروى آبن ماجه والدَّارَقُطْنى عن سليمان بن يسار عن سلمة آبن صخر أنه ظاهر فى زمان النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم وقع بآمرأته قبل أن يكفّر، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فأمره أن يكفّر تكفيرًا واحدًا .

الثامنة عشرة — إذا ظاهر من أربع نسوة فى كلمة واحدة؛ كقوله : أنتن علىّ كظهر أمى كان مظاهرا من كل واحدة منهن، ولم يجزله وطء إحداهن وأجزأته كفارة واحدة . وقال الشافعى : تلزمه أربع كفارات . وليس فى الآية دليل على شيء من ذلك ؛ لأن لفظ الجمع إنما وقع فى عامة المؤمنين والمعوّل على المعنى . وقد روى الدَّارَقُطْنىّ عن آبن عباس قال : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : إذا كان تحت الرجل أربع نسوة فظاهر منهن يجزيه كفارة واحدة ، فإن ظاهر من واحدة بعد أخرى لزمه فى كل واحدة منهن كفارة . وهذا إجماع .

التاسعة عشرة — فإن قال لأربع نسوة : إن تزوجتكن فأنتن علىّ كظهر أمى فتزوّج إحداهن لم يقربها حتى يكفّر ، ثم قد سقط عنه اليمين فى سائرهن . وقد قيل : لا يطأ البواقى منهن حتى يكفر . والأوّل هو المذهب .

الموفية عشرين — وإن قال لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى وأنت طالق البتّة[1]، لزمه الطلاق والظهار معًا، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفّر، فإن قال لها : أنت طالق البتة وأنت علىّ كظهر أمى لزمه الطلاق ولم يلزمه الظهار؛ لأن المبتوتة لا يلحقها طلاق .

(١) يريد بالبتة هنا الطلاق الثلاث كما يفهم من العبارة بعد وكما فى آبن العربى حيث قال : إذا طلقها ثلاثا بعد الظهار ثم عادت إليه بنكاح جديد لم يطأ حتى يكفر .

الحادية والعشرون — قال بعض العلماء : لا يصح ظهار غير المدخول بها . وقال المزنى : لا يصح الظهار من المطلقة الرجعية ، وهذا ليس بشيء ؛ لأن أحكام الزوجية فى الموضعين ثابتة ، وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار قياسًا ونظرًا . والله أعلم .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ أى ما نساؤهم بأمهاتهم . وقراءة العامة « أُمَّهَاتِهِمْ » بخفض التاء على لغة أهل الحجاز ؛ كقوله تعالى : «مَا هَذَا بَشَرًا» . وقرأ أبو معمر والسلمى وغيرهما «أُمَّهَاتُهُمْ» بالرفع على لغة تميم . قال الفراء : أهل نجد وبنو تميم يقولون « مَا هَـذَا بَشَرٌ » ، و « مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ » بالرفع . ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ أى ما أمهاتهم إلا الوالدات . وفى المثل : ولدك مَنْ دَمَّى عَقِبَيْك . وقد تقدم القول فى اللائى فى « الأحزاب »[(١)] .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أى فظيعا من القول لا يعرف فى الشرع . والزور الكذب ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم من هذا القول المنكر .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

(١) ليس فى الأحزاب كلام على اللائى ويبدو أن سقطا وقع فى نسخ الأصل التى بأيدينا .

فيه ٱثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ هذا ٱبتداء والخبر « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » وحذف عليهم لدلالة الكلام عليه ؛ أى فعليهم تحرير رقبة . وقيل : أى فكفارتهم عتق رقبة . والمجمع عليه عند العلماء فى الظهار قول الرجل لأمرأته : أنت علىّ كظهر أمى . وهو قول المنكر والزور الذى عنى الله بقوله : « وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا » فمن قال هذا القول حرم عليه وطء ٱمرأته . فمن عاد لمـا قال لزمته كفارة الظهار ؛ لقوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » وهذا يدل على أن كفارة الظهار لا تلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العَوْد ، وهذا حرف مشكل ٱختلف الناس فيه على أقوال سبعة :

الأوّل — أنه العزم على الوطء ، وهو مشهور قول العراقيين أبى حنيفة وأصحابه . و روى عن مالك : فإن عزم على وطئها كان عَوْدًا ، و إن لم يعزم لم يكن عَوْدًا . الشـانى — العزم على الإمساك بعد التظاهر منها ؛ قاله مالك . الثالث — العزم عليهما . وهو قول مالك فى موطئه ؛ قال مالك فى قوله الله عز وجل : « وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » قال : سمعت أن تفسـير ذلك أن يظاهر الرجل من ٱمرأته ثم يجمع على إصابتها و إمساكها ؛ فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة ، و إن طلقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها و إصابتها فلا كفارة عليـه . قال مالك : و إن تزوّجها بعد ذلك لم يمسها حتى يكفّر كفارة التظاهر . القول الرابع — أنه الوطء نفسـه فإن لم يطأ لم يكن عَوْدًا ؛ قاله الحسن ومالك أيضا . الخامس — وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه : هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق ؛ لأنه لمـا ظاهر قصد التحريم ، فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما ٱبتدأه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه . و إن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة . السادس — أن الظهار يوجب تحريمًا لا يرفعه إلا الكفارة . ومعنى العَود عند القائلين بهذا : أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها ، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد . السابع — هو تكرير الظهار بلفظه . وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس ، قالوا : إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العَوْد ، و إن لم يكرر فليس بعَود . و يسند ذلك إلى بكير بن

الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة أيضاً، وهو قول الفراء. وقال أبو العالية: وظاهر الآية يشهد له ؛ لأنه قال : « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » أي إلى قول ما قالوا . وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » هو أن يقول لها أنت عليّ كظهر أمي . فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفّر كفارة الظهار . قال ابن العربي : فأما القول بأنه العَوْد إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعاً لا يصح عن بكير، وإنما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه . وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر لِعَود القول منهم، وأيضاً فإن المعنى ينقضه؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور ، فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة، وهذا لا يعقل؛ ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره .

قلت : قوله يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه حملٌ منه عليه ، وقد قال بقول داود من ذكرناه عنهم ، وأما قول الشافعي : بأنه ترك الطلاق مع القدرة عليه فينقضه ثلاثة أمور أمهات : الأول — أنه قال : « ثُمَّ » وهذا بظاهره يقتضي التراخي . الثاني — أن قوله تعالى: « ثُمَّ يَعُودُونَ » يقتضي وجود فعل من جهة ومرور الزمان ليس بفعل منه . الثالث — أن الطلاق الرجعي لا ينافي البقاء على الملك فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء . فإن قيل : فإذا رآها كالأم لم يمسكها إذ لا يصح إمساك الأم بالنكاح . وهذه عمدة أهل ما وراء النهر . قلنا : إذا عزم على خلاف ما قال ورآها خلاف الأم كفّر وعاد إلى أهله . وتحقيق هذا القول . أن العزم قولٌ نفسيٌّ، وهذا رجل قال قولًا اقتضى التحليل وهو النكاح ، وقال قولا اقتضى التحريم وهو الظهار ، ثم عاد لما قال وهو التحليل ، ولا يصح أن يكون منه ابتداء عقد، لأن العقد باق فلم يبق إلا أنه قول عزم يخالف ما اعتقده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله أنت عليّ كظهر أمي، وإذا كان ذلك كفّر وعاد إلى أهله ؛ لقوله : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » . وهذا تفسير بالغ [في فنه](1) .

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي .

الثانيـــة ــ قال بعض أهل التأويل : الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى «وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ» إلى ما كانوا عليـه من الجماع «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» لـما قالوا ؛ أى فعليهم تحرير رقبـة من أجل ما قالوا ؛ فالجار فى قوله : «لِمَا قَالُوا» متعلق بالمحذوف الذى هو خبر الابتداء وهـو عليهم ؛ قاله الأخفش . وقال الزجاج : المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا . وقيـل : المعنى الذين كانوا يَظَّهَّرون من نسائهم فى الجاهليـة ، ثم يعودون لـما كانوا قالوه فى الجاهلية فى الإسلام فكفارة من عاد أن يحرر رقبة . الفراء : اللام بمعنى عن والمعنى ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء . وقال الأخفش : لـما قالوا وإلى ما قالوا واحد، واللام وإلى يتعاقبان ؛ قال : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا»[(1)] وقال: «فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ»[(2)] وقال : «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا»[(3)] وقال : وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ»[(4)] .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أى فعليه إعتاق رقبة ؛ يقال : حررته أى جعلته حرًّا . ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملةً سليمةً من كل عيب ، من كمالها إسلامها عنـد مالك والشافعى ؛ كالرقبة فى كفارة القتل . وعنـد أبى حنيفة وأصحابه تجزى الكافرة ومن فيها شائبة رِقٍّ[(5)] كالمكاتبة وغيرها .

الرابعـــة ــ فإن أعتق نصفى عبدين فلا يجزيه عندنا ولا عند أبى حنيفة . وقال الشافعى يجزئ ؛ لأن نصف العبدين فى معنى العبـد الواحد ؛ ولأن الكفارة بالعتق طريقها المـال فجاز أن يدخلها التبعيض والتجزى كالإطعام ؛ ودليلنا قوله تعالى : «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وهذا الاسم عبارة عن شخص واحد ، وبعض الرقبة ليس برقبة، وليس ذلك ممـا يدخله التلفيق؛ لأن العبادة المتعلقة بالرقبـة لا يقوم النصف من رقبتين مقامها ؛ أصـله إذا آشترك رجلان فى أضحيتين ؛ ولأنه لو أمر رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجز أن يحج عنـه واحد منهما نصفها كذلك هذا؛ ولأنه لو أوصى بأن تشترى رقبة فتعتق عنه لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين، كذلك فى مسألتنا وبهذا يبطل دليلهم . والإطعام وغيره لا يتجزّى فى الكفارة عندنا .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٨٣ (٣) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٩
(٤) راجع جـ ٩ ص ٢٩ (٥) فى ح ، ز ، س ، ط ، ل : «شعبة رق» والمعنى واحد .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ أى يجامعها فلا يجوز للظاهر الوطء قبل التكفير ، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير . وحكى عن مجاهد : أنه إذا وطئ قبل أن يشرع فى التكفير لزمته كفارة أخرى . وعن غيره : أن الكفارة الواجبة بالظهار تسقط عنه ولا يلزمه شيء أصلا ؛ لأن الله تعالى أوجب الكفارة وأمر بها قبل المسيس ، فإذا أخرها حتى مس فقد فات وقتها . والصحيح ثبوت الكفارة ؛ لأنه بوطئه ارتكب إثما فلم يكن ذلك مسقطا للكفارة ، ويأتى بها قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها . وفى حديث أوس بن الصامت لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه وطئ امرأته أمره بالكفارة[1]. وهذا نص وسواء كانت كفارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام. وقال أبو حنيفة : إن كانت كفارته بالإطعام جاز أن يطأ ثم يطعم ؛ فأما غير الوطء من القبلة والمباشرة والتلذذ فلا يحرم فى قول أكثر العلماء. وقاله الحسن وسفيان ، وهو الصحيح من مذهب الشافعى. وقيل : وكل ذلك محرم وكل معانى المسيس ؛ وهو قول مالك وأحد قولى الشافعى . وقد تقدم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أى تؤمرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من التكفير وغيره .

السابعة — من لم يجد الرقبة ولا ثمنها ، أو كان مالكا لها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته ، أو كان مالكا لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقته ، أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئا سواه ، فله أن يصوم عند الشافعى . وقال أبو حنيفة : لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجا إلى ذلك . وقال مالك : إذا كان له دار وخادم لزمه العتق فإن عجز عن الرقبة ، وهى :

الثامنة — فعليه صوم شهرين متتابعين . فإن أفطر فى أثنائهما بغير عذر آستأنفهما ، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض ، فقيل : يبنى ؛ قاله آبن المسيب والحسن وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار والشعبى . وهو أحد قولى الشافعى وهو الصحيح من مذهبه . وقال مالك :

(١) لم يتقدم العود فى حديث أوس ، وإنما هو فى مظاهر آخر وهو القائل : رأيت خلخالها فى ضوء القمر .

إنه إذا مرض فى صيام كفارة الظهار بنى إذا صح . ومذهب أبى حنيفة رضى الله عنه أنه يبتدئ . وهو أحد قولى الشافعى .

التاسعة — إذا آبتدأ الصيام ثم وجد الرقبة أتم الصيام وأجزأه عند مالك والشافعى؛ لأنه بذلك أمر حين دخل فيه . ويهدم الصوم ويعتق عند أبى حنيفة وأصحابه ؛ قياسًا على الصغيرة المعتدة بالشهور ترى الدم قبل آنقضائها ، فإنها تستأنف الحيض إجماعًا من العلماء . وإذا آبتدأ سفرا فى صيامه فأفطر[1]، آبتدأ الصيام عند مالك والشافعى وأبى حنيفة؛ لقوله : « مُتَتَابِعَيْنِ » . ويبنى فى قول الحسن البصرى ؛ لأنه عُذر[2] [وقياسًا على رمضان ، فإن تخللها زمان لا يحلّ صومه فى الكفارة كالعيدين وشهر رمضان آنقطع] .

العاشرة — إذا وطئ المتظاهر فى خلال الشهرين نهارًا، بطل التتابع فى قول الشافعى، وليلاً فلا يبطل ؛ لأنه ليس محلا للصوم . وقال مالك وأبو حنيفة : يبطل بكل حال ووجب عليه آبتداء الكفارة ؛ لقوله تعالى : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين، و إلى أبعاضهما ، فإذا وطئ قبل آنقضائهما فليس هو الصيام المأمور به، فلزمه آستئنافه؛ كما لو قال : صلّ قبل أن تكلم زيدًا . فكلّم زيدًا فى الصلاة، أو قال : صلّ قبل أن تبصر زيدًا فأبصره فى الصلاة لزمه آستئنافها؛ لأن هذه الصلاة ليست هى الصلاة المأمور بها كذلك هذا ؛ والله أعلم .

الحادية عشرة — ومن تطاول مرضه طولا لا يرجى برؤه كان بمنزلة العاجز من كبر ، وجاز له العدول عن الصيام إلى الإطعام . ولو كان مرضه مما يرجى برؤه وآشتدت حاجته إلى وطء آمرأته كان الاختيار له أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام . ولو كفر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام أجزأه .

الثانية عشرة — ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم . ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفّر صام . و إنما يُنْظر إلى حاله يوم يكفّر . ولو جامعها فى عدمه

(١) لفظة « فأفطر » ساقطة من ز ، ل . (٢) ما بين المربعين ساقط من ح ، ز ، س ، هـ ، ل .

وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق . ولو آبتدأ بالصوم ثم أيسر فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها تمادى . وإن كان اليوم واليومين ونحوهما ترك الصوم وعاد إلى العتق وليس ذلك بواجب عليه . ألا ترى أنه غير واجب على من طرأ الماء عليه وهو قد دخل بالتيمم فى الصلاة أن يقطع ويبتدئ الطهارة عند مالك .

الثالثة عشرة — ولو أعتق رقبتين عن كفارتى ظهار أو قتل أو فطر فى رمضان وأشرك بينهما فى كل واحدة منهما لم يجزه . وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة عن كفارتين . وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كل واحدة منهما شهرين . وقد قيل : إن ذلك يجزيه . ولو ظاهر من آمرأتين له فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينها لم يجز له وطء واحدةٍ منهما حتى يكفّر كفارة أخرى . ولو عيّن الكفارة عن إحداهما جاز له أن يطأها قبل أن يكفّر الكفارة عن الأخرى . ولو ظاهر من أربع نسوة فأعتق عنهنّ ثلاث رقاب، وصام شهرين، لم يجزه العتق ولا الصيام؛ لأنه إنما صام عن كل واحدة خمسة عشر يوما ، فإن كفّر عنهنّ بالإطعام جاز أن يطعم عنهنّ مائتى مسكين ، وإن لم يقدر فرّق بخلاف العتق والصيام ؛ لأن صيام الشهرين لا يفرق والإطعام يفرق .

فصل وفيه ست مسائل :

الأولى — ذكر الله عز وجل الكفارة هنا مرتبةً؛ فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لاسبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الآستطاعة على الصيام ، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين مُدّان بمُد النبيّ صلى الله عليه وسلم . وإن أطعم مدّاً بمد هشام ، وهو مدّان إلا ثلثاً ، أو أطعم مدّا ونصفاً بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أجزاه . قال أبو عمر بن عبد البر : وأفضل ذلك مدّان بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله عز وجل لم يقل فى كفارة الظهار « مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ »[1] فواجب قصد الشبع . قال آبن العربى : وقال مالك فى رواية آبن القاسم وآبن عبد الحكم : مُدّ بمدّ هشام وهو الشبع هاهنا ؛ لأن الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط . وقال فى رواية أشهب : مدّان بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم[2] : [قيل له : ألم تكن قلت مدّ هشام ؟ قال : بلى، مدّان بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أحب إلىّ] . وكذلك قال عنه آبن القاسم أيضا .

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٥		(٢) ما بين المربعين ساقط من ا والأصل المطبوع .

قلت : وهى رواية ابن وهب ومطرّف عن مالك : أنه يعطى مدّين لكل مسكين بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه . ومذهب الشافعيّ وغيره مدّ واحد لكل مسكين لا يلزمه أكثر من ذلك ؛ لأنه يكفّر بالإطعام ولم يلزمه صرف زيادة على المدّ ؛ أصله كفارة الإفطار واليمين . ودليلنا قوله تعالى : « فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً » وإطلاق الإطعام يتناول الشّبع ، وذلك لا يحصل بالعادة بمدّ واحد إلا بزيادة عليه . وكذلك قال أشهب : قلت لمالك أيختلف الشّبع عندنا وعندكم ؟ قال نعم ! الشّبع عندنا مدّ بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والشّبع عندكم أكثر ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا لنا بالبركة دونكم ، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن . وقال أبو الحسن القابسى : إنما أخذ أهل المدينة بمدّ هشام فى كفارة الظهار تغليظاً على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكرا من القول وزورًا . قال ابن العربى : وقع الكلام ها هنا فى مدّ هشام كما ترون ، ووددت أن يهشم الزمان ذكره ، ويمحو من الكتب رسمه ؛ فإن المدينة التى نزل الوحى بها واستقر الرسول بها ووقع عندهم الظهار ، وقيل لهم فيه : « فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً » فهموه وعرفوا المراد به وأنه الشّبع ، وقدره معروف عندهم متقرر لديهم ، وقد ورد ذلك الشّبع فى الأخبار كثيرا ، واستمرت الحال على ذلك أيام الخلفاء الراشدين المهديين حتى نفخ الشيطان فى أذن هشام ، فرأى أن مدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يشبعه ، ولا مثله من حواشيه ونظرائه ، فسوّل له أن يتخذ مدّاً يكون فيه شبعه ، فجعله رطلين وحمل الناس عليه ، فإذا ابتلّ عاد نحو الثلاثة الأرطال ؛ فغيّر السُّنة وأذهب محل البركة . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم حين دعا ربه لأهل المدينة بأن تبقى لهم البركة فى مدّهم وصاعهم ، مثل ما بارك لإبراهيم بمكة ، فكانت البركة تجرى بدعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مدّه ، فسعى الشيطان فى تغيير هذه السنة وإذهاب هذه البركة ، فلم يستجب له فى ذلك إلا هشام ، فكان من حق العلماء أن يلغوا[1] ذكره ويمحوا رسمه إذا لم يغيروا أمره ، وأما أن يحيلوا على ذكره فى الأحكام ، ويجعلوه تفسيرا لما ذكر الله ورسوله بعد أن كان مفسراً عند الصحابة الذين نزل عليهم فخطب جسيم ، ولذلك كانت رواية أشهب فى ذكر مدّين بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم فى كفارة الظهار أحبّ إلينا من

(١) فى ل : « يدعوا » بدل « يلغوا » .

الرواية بأنها بمدّ هشام . ألا ترى كيف نبّه مالك على هذا العلم بقوله لأشهب : الشبع عندنا بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والشّبع عندكم أكثر لأن النبيّ صلى عليه وسلم دعا لنا بالبركة . وبهذا أقول ، فإن العبادة إذا أُديت بالسنة ، فإن كانت بالبدن كانت أسرع إلى القبول ، وإن كانت بالمال كان قليلها أثقل فى الميزان ، وأبرك فى يد الآخذ ، وأطيب فى شدقه ، وأقل آفة فى بطنه ، وأكثر إقامة لصلبه (١) . والله أعلم (٢) .

الثانيــة — ولا يجزئ عند مالك والشافعى أن يطعم أقل من ستين مسكينا . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه .

الثالثــة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : من غريب الأمر أن أبا حنيفة قال إن الحجر على الحر باطل . واحتج بقوله تعالى : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » ولم يفرق بين الرشيد والسفيه ؛ وهذا فقه ضعيف لا يناسب قدره ، فإن هذه الآية عامّة ، وقد كان القضاء بالحجر فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشياً والنظر يقتضيه ، ومن كان عليه حجر لصغر أو لولاية وبلغ سفيها قد نهى عن دفع المال إليه ، فكيف ينفذ فعله فيه والخاص يقضى على العام .

الرابعــة — وحكم الظهار عند بعض العلماء ناسخ لما كانوا عليه من كون الظهار طلاقا ؛ وقد روى معنى ذلك عن ابن عباس وأبى قِلابة وغيرهما .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى ذلك الذى وصفنا من التغليظ فى الكفارة « لِتُؤْمِنُوا » أى لتصدقوا أن الله أمر به . وقد استدل بعض العلماء على أن هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى ؛ لما ذكرها وأوجبها قال : « ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » أى ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى واقفين عند حدوده لا تتعدّوها ؛ فسمى التكفير لأنه طاعة ومراعاة للحد إيمانا ، فثبت أن كل ما أشبهه فهو إيمان . فإن قيل : معنى قوله : « ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » أى لئلا تعودوا للظهار الذى هو منكر من القول وزور .

---

(١) فى ح ، ز ، س ، هـ : « لقلبه » . (٢) فى ح ، ز ، س ، ل ، هـ : « والله الموفق لارب غيره » .

قيل له : قد يجوز أن يكون هذا مقصودا والأول مقصودا ، فيكون المعنى ذلك لئلا تعودوا للقول المنكر والزور ، بل تدعونهما طاعة الله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرمهما ، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تُكفّروا ، إذ كان الله منع من مسيسها ، وتكفّروا إذ كان الله تعالى أمر بالكفّارة وألزم إخراجها منكم ، فتكونوا بهذا كله مؤمنين بالله ورسوله ، لأنها حدود تحفظونها ، وطاعات تؤدّونها والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم إيمان . وبالله التوفيق .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى بيّن معصيته وطاعته ، فمعصيته الظهار، وطاعته الكفارة . ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى لمن لم يصدّق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لها . والمحادة المعاداة والمخالفة فى الحدود ، وهو مثل قوله تعالى : « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ »(١) . وقيل : « يُحَادُّونَ اللَّهَ » أى أولياء الله كما فى الخبر : ".ن أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة " . وقال الزجاج : المحادّة أن تكون فى حدّ يخالف حدّ صاحبك . وأصلها الممانعة ، ومنه الحديد ، ومنه الحدّاد للبوّاب . ﴿ كُبِتُوا ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا . وقال قتادة : أخزوا كما أخزى الذين من قبلهم . وقال ابن زيد : عذبوا . وقال السدى : لعنوا . وقال الفراء : غيظوا يوم الخندق . وقيل : يوم بدر . والمراد المشركون . وقيل : المنافقون . ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . وقيل : « كُبِتُوا »

(١) راجع جـ ١٨ ص ٦

أى سيكبتون، وهو بشارة من الله تعالى للؤمنين بالنصر ، وأخرج الكلام بلفظ الماضى تقريباً للمخبر عنه . وقيل: هى بلغة مَذْحِج (١) . ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ فيمن حادّ الله ورسوله من الذين من قبلهم فيما فعلنا بهم . ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ ﴾ نصب بـ « عَذَابٍ مُهِينٍ » أو بفعل مضمر تقديره وآذكر تعظيماً لليوم . ﴿ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أى الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم فى حالة واحدة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ أى يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ فى الدنيا ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ ﴾ عليهم فى صحائف أعمالهم ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ هم حتى ذكرهم به فى صحائفهم ليكون أبلغ فى الحجة عليهم . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطّلع وناظر لا يخفى عليه شىء .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فلا يخفى عليه سرّ ولا علانيــة . ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ﴾ قراءة العامة باليـاء ؛ لأجل الحـائل بينهما . وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع والأعرج وأبو حَيْـوة وعيسى « مَا تَكُونُ » بالتاء لتأنيث الفعـل . والنَّجوى : السِّرار؛ وهو مصدر والمصدر قد يوصف به ؛ يقال: قوم نجوى أى ذوو نجوى ؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ هُمْ نَجْوَى » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ ثَلَاثَةٍ ﴾ خفض بإضافة « نَجْوَى » إليها . قال الفرّاء : « ثَلَاثَةٍ » نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت أضفت « نَجْوَى » إليها. ولو نصبت على إضمار فعل جاز ؛ وهى قراءة ابن أبى عبلة « ثَلَاثَةً » و « خَمْسَةً » بالنصب على الحال بإضمار يتناجون ؛ لأن نجوى يدل عليه ؛ قاله الزمخشرى . ويجوز رفع « ثلاثة » على البدل من موضع « نَجْوَى » . ثم قيل : كل سِرار نجوى . وقيل : النجوى ما يكون من

(١) مذحج ــ كمسجد ــ : أبو قبيلة باليمن .	(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٧٢

خلوة ثلاثة يسرون شيئا و يتناجون به . والسرار ما كان بين آثنين . ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ يعلم ويسمع نجواهم ؛ يدل عليه آفتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم . وقيل : النجوى من النَّجْوة وهى ما آرتفع من الأرض ، فالمتناجيان يتناجيان و يخلوان بسرهما تخلو المرتفع من الأرض عما يتصل به ، والمعنى: أن سمع الله محيط بكل كلام ، وقد سمع الله مجادلة المرأة التى ظاهر منها زوجها . ﴿ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ قرأ سلّام و يعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بالرفع على موضع « مِنْ نَجْوَى » قبل دخول « مِنْ » لأن تقديره مايكون نجوى، و « ثَلَاثَةٍ » يجـوز أن يكون مرفوعا على محل « لَا » مع « أَدْنَى » كقولك : لا حولَ ولا قوةٌ إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة . ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء، كقولك لا حولٌ ولا قوة إلا بالله . وقد مضى فى « البقرة » بيان هذا مستوفًى[1]. وقرأ الزهرى وعكرمة « أكبر » بالباء. والعامة بالثاء وفتح الراء على اللفظ وموضعها جر . وقال الفرّاء فى قوله : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ » قال : المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود لأنه تعالى إنمـا قصد وهو أعلم أنه مع كل عدد قلّ أو كثر ، يعـلم ما يقولون سرّا وجهرا ولا تخفى عليه خافية ؛ فمن أجل ذلك آكتفى بذكر بعض العدد دون بعض . وقيل : معنى ذلك أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا آنتقال . ونزل ذلك فى قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئا سرّا فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك؛ قاله آبن عباس . وقال قتادة ومجاهد : نزلت فى اليهود . ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ ﴾ يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من حسن وسىء ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾

(١) راجع ج ٣ ص ٢٦٦ فما بعد .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ﴾ قيل : إن هذا فى اليهود والمنافقين حسب ماقدمناه . وقيل : فى المسلمين . قال ٱبن عباس : نزلت فى اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فيقول المؤمنون : لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة ، ويسوءهم ذلك فكثرت شكواهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت . وقال مقاتل : كان بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين اليهود موادعة ، فإذا مر بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرًّا ، فيعرج عن طريقه ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينتهوا فنزلت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فيسأله الحاجة ويناجيه والأرض يومئذ حرب ، فيتوهمون أنه يناجيه فى حرب أو بلية أو أمر مهمّ فيفزعون لذلك فنزلت .

الثانيــة — روى أبو سعيد الخدرى قال : كنا ذات ليلة نتحدّث إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما هذه النجوى ألم تُنهوا عن النجوى " فقلنا : تبنا إلى الله يا رسول الله، إنا كنا فى ذكر المسيخ — يعنى الدجال — فرقًا(١) منه . فقال : " ألا أخبركم بما هو أخوف عندى منه " قلنا : بلى يا رسول الله، قال : " الشرك الخفيّ أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل " ذكره الماوردى . وقرأ حمزة وخلف ورُوَيس عن يعقوب « وَيَنْتَجُونَ » فى وزن يفتعلون وهى قراءة عبد الله وأصحابه . وقرأ الباقون « وَيَتَنَاجَوْنَ » فى وزن يتفاعلون، وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، لقوله تعالى : « إِذَا تَنَاجَيْتُمْ » و « تَنَاجَوْا » . النحاس : وحكى سيبويه أن تفاعلوا وٱفتعلوا يأتيان بمعنى واحد ، نحو تخاصموا وٱختصموا ، وتقاتلوا وٱقتتلوا فعلى هذا « يَتَنَاجَوْنَ » و « يَنْتَجُون » واحد . ومعنى ﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ أى الكذب والظلم . ﴿ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أى مخالفته . وقرأ الضحاك ومجاهد وحميد « وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُول » بالجمع .

(١) فى ل : « خوفا منه » .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ لاخلاف بين النقلة أن المراد بها اليهود؛ كانوا يأتون النبيّ صلى الله عليه وسلم فيقولون: السام عليك. يريدون بذلك السلام ظاهرا وهم يعنون الموت باطنا، فيقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "عليكم" في رواية، وفي رواية أخرى "وعليكم". قال ابن العربي: وهي مشكلة. وكانوا يقولون: لو كان محمد نبيّا لما أمهلنا الله بسبّه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حليم لا يعاجل من سبّه، فكيف من سبّ نبيه. وقد ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لا أحدَ أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم" فأنزل الله تعالى هذا كشفًا لسرائرهم، وفضحا لبواطنهم، معجزةً لرسوله صلى الله عليه وسلم. وقد ثبت عن قتادة عن أنس أن يهوديًّا أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه فقال: السام عليكم. فرد عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال: "أتدرون ما قال هذا" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "قال كذا ردوه عليّ" فردوه؛ قال: "قلت السام عليكم" قال: نعم. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم عند ذلك: "إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت" فأنزل الله تعالى: «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ».

قلت: خرجه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح. وثبت عن عائشة أنها قالت: جاء أناس من اليهود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. فقلت: السام عليكم وفعل الله بكم وفعل. فقال عليه السلام: "مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفُحْش ولا التفحُّش" فقلت: يارسول الله ألست ترى ما يقولون؟! فقال: "ألستِ ترين أرد عليهم ما يقولون أقول وعليكم" فنزلت هذه الآية «بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ» أي إن الله سلّم عليك وهم يقولون السام عليك، والسام الموت. خرجه البخاري ومسلم بمعناه. وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم" كذا الرواية "وعليكم" بالواو وتكلم عليها العلماء؛ لأن الواو العاطفة يقتضي التشريك فيلزم منه أن يدخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت، أو من

سآمة ديننا وهـو الملال . يقال : سئم يسأم سآمةً وسآماً . فقال بعضهـم : الواو زائدة كما زيدت في قول الشاعر :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحةَ الحَيِّ وَانْتَحَى *

أى لما أجزنا آنتحى فزاد الواو . وقال بعضهم : هى للاستئناف، كأنه قال : والسام عليكم . وقال بعضهم : هى على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك؛ لأنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم . روى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سلّم ناس من يهود على رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم، فقال : " وعليكم " فقالت عائشة وغضبت : ألم تسمع ماقالوا ؟ قال : " بلى قـد سمعت فرددت عليهم وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا " خرجه مسلم . ورواية الواو أحسن معنىً، وإثباتها أصح روايةً وأشهر .

وقد آختلف فى رد السلام على أهل الذمة هل هـو واجب كالرد على المسلمين ، وإليه ذهب آبن عباس والشّـعبي وقتادة ؛ للامر بذلك . وذهب مالك فيما روى عنـه أشهب وآبن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب فإن رددت فقل عليـك . وقد آختار آبن طاوس أن يقول فى الرد عليهم : علاك السلام أى آرتفع عنك . وآختار بعض أصحابنا : السِّلام بكسر السين يعنى الحجـارة . وما قاله مالك أولى آتباعاً للسـنة ؛ والله أعلم . وروى مسروق عن عائشة قالت : أتى النّبي صلى الله عليه وسلم ناس من اليهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم؛ قال : " وعليكم " قالت عائشة : قلت بل عليكم السّامُ والذّامُ . فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عائشة لا تكونى فاحشة " فقالت : ما سمعت ماقالوا ! فقال : " أوليس قد رددتُ عليهم الذى قالوا قلتُ وعليكم " . وفى رواية قال : ففطنت بهم عائشة فسبّتهم، فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " مَهْ ياعائشة فإن الله لا يحبّ الفحش والتفحش " وزاد فأنزل الله تبارك وتعالى : « وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » إلى آخر الآية . الذام بتخفيف الميم هو العيب؛ وفى المثل (لا تَعْدَم الحسناءُ ذامًا) أى عيباً، ويهمز ولا يهمز؛

يقال : ذَأَمَهُ يَذْأَمُه، مثل ذأب يذأب، والمفعول مذءوم مهموزاً ، ومنه « مَذْءُومًا مَدْحُوراً »[1]
ويقال : ذامَهُ يَذُومُه مخففًا كرامه يرومه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ قالوا : لو كان محمد نبياً لعذّبنا الله بما نقول فهلّا يعذبنا الله . وقيل : قالوا إنه يردّ علينا ويقول وعليكم السام والسام الموت ، فلو كان نبيًّا لاستجيب له فينا ومتنا . وهذا موضع تعجُّب منهم ؛ فإنهم كانوا أهل كتاب ، وكانوا يعلمون أن الأنبياء قد يُغضَبون فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب . ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى كافيهم جهنم عقاباً غداً ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ » أى تساررتم . ﴿ فَلَا تَتَنَاجَوْا ﴾ هذه قراءة العامة . وقرأ يحيى بن وثّاب وعاصم ورويس عن يعقوب « فلا تَنْتَجُوا » من الانتجاء ﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ ﴾ أى بالطاعة ﴿ وَالتَّقْوَى ﴾ بالعفاف عما نهى الله عنه . وقيل : الخطاب للمنافقين ؛ أى يأيها الذين آمنوا بزعمهم . وقيل : أى يأيها الذين آمنوا بموسى . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى تجمعون فى الآخرة .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٥

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ أى من تزيين الشياطين ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إذ توهموا أن المسلمين أصيبوا فى السرايا، أو إذا أجروا[1] آجتماعهم على مكايدة المسلمين ، وربما كانوا يناجون النبيّ صلى الله عليه وسلم فيظن المسلمون أنهم ينتقصونهم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ ﴾ أى التناجى ﴿ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بمشيئته وقيل : بعلمه . وعن آبن عباس: بأمره . ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى يكلون أمرهم إليه ، ويفوّضون جميع شؤونهم إلى عونه ، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر ؛ فهو الذى سلّط الشيطان بالوساوس آبتلاءً للعبد وآمتحاناً ولو شاء لصرفه عنه .

الثانيــة — فى الصحيحين عن آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا كان ثلاثة فلا يتناجى آثنان دون الواحد " . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى آثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه " فبيّن فى هذا الحديث غاية المنع وهى أن يجد الثالث من يتحدّث معه كما فعل آبن عمر ؛ وذلك أنه كان يتحدّث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجه حتى دعا رابعًا ، فقال له وللأوّل : تأخرا وناجى الرجل الطالب للمناجاة . خرجه الموطأ . وفيه أيضاً التنبيه على التعليل بقوله : " من أجل أن يحزنه " أى يقع فى نفسه ما يحزن لأجله . وذلك بأن يقدّر فى نفسه أن الحديث عنه بما يكره ، أو أنه لم يروه أهلاً ليشركوه فى حديثهم ، إلى غير ذلك من أُلقيات الشيطان وأحاديث النفس . وحصل ذلك كله من بقائه وحده، فإذا كان معه غيره أمِن ذلك ؛ وعلى هذا يستوى فى ذلك كل الأعداد ، فلا يتناجى أربعة دون واحدٍ ولا عشرة ولا ألف مثلاً ؛ لوجود ذلك المعنى فى حقه ؛ بل وجوده فى العدد الكثير أمكن وأوقع ، فيكون بالمنع أولى . وإنما خص الثلاثة بالذكر ؛ لأنه أوّل عددٍ يتأتى ذلك المعنى فيه . وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال ، وإليه ذهب آبن عمر ومالك والجمهور . وسواء أكان التناجى فى مندوب أو مباح أو واجب فإنّ الحزن يقع به . وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان

(١) فى ح ، ز ، ه : « أو إذا رأوا إجماعهم » .

فى أوّل الإسلام ؛ لأن ذلك كان فى حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين، فلما فشا الإسلام سقط ذلك . وقال بعضهم: ذلك خاص بالسفر فى المواضع التى لا يأمن الرجل فيها صاحبه ، فأما فى الحضر و بين العمارة فلا ؛ فإنه يجد من يعينه ، بخلاف السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم المغيث (١) . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ (٢) ﴾ لما بيّن أن اليهود يحيّونه بما لم يحيّه به الله وذمهم على ذلك وصل به الأمر بتحسين الأدب فى مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لا يضيقوا عليه المجلس ، وأمر المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعض ، حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم والنظر إليه . قال قتادة ومجاهد : كانوا يتنافسون فى مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض . وقاله الضحاك . وقال ابن عباس : المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب . قال الحسن ويزيد بن أبى حبيب : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأوّل (٣) فلا يوسع بعضهم لبعض؛ رغبة فى القتال والشهادة فنزلت . فيكون كقوله : « مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ (٤) » . وقال مقاتل : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الصُّفَّة ، وكان فى المكان ضيق يوم الجمعة ، وكان النبيّ صلى الله عليه

(١) فى ح، ز، س، ل، هـ : « الغوث » .

(٢) الأصول على قراءة نافع « فى المجلس » بالأفراد .

(٣) فى ل : « الأوّل فالأوّل » .

(٤) راجع جـ ٤ ص ١٨٤

وسلم يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس ابن شماس وقد سُبِقوا فى المجلس ، فقاموا حيال النبيّ صلى الله عليه وسلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، فشقّ ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لمن حوله من [غير][1] أهل بدر : " قم يافلان وأنت يافلان " بعدد القائمين من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم ، وعرف النبيّ صلى الله عليه وسلم الكراهية فى وجوههم ، فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا : ما أنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية . « تَفَسَّحُوا » أى توسعوا . وفَسَح فلان لأخيه فى مجلسه يَفسَح فَسْحًا أى وسع له ؛ ومنه قولهم : بلد فَسِيح ولك فى كذا فُسْحة ، وفَسَح يَفْسَح مثل منع يَمْنَع ، أى وسّع فى المجلس ؛ وفَسُح يفسُح فَسَاحةً مثل كَرُم يكرُم [كرامة][2] أى صار واسعا ؛ ومنه مكان فسيح .

الثانيــة — قرأ السُّلَمى وزِرّ بن حُبَيش وعاصم « فِى المجَالِس » . وقرأ قتادة وداود ابن أبى هند والحسن باختلاف عنه « إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَاسَحُوا » الباقون « تَفَسَّحُوا فِى المَجْلِس » فمن جمع فلأن قوله : « تَفَسَّحُوا فِى المجَالِس » ينبىء أن لكل واحد مجلساً . وكذلك إن أريد به الحرب . وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم وجمع لأن لكل جالس مجلسًا . وكذلك يجوز إن أريد بالمجلس المفرد مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يراد به الجمع على مذهب الجنس ؛ كقولهم : كثر الدينار والدرهم .

قلت : الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة ؛ فإن كل واحد أحقّ بمكانه الذى سبق إليه [قال صلى الله عليه وسلم : " من سَبق إلى مالم يُسبَق إليه فهو أحق به "[3]] ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه . روى البخارى ومسلم عن ابن عمر عن

(١) الزيادة من ل ، وأسباب النزول وبعض التفاسير وفى ز : « قم أنت يا فلان وأنت يا فلان » .

(٢) زيادة من ل .		(٣) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي .

النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يُقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه " . وعنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا . وكان ٱبن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه . لفظ البخارى .

الثالثــة — إذا قعد واحد من الناس فى موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعد مكانه ؛ لما روى مسلم عن أبى الزبير عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقيمنّ أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول ٱفسحوا " .

فــرع — القاعد فى المكان إذا قام حتى يقعد غيره موضعه نُظر ؛ فإن كان الموضع الذى قام إليه مثل الأوّل فى سماع كلام الإمام لم يكره له ذلك ، وإن كان أبعد من الإمام كره له ذلك ؛ لأن فيه تفويت حظّه .

الرابعــة — إذا أمر إنسان إنسانًا أن يبكر إلى الجامع فيأخذ له مكانًا يقعد فيه لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع؛ لما روى : أن ٱبن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلس له فى يوم الجمعة فيجلس له فيه ، فإذا جاء قام له منه .

فــرع — وعلى هذا من أرسل بساطًا أو سجادةً فتبسط له فى موضع من المسجد .(١)

الخامســة — روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قام أحدكم — وفى حديث أبى عوانة من قام من مجلسه — ثم رجع إليه فهو أحق به " قال علماؤنا : هذا يدل على صحة القول بوجوب ٱختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه ؛ لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبله أولى به وأحرى . وقد قيل : إن ذلك على الندب ؛ لأنه موضع غير متملَّك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده . وهذا فيه نظر ؛ وهو أن يقال : سلمنا أنه غير متملك لكنه يختص به إلى أن يفرغ غرضه منه ، فصار كأنه يملك منفعته ؛ إذ قد منع غيره من يزاحمه عليه . والله أعلم .

(١) فى ز، س، هـ، ل بياض فى هذه النسخ ، بعد قوله : « من المسجد » نبه عليه الناسخ بالهامش بقوله : بياض بالأصل .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ﴾ أى فى قبوركم . وقيل : فى قلوبكم . وقيل : يوسّع عليكم فى الدنيا والآخرة . ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنْشُزُوا فَٱنْشُزُوا ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهما . وكسر الباقون ، وهما لغتان مثل « يَعْكُفُونَ »(١) و « يَعْرِشُونَ »(١) والمعنى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير؛ قاله أكثر المفسرين . وقال مجاهد والضحاك : إذا نودى للصلاة فقوموا إليها . وذلك أن رجالاً تثاقلوا عن الصلاة فنزلت . وقال الحسن ومجاهد أيضاً : أى انهضوا إلى الحرب . وقال ابن زيد : هذا فى بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كان كل رجل منهم يحبّ أن يكون آخر عهده بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ ٱنْشُزُوا » عن النبيّ صلى الله عليه وسلم « فَٱنْشُزُوا » فإن له حوائج فلا تمكثوا . وقال قتادة : المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف . وهذا هو الصحيح ؛ لأنه يعم . والنشز الارتفاع ، مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها ؛ يقال نَشَزَ يَنْشُز ويَنْشِز إذا انتحى من موضعه؛ أى ارتفع منه . وامرأة ناشز منتحية عن زوجها . وأصل هذا من النَّشَز ، والنَّشز هو ما ارتفع من الأرض وتنحى ؛ ذكره النحاس .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ أى فى الثواب فى الآخرة وفى الكرامة فى الدنيا ، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم . وقال ابن مسعود : مدح الله العلماء فى هذه الآية . والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم(٢) « دَرَجَاتٍ » أى درجات فى دينهم إذا فعلوا ما أُمِروا به . وقيل : كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف فيستبقون إلى مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم فالخطاب لهم . ورأى عليه الصلاة والسلام رجلاً من الأغنياء يقبض ثوبه نفوراً من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال : "يافلان خشيتَ أن يتعدّى غناكَ إليه أو فقره إليك" وبين فى هذه الآية أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس . وقيل : أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن . وقال يحيى بن يحيى عن مالك : « يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ » الصحابة « وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » يرفع الله بها العالم والطالب للحق .

(١) راجع جـ ٧ ص٢٧٢ و ص ٢٧٣ . (٢) والمعنى يرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين .

قلت : والعموم أوقع فى المسألة وأولى بمعنى الآية ؛ فيرفع المؤمن[(١)] بإيمانه أولاً ثم بعلمه ثانيا . وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقدّم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه ، وسألهم عن تفسير « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ[(٢)] » فسكتوا ، فقال ابن عباس : هو أَجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله إياه . فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم . وفى البخارى عن عبد الله ابن عباس قال : قدم عُيَينة ابن حصن بن حذيفة بن بدرٍ فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس بن حصن ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القرّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كُهولاً كانوا أو شباناً. الحديثَ وقد مضى فى آخر « الأعراف[(٣)] » . وفى صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحرث لقى عمر بعُسْفَان وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من استعملته على أهل الوادى ؟ فقال : ابن أبزى . فقال : ومن ابن أبزى؟ قال : مَوْلًى من موالينا . قال : فاستخلفتَ عليهم مولًى! قال : إنه قارئ لكتاب الله و إنه عالم بالفرائض . قال عمر : أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً و يضع به آخرين" وقد مضى أول الكتاب[(٤)] . ومضى القول فى فضل العلم والعلماء فى غير موضع من هذا الكتاب[(٥)] [والحمد لله[(٦)]] . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حَضْر الجواد المُضَمَّر سبعين سنة " . وعنه صلى الله عليه وسلم : " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ". وعنه عليه الصلاة والسلام : " يشفع يوم القيامة ثلاثةٌ الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء " فأعظِم بمنزلة هى واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عباس : خُيِّر سليمان [عليه السلام] بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه .

---

(١) فى ح ، ز ، س ، ل ، ه : « فيرفع المرء » . (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٢٩ .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ . (٤) راجع جـ ١ ص ٦ .
(٥) راجع جـ ١٤ ص ٣٤٣ . (٦) من س و ط .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٢)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ « ناجيتم » ساررتم . قال ابن عباس : نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقّوا عليه ؛ فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيّه صلى الله عليه وسلم ، فلما قال ذلك كفّ كثير من الناس . ثم وسّع الله عليهم بالآية التي بعدها . وقال الحسن : نزلت بسبب أن قوماً من المسلمين كانوا يستخلون النبيّ صلى الله عليه وسلم ويناجونه ، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى ، فشقّ عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه . وقال زيد بن أسلم : نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقولون : إنه أُذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحدًا مناجاته . فكان ذلك يشقّ على المسلمين ؛ لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجَوْه بأن جموعا اجتمعت لقتاله . قال : فأنزل الله تبارك وتعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ » الآية ، فلم ينتهوا فأنزل الله هذه الآية ، فانتهى أهل الباطل عن النجوى ؛ لأنهم لم يقدموا بين يدى نجواهم صدقة ، وشقّ ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا من النجوى ؛ لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بما بعد الآية .

الثانيــة ــ قال ابن العربي : وفي هذا الخبر عن زيد ما يدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح ، فإن الله تعالى قال : « ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ » ثم نسخه مع كونه خيرا وأطهر .

وهذا رَدٌّ على المعتزلة عظيم فى التزام المصالح، لكن راوى الحديث عن زيد ابنه عبد الرحمن وقد ضعفه العلماء . والأمر فى قوله تعالى : « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ » نص متــواتر فى الرد على المعتزلة . والله أعلم .

الثالثـــة ــ روى الترمذى عن علىّ بن علقمة الأنمارى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لمـا نزلت(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)(١) [سألته] قال لى النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما ترى دينارا" قلت لا يطيقونه . قال : "فنصف دينار" قلت : لا يطيقونه . قال : "فكم" قلت : شعيرة . قال : "إنك لزهيد" قال فنزلت : «أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ » الآية . قال : فِبِي(٢) خفّف الله عن هذه الأمة . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب إنمـا نعرفه من هذا الوجه ، ومعنى قوله : شعيرة يعنى وزن شـعيرة من ذهب . قال ابن العربى : وهــذا يدل على مسألتين حسنتين أصوليتين : الأولى ــ نسـخ العبادة قبــل فعلها . والثانيــة ــ النظر فى المقدّرات بالقياس ؛ خلافا لأبى حنيفة .

قلت : الظاهر أن النسخ إنمـا وقع بعد فعل الصدقة . وقد روى عن مجاهد : أن أول من تصدّق فى ذلك علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وناجى النبىّ صلى الله عليه وسلم . روى أنه تصدّق بخاتم . وذكر القشيرى وغيره عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : "فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى ، وهى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً » كان لى دينار فبعته ، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدّقت بدرهم حتى نفد ؛ فنسخت بالآية الأخرى «أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ» . وكذلك قال ابن عباس : نسخها الله بالآية التى بعدها . وقال ابن عمر : لقد كانت لعـلىّ رضى الله عنه ثلاثة لو كانت لى واحدة منهن كانت أحبّ إلىّ من حُمُر النَّعم : تزويجه فاطمة ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى . (ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ) أى من إمساكها (وَأَطْهَرُ) لقلوبكم من المعاصى (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا) يعنى الفقراء (فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(١) زيادة من ح ، ز ، س ، ل ، هـ . (٢) كلمة : « فبى » ساقطة من ل .

قوله تعالى : ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ ٱستفهام معناه التقرير . قال ٱبن عباس : « أَأَشْفَقْتُمْ » أى أبخلتم بالصدقة ؛ وقيل : خفتم ، والإشفاق الخوف من المكروه . أى خفتم وبخلتم بالصدقة وشق عليكم ﴿ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ . قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ . وقال الكلبي : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة . وقال ٱبن عباس : ما بقى إلا ساعة من النهار حتى نسخ . وكذا قال قتادة . والله أعلم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى نسخ الله ذلك الحكم . وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدّق به ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة . وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل ، وما روى عن علىّ رضى الله عنه ضعيف ؛ لأن الله تعالى قال : « فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا » وهذا يدل على أن أحدا لم يتصدّق بشىء . والله أعلم . ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ فى فرائضه ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فى سننه ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ قال قتادة : هم المنافقون تولّوا اليهود ﴿ مَا هُمْ مِنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ يقول : ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين بل هم مذبذبون بين ذلك ، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم . قال السّدى ومقاتل : نزلت فى عبد الله بن أبىّ وعبد الله بن نَبْتَل المنافقَيْن ؛ كان أحدهما يجالس النبىّ صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حجرة من حجراته إذ قال: "يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعينى شيطان" فدخل عبد الله بن نبتل — وكان أزرق أسمر قصيرًا خفيف اللحية — فقال عليه الصلاة والسلام: "علام تشتمنى أنت وأصحابك" فحلف بالله ما فعل ذلك . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : " فعلت " فآنطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه ؛ فنزلت هذه الآية . وقال معناه آبن عباس . روى عكرمة عنه ؛ قال: كان النبىّ صلى الله عليه وسلم جالسا فى ظل شجرة قد كاد الظل يتقلص عنه إذ قال: "يجيئكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان" فنحن على ذلك إذ أقبل رجل أزرق، فدعا به النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : " علام تشتمنى أنت وأصحابك " قال : دعنى أجيئك بهم . فمرّ فجاء بهم فحلفوا جميعا أنه ما كان من ذلك شىء؛ فأنزل الله عز وجل: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا» إلى قوله : « هُمُ الْخَاسِرُونَ » واليهود مذكورون فى القرآن بـ « غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » .

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أى لهؤلاء المنافقين ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فى جهنم وهو الدرك الأسفل . ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بئس الأعمال أعمالهم ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ (1) يستجنون بها من القتل . وقرأ الحسن وأبو العالية «إِيمَانَهُمْ» بكسر الهمزة هنا وفى «الْمُنَافِقُون» . أى إقرارهم آتخذوه جنة ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل ، وكفرت قلوبهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار . والصدّ المنع «عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أى عن الإسلام . وقيل: فى قتلهم بالكفر لما أظهروه من النفاق . وقيل : أى بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم .

---

(1) راجع جـ ١٨ ص ١٢٣ .

قوله تعالى : لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ج أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ج وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ج أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ج أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ج أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى من عذابه شيئاً. وقال مقاتل : قال المنافقون إن محمدا يزعم أنه يُنصَر يوم القيامة، لقد شقينا إذًا ! فوالله لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة . فنزلت[(١)] : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أى لهم عذاب مهين يوم يبعثهم ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ اليوم . وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين غدًا ، وقد صارت المعارف ضرورية . وقال ابن عباس : هو قولهم « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »[(٢)] . ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ بإنكارهم وحلفهم . قال ابن زيد : ظنوا أنهم ينفعهم فى الآخرة . وقيل : « وَيَحْسَبُونَ » فى الدنيا « أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ » لأنهم فى الآخرة يعلمون الحق باضطرار . والأول أظهر . وعن ابن عباس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ينادى منادٍ يوم القيامة أين خصماء الله فتقوم القَدَرية مسودّة وجوههم مزرقّة أعينهم مائل شدقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمساً ولا قمراً ولا صنماً ولا وثناً ، ولا اتخذنا من دونك إلهًا " . قال ابن عباس : صدقوا والله ! أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ؛ ثم تلا ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ هم والله القَدَرية . ثلاثًا .

قوله تعالى : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى غلب واستعلى ؛ أى بوسوسته فى الدنيا . وقيل : قوى عليهم . وقال المفضّل : أحاط بهم . ويحتمل رابعًا أى جمعهم وضمهم . يقال : أحوذ الشيء أى جمعه وضم بعضه إلى بعض ، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوى عليهم وأحاط بهم .

---

(١) فى ح ، ز ، س ، هـ ، ل : « فنزلت الآية قوله تعالى » .		(٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠١

(فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ) أى أوامره فى العمل بطاعته . وقيل : زواجره فى النهى عن معصيته . والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة ، ويكون بمعنى الترك ، والوجهان محتملان هنا . (أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ) طائفته ورهطه (أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) فى بيعهم ؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم ، وباعوا الهدى بالضلالة .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُولَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) تقدم أول السورة . (أُولَئِكَ فِى الْأَذَلِّينَ) أى من جملة الأذلاء لا أذل منهم (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ) أى قضى الله ذلك . وقيل : كتب فى اللوح المحفوظ ؛ عن قتادة . الفراء : كتب بمعنى قال . (أَنَا) توكيد (وَرُسُلِى) من بُعث منهم بالحرب فإنه غالب[1] بالحرب ، ومن بُعث منهم بالحجة فإنه غالب بالحجة . قال مقاتل قال المؤمنون : لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله على فارس والروم ؛ فقال عبد الله بن أُبَىّ ابن سَلُول : أتظنون الروم وفارس مثل القرى التى غلبتم عليها ؟ ! والله إنهم لأكثر عددًا ، وأشد بطشًا من أن تظنوا فيهم ذلك ؛ فنزلت : « لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى » . نظيره : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ[2] » .

قوله تعالى : لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُولَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

(١) فى ح ، ز ، س ، ل ، ه : « فإن الرسول غالب » . (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٣٩

فيـه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ ﴾ أى يحبون ويوالون ﴿ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ تقـدّم (١) ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ قال السـدى : نزلت فى [عبـد الله بن] (٢) عبـد الله بن أبىّ ، جلس إلى النبىّ صـلى الله عليه وسـلم فشرب النبىّ صـلى الله عليه وسلم ماء ؛ فقال له : بالله يارسـول الله ما أبقيت من شرابك فضـلةً أسقيها أبى ؛ لعل الله يُطهّر بهـا قلبه ؟ فأفضل له فأتاه بها ؛ فقال له عبد الله : ما هـذا ؟ فقال : هى فضلة من شراب النبىّ صلى الله عليه وسلم جئتك بها تشربها لعل الله يطهّر قلبك بهـا . فقال له أبوه : فهلا جئتنى ببول أمك فإنه أطهر منها . فغضب وجاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقال : يارسـول الله ! أما أذنت لى فى قتل أبى ؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " بل ترفق به وتحسن إليـه " . وقال ٱبن جريج : حُدِّثت أن أبا قُحافة سب النبىّ صلى الله عليه وسلم فصكّه أبو بكر ٱبنه صكةً فسقط منها على وجهه ، ثم أتى النبىّ صـلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال : " أو فعلته ، لا تعد إليه " فقال : والذى بعثك بالحق نبيًّـا لو كان السيف منى قريباً لقتلته . وقال ٱبن مسعود : نزلت فى أبى عبيـدة بن الجراح ؛ قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أُحد وقيل : يوم بدر . وكان الجراح يتصدّى لأبى عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله ؛ فأنزل الله حين قتل أباه : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . قال الواقدى : كذلك يقول أهل الشام . ولقد سألت رجالا من بنى الحرث بن فهر فقالوا : توفى أبوه من قبل الإسـلام . ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ يعنى أبا بكر دعى ٱبنه عبد الله إلى البراز يوم بدر، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: " مَتِّعْنَا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندى بمنزلة السمع والبصر" . ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ يعنى مصعب بن عمير

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٩٤

(٢) زيادة لازمة ؛ فقد كان عبدالله بن عبد الله بن أُبى ٱبن سلول رضى الله عنه من فضلاء الصحابة وخيارهم وكان أبوه عبد الله رأس المنافقين وفيه نزلت الآية .

قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر . ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ يعنى عمر بن الخطاب قتل خاله العاص ٱبن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وعليًّا وحمزة قتلا عُتبة وشيبة والوليد يوم بدر . وقيل : إن الآية نزلت فى حاطب بن أبى بَلْتَعة ، لما كتب إلى أهل مكة بمسير النبيّ صلى الله عليه وسلم عام الفتح ؛ على ما يأتى بيانه أوّل سورة « الممتحنة » إن شاء الله تعالى . بيّن أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار و إن كانوا أقارب .

الثانيـــة ـــ ٱستدل مالك رحمه الله من هذه الآية على معاداة القَدَرية وترك مجالستهم. قال أشهب عن مالك : لا تجالس القَدَرية وعادِهم فى الله ؛ لقوله تعالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

قلت : وفى معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان . وعن الثورى أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت فى مَن كان يصحب السلطان . وعن عبد العزيز بن أبى داود أنه لقى المنصور فى الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : "اللهم لا تجعل لفاجر عندى نعمة فإنى وجدت فيما أوحيت « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ـــ إلى قوله ـــ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ »" أى خلق فى قلوبهم التصديق ؛ يعنى من لم يوال من حاد الله . وقيل : كتب أثبت ؛ قاله الربيع بن أنس . وقيل : جعل ؛ كقوله تعالى : « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ »(١) أى ٱجعلنا . وقوله : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ »(٢) وقيل : « كَتَبَ » أى جمع ، ومنه الكَتيبة ؛ أى لم يكونوا ممن يقول نؤمن ببعض ونكفر ببعض . وقراءة العامة بفتح الكاف من « كَتَبَ » ونصب النون من « الإيمان » بمعنى كَتَبَ الله وهو الأجود ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ وقرأ أبو العالية وزِرّ بن حُبيش والمفضل عن عاصم « كُتِبَ » على ما لم يسمّ فاعله « الْإِيمَانُ » برفع النون . وقرأ زِرّ بن حُبيش « وَعَشِيرَاتِهِمْ » بألف وكسر التاء على الجمع ، ورواها الأعمش عن أبى بكر عن عاصم . وقيل : كَتَبَ « فِي قُلُوبِهِمْ » أى على قلوبهم ، كما فى قوله « فِي جُذُوعِ النَّخْلِ »(٣) وخص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمان . « وَأَيَّدَهُمْ » قوّاهم ونصرهم بروح منه ؛ قال الحسن : و بنصر منه . وقال

(١) راجع جـ ٤ ص ٩٧ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٦ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٢٤

الربيع بن أنس : بالقرآن وحججه . وقال ابن جريج : بنور و إيمان و برهان وهدى . وقيل : برحمة من الله . وقال بعضهم : أيدهم بجبريل عليه السلام . ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أى قبل أعمالهم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فرحوا بما أعطاهم ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ قال سعيد بن أبى سعيد الجرجانى عن بعض مشايخه ، قال داود عليه السلام : إلٰهى ! مَن حزبك وحول عرشك ؟ فأوحى الله إليه : « ياداود الغاضّةُ أبصارهم ، النقية قلوبهم ، السليمة أكفهم ؛ أولئك حزبى وحول عرشى » .

ختمت والحمد لله سورة " المجادلة "

١٨ ربيع الثانى سنة ١٣٨٥
١٥ أغسطس سنة ١٩٦٥

محققه
أحمد عبد العليم البردونى

✦ ✦ ✦

تم بعون الله تعالى الجزء السابع عشر من تفسير القرطبي .

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن عشر ، وأوله :

" سورة (الحشر) "

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٦٠/١٩٨٨

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٦٧٩ - ٣